

حركة الفتح الإسلامي

في القرن الأول

دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية

شكري فيصل

دكتور في الآداب من جامعة فؤاد الأول

ملزم الطبع والنشر : مكتبة الخانجي بمصر

مطابع دار الكتاب العربي بمصر : محمد حلمي النياوي

١٣٧١ - ١٩٥٢

2269
3549
343

2269.3549.343

Faysal

Harakat al-fath al-Islami...

DATE

ISSUED TO

DATE ISSUED

DATE DUE

DATE ISSUED

DATE DUE

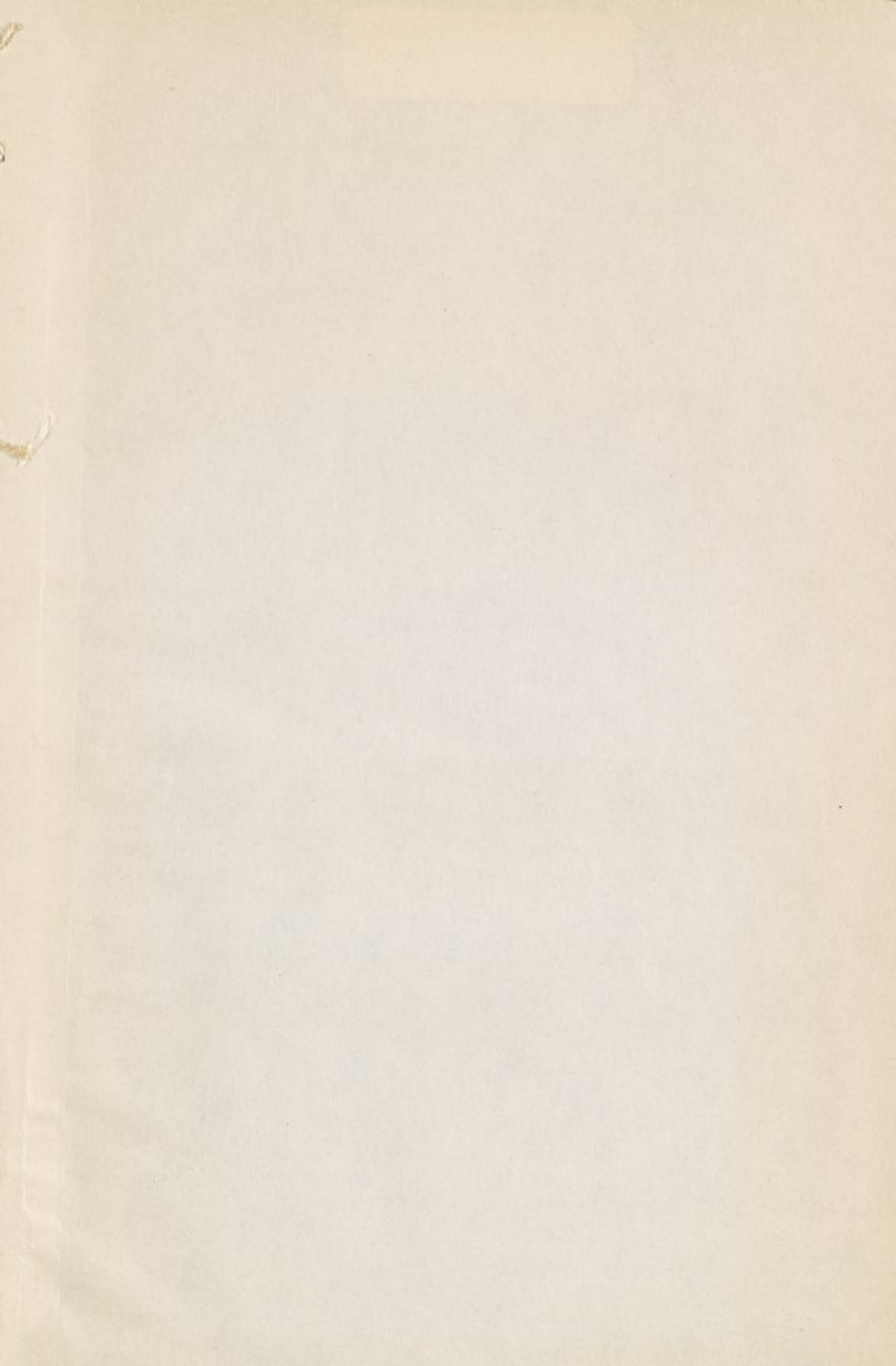
MAY 2

DEC 16 JUN 26 87

Princeton University Library



32101 073552422



Harakat al-fath al-islami

حَرَكَةُ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ

في القرن الأول

دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية

شكري فيصل

دكتور في الآداب من جامعة فؤاد الأول

Shukri Fayṣal

١١١

ملزم الطبع والنشر : مكتبة الخانجي بمصر

مطابع دار الكتاب العربي بمصر : محمد حلمي النياوي

١٣٧١ - ١٩٥٢



المؤلف :

أستاذ مساعد في كلية الآداب بالجامعة السورية
ليسانس بامتياز في الآداب من جامعة فؤاد الأول
ليسانس في الحقوق من الجامعة السورية
ماجستير في الآداب بتقدير جيد جداً من جامعة فؤاد
دبلوم معهد اللغات العربية بجامعة فؤاد الأول
دكتور في الآداب بتقدير جيد جداً من جامعة فؤاد

الكتاب :

الرسالة الإضافية التي تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه
وقد ناقشت الرسالة في ٧١/١/٢٤ - ١٠/١٠/٢٥ هـ لجنة من :
الدكتور زكي محمد حسن رئيساً والأستاذ أمين الحولى مشرفاً
والدكتور أحمد أمين والدكتور حسن إبراهيم والدكتور فؤاد حسنين



٣ — الرخة	٤ — أليس الصغرى
٥ — أمغيثا	٦ — يوم المقر وفم فرات بادقلى
٧ — الحيرة والأنبار	٨ — ما حول الحيرة
الشرق الثاني — خالد بعد الحيرة (خالد يتنقذ عياضا)	٤٤ — ٤٧
١ — عين النمر	٢ — دومة الجندل
٣ — الحصيد والحنافس والمصيخ والبشر	٤ — الفراض
المرحلة الثانية (العراق العجى، عمرو وقواده، من الحيرة إلى القادسية)	٤٧ — ٥٩
تمهيد	
١ — النمارق	٢ — السقاطية
٣ — باقشيانا	٤ — الجسر
٥ — البويب	٦ — الحنافس والسكبات وءرت أخرى
٧ — القادسية	
المرحلة الثالثة (من القادسية إلى المدائن)	٥٨
القسم الثاني — موقف العراق من حركة الفتح	٥٩
تمهيد	
١ — موقف العرب	٦٠
١ — موقف العرب في طريق خالد إلى الحيرة ..	٦١
٢ — موقف العرب في طريق خالد بعد الحيرة ...	٦٤
٣ — موقف عرب المدن	٦٧
٤ — ارتداد عرب العراق عن صلحهم	٦٧
٢ — موقف الفرس	٦٩
١ — الحياة الداخلية للأسرة المالكة	٦٩
٢ — هل كانت الإمبراطورية هرمة	٧٠
٣ — مواقف خاصة	٧١
٣ — موقف السكان الأصليين (أهل السواد)	٧٣
تمهيد	
١ — طبقة الفلاحين ..	٧٣
٢ — طبقة الدهاقين والمقاتلة	٧٥
الفصل الثالث — فتوح مصر وبرقة وطرابلس وبلاد النوبة	٧٧ — ٨٠
القسم الأول — البواعث والأهداف	٧٨
١ — الباعث النفسى	٧٨
٢ — الباعث الواقعى	٧٨
٣ — الصلات بين مصر وبلاد العرب :	
(أ) سينا (ب) البحر الأحمر (ج) في الجاهلية	٧٩
٤ — الضرورات الحربية	٨٢
٥ — خيرات مصر	٨٤

[illegible]

الفصل الخامس

الفتوحات في الجناح الشرقي من المملكة الإسلامية ... ١٤٣

١ - الحيز الزماني للفتوح ١٤٤

٢ - الحيز المكاني للفتوح ١٤٦

٣ - منابع الفتوح ومصادرها ١٤٧

٤ - طبيعة الفتوح في هذه المنطقة الشرقية ١٥١

١٥١	...	...	...	١ - التداخل والتعقيد (أسبابه الثلاث)
١٥٢	...	...	...	٢ - كثرة الانتفاض والارتداد
١٥٥	...	...	...	٥ - سير الفتوح :
١٥٥	...	...	...	(أ) فتح إيران
١٥٩	...	...	...	(ب) فتح ما وراء النهر
١٥٩	...	...	...	١ - كيف كان ما وراء النهر
				٢ - حركة الفتح
				ملاحظات تمهيدية ثلاث
				المراحل الثلاث لحركة الفتح :
				المرحلة الأولى : قبل قتيبة : اندفاع وتمهيد
				المرحلة الثانية : مع قتيبة : تنظيم وتركيز
				المرحلة الثالثة : بعد قتيبة : تراجع وانحسار
١٧٠	...	...	...	(ج) فتح السند
١٧١	...	...	...	٦ - موقف السكان من هذه الفتوح
١٧٥	...	...	...	المصادر
١٧٨	...	...	...	الكشاف
	...	...	...	خريطة جزيرة العرب والقبائل العربية
	...	...	...	» » » والهلل الحبيب
	...	...	...	» » » ومصر
	...	...	...	خريطة الفتح الإسلامي في إفريقيا والمغرب
	...	...	...	خريطة فتوح الجناح الشرقي في المملكة الإسلامية

استدراك وتصويب

الخطأ	السطر	الصفحة	المصواب
المدى	١	٣	المدى
جرجى	٣ « من الهامش »	٢٩	جرجه
عبد الله بن جرير	١٩	٣٨	جرير بن عبد الله
أبي عبيدة	١٩	٤٧	أبي عبيد
أشوميا	١٤	٥٢	شوميا
١/٥ عن ... في اصطخر ٢٨٨٤/٥/١ عن ٠٠٠ في المدائن	٢ « من الهامش »	٥٩	
لابن هشام الكلبي	١	٦٣	لهشام بن الكلبي
بن سعيد	١	٥	بن سعيد
رؤساء	٢ « من الهامش »	٨٩	ومعهم رؤساء
البلاذري الخطط ٢٢٣	١ « من الهامش »	٩٤	البلاذري ٢٢٣
قيس بن زهير	٧	١٢٨	زهير بن قيس
ابن شهر	٢ « من الهامش »	١٤٨	أبر شهر
ابن أبي عامر	١٠	١٥٢	عبد الله بن عامر
ابن أبي عامر	١٨	١٥٤	عبد الله بن عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

موضوع هذا الكتاب دراسة حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول . وهو موضوع دفعنى إليه أننى عُنيت بدراسة التطور اللغوى والأدبى لذى شهدته الجماعة العربية فى أدبها ولغتها حين انطلقت من الجزيرة نحمل دعوتها ، فانساحت فى هذه المهاجر الجديدة ثم استقرت فيها تبنى مجتمعاً وتكوّن أمة وتحكى لغة وتنشئ أدباً ، وتقيم لذلك كله الأسس والمواد .

ومن أجل دراسة هذا التطور اللغوى والأدبى وجدتنى مضطراً إلى دراسة هذه المجتمعات الجديدة التى كانت وعاء هذا التطور ، لأنه إنما وجد فيها وزكا فى أجوائها وكان أنراً من آثارها ونتيجة من نتائجها .

وهذه المجتمعات الجديدة إنما نشأت فى أعقاب الفتوح وكانت ثمرتها الأولى . ولذلك يبدو طبيعياً أن كل محاولة للتعرف إلى حال اللغة العربية أو حال الأدب العربى ، وكل دراسة للمجتمع الإسلامى فى نشأته ونموه - يجب أن تقوم قبل كل شئ على دراسة الفتوحات ورصد معالمها الظاهرة والخفية .

٢ - ومن هذه الزاوية نظرت فى حركة الفتح الإسلامى وعلى هدى منها أقت هذا الكتاب . . هنالك كثرة كثيرة من الكتب التى تدرس التاريخ الإسلامى فتعرض للفتوح ، ولكن أغلب هذه الكتب إنما يعنى بالفتوح عناية قريبة يجمل منها شيئاً أقرب إلى أن يكون حكاية أو عرضاً ، و يقيمه على أنها سرد لوقائع وقص لأحداث ، لا نفاذ إلى الروح التى تكمن وراء هذه الوقائع ، والخمائر التى

تحملها هذه الأحداث ثم تلقى بها هنا وهناك . . ولذا رجوتُ أن يُعنى هذا الكتاب بالفتوحات من هذا الوجه : أعنى من حيث أنها سبب في نشأة المجتمعات الجديدة وطريق للتعرف إلى معالم هذه المجتمعات ، وسبيلٌ بعد ذلك إلى دراسة اللغة والأدب العربيين دراسةً لا تخمها جذورها على السطح الأعلى من الأرض ولكنها تنفذ ما استطاعت إلى البعيد العميق .

٣ - وقد تعاقبت في المكتبة العربية كتب كثيرة على دراسة الحركات الاجتماعية والسياسية في الإسلام دراسةً طيبة ، بعضها عن هذه الحركات مجملّة وبعضها اقتصر على حركة منها . . ولكن أغلب هذه الدراسات كانت تنصبّ على القرون المزدهرة ، ولكن أقلّها كذلك كان لا يقف عند القرن الأول وقفةً مستطيلة ، ولكنها جميعاً أيضاً لا تمهد لعملها بالتعرف إلى الأسس الأولى التي نشأت عنها هذه الحركات . . أعنى أنها لم تحاول التعرف إلى حركة الفتح نفسها وإنما قنعت أنه كان هنالك فتح ثم مضت بعددٍ تنظر فيما كان . . على حين يبدو أن من الطبيعي أن تتعقب جذور هذه الحركات في منابتها الأولى ، في حركة الفتح نفسها ، فقد تكون هذه الحركة ، بما هي هجرة دين وهجرة لغة وهجرة قوم وهجرة دم - قد تكون فيها نفسها السكهارب الأولى لـكل الذي شهدته الحياة الإسلامية بعد ذلك .

٤ - ومن هنا أخذتُ أدرس الفتوح . . ولست أحبّ أن أشير الساعة إلى الصعوبات التي تواجه الدارس المتشدّد حين يحاول أن يأخذ الأمور على أمثل وجوها وأن يتعرف إليها على أكمل صورها ، فحديث ذلك مما يحسّه الدارسون بأنفسهم ويدركون متاعبه المذلّة وآلامه المنتجة . ولكني أحبّ أن أشير إلى أنه لا يزال هنالك كثير جداً من الغموض وكثير جداً من التعقيد وكثير أيضاً من النقص في ميدان الدراسات التاريخية في اللغة العربية ، وما نُشر لأعيننا حتى الآن لا ينفع غلة لأنه إما أن يهمل التاريخ على حساب التعرض للحوادث الاجتماعية وإما أن يكتفى بالصورة المجملّة التي تهب القارىء الأبعاد القريبة من دون الأبعاد الأخرى

العميقة . . ولعل أقسام دراسة التاريخ في كليات الآداب من جامعات العالم العربي والإسلامي تجتمع وتتوزع على صياغة هذا التاريخ صياغة سليمة ، لأن الحقيقة الأليمة القاسية التي ننتهي إليها حين ننظر نظرة بصيرة أن هذا التاريخ لم يكتب بعد بل إنه في كثير من أطرافه لم يدرس .

٥ - وسيتبين مطالع هذا الكتاب أي جزأت الفتوح في هذه الأقسام الخمسة فجعلت كلاً من فتوح الشام والعراق ومصر قسماً ، وجعلت ماوراء مصر قسماً رابعاً سميته الجناح الغربي وما وراء العراق قسماً خامساً سميته الجناح الشرقي . . ودرست حركة الفتح في كلٍّ من هذه الأقسام دراسة قصدت فيها إلى الإيضاح من نحو والتحديد من نحو والتتبع من نحو ثالث . . فكنت أجمع ما بين الروايات وأقابل بعضها ببعض وأضم بعضها إلى بعض ، وكنت أحاول أن أبلور كثيراً من الحركات المتناثرة والفروع المتباعدة فأشركها في أصولها الأولى أو في غرضها العام ، وكنت أتتبع الروايات وأسلسل الحوادث وأنظم سير الحركة الأصلية والفرعية . . حتى يكون من ذلك كله بين يدي القارئ حين ينتهي من قراءة الفصل صورة واضحة لحركة الجيوش في هذه المناطق وتعاقبها وأمدادها ، وما تمكّنت منه وما ارتدت عنه ، وكيف تغلبت على ناحية وغلبت في ناحية ، وكيف انتهت بها الأمر أخيراً إلى الغلبة والاستقرار .

٦ - ولم أنظر في حركة الفتح وفي التعليل لبعض ظواهرها نظرة خاصة ، ولكنني تركت لنفسى أن أقرأ وأن أدرك ، ومن هنا وجدتني مضطراً أن أناقش بعض الأفكار والأنظار عند الحديثين من المؤلفين الذين أرخوا حركة الفتح . فبعض هؤلاء المؤرخين ينظر إلى هذه الحركة من نحو خاص ويلتزم هذا النحو في التعليل لها ومناقشتها . . وما من شيء أبعد عن الصواب من أن نلتزم في هذه الحركة الواسعة العريضة وجهاً واحداً ، وما لم يفد المؤرخ من دراسته سعة الأفق والقدرة على الانفلات من تزمّت التعليل الواحد فسيظل بعيداً عن المؤرخ الحق . . إن النظرة

المتكاملة وحدها ، كما يبدو لي ، هي التي تستطيع أن تلفّ حركة الفتح وأن تفسرها لأن هذه النظرة هي نظرة الإسلام نفسه إلى الحياة ولأنها هي التي تدلّ عليها حوادث الفتح نفسها في أصولها وفروعها . . . ولقد كان لي في ذلك كله حديث أرجو أن أدفع به إلى النشر في مدى قريب .

٧ - ولقد أطلقتُ على حركة الفتح في عهدها الأولى ، حين كان فيها كلّ الصفاء والنقاء اسم « حركة التحرير الإسلامي » ، ومضيت على ذلك حين كتبتُ البحث فسميت الفصول تحرير الشام وتحرير العراق .. غير أني آثرت أن أعود بعد ذلك إلى الاسم الذي نعودناه فراراً من التعميم وخلاصاً من الالتباس وسيطالع القاري بقايا هذا التعبير في خلال بعض الفصول .

٨ - والمصادر التي رجعتُ إليها هي كل ما قدرتُ عليه حين كنت منفرداً للدراسة ، وقد تحدثتُ عن هذه المصادر التاريخية في تصدير كتاب « المجتمعات الإسلامية » . وإن أعيد هنا ما قلته هناك من أني اقتصرت باديء الموضوع على الطبري والبلاذري وابن عبد الحكم وما علات به لهذا الاختصار وما تحدثت عن المصادر التاريخية الأخرى التي رجعتُ إليها بعد ذلك ، ولكنني أحب أن أضيف أنني أفدت بعدُ من الدراسات الحديثة التي قصرتُ جهدها على موضوع واحد : أفدت من دراسة الأستاذ جب عن « الفتوح العربية في آسيا الوسطى » وقد كانت رسالته للماجستير من جامعة لندن - ومن دراسة الدكتور حسين مؤنس عن « فتح العرب المغرب » وقد كانت رسالته للماجستير من جامعة فؤاد - ومن تحقيق وتفصيل الأستاذ بتلر في « فتح العرب مصر » وتركيز وإيجاز الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف في « مصر في فجر الإسلام » ، وقد كان الكتاب رسالتها للماجستير من جامعة فؤاد - أفدت من ذلك كله في دراسة الحوادث .. غير أن السبل والأغراض كانت مختلفة .

وكان لي في كتابة هذه الفصول نهج خاص .. فقد حرصتُ ، في كلّ مرة توفّر لي

ذلك، أن أستخدم عبارات مؤرخينا أنفسهم وفعلت ذلك ما قدرت عليه ، وجاءت بعض الصفحات وليس لي فيها إلا الربط بين العبارات . وتمنيت لو استقام لي ذلك في كل أطراف الموضوع .

٩ - ولم تسكن أكبر الصعوبات التي واجهتها لتبدو في تتبع الروايات التاريخية وتنسيقها ولكنها كانت قبل ذلك وفوق ذلك في تحديد المواضع ومعرفة أماكنها من المصورات الحديثة . . وإنه لمن المؤسف حقاً أن لا يكون بين أيدينا أطلس تاريخي عربي ترتدّ معه قراءتنا من قراءات مجردة خيالية عامة لتكون دراسة بصرية واقعية محدّدة ، ترتبط فيها الكلمات بمدلولاتها ارتباطاً وثيقاً محكماً .

ولهذا انصرفت حيناً من الوقت أبذل الجهد في هذه الناحية ، ولم يكن في وسعي أن أحقق شيئاً ذا غناء كبير ، فاعتمدتُ بعض مصوّرات الأستاذ محمد فخر الدين مرة واستعنتُ بمخططات الأستاذ كيتاني مرة وجمعتُ منها ومن غيرها هذه المجموعة التي يرى القارئ بعضها في ثنايا الكتاب وبعضها في آخره .

ومن الوفاء أن أزجي هذا الشكر خالصاً للأستاذة ليلى محمد عثمان « أولى خريجات قسم الجغرافيا عام ١٩٥٠ - ٥١ » فقد تولّت عني رسم هذه الخرائط بما عُرف عنها من جدّ ودقة واضطرها ذلك إلى جهد ووقت بذلته راضية به ، إخلاصاً للروح الخلقية والعلمية العميقة التي تتحلّى بها .

١٠ - هذا هو الكتاب : دراسة مقصودة لذاتها ودراسة تمهيدية لما وراءها .. دراسة لذاتها من حيث حاجتنا إلى كتاب يؤرخ لحركة الفتح الإسلامي في تتبع جديدة ووضوح تاريخياً اجتماعياً . ودراسة تمهيدية لما وراءها من حيث أن الدراسات الأدبية واللغوية تزداد خصوصية وغنى إذا هي اتسّكت إلى الدراسة التاريخية واستمدت منها . . إن التاريخ ، كما قلت في مقدمة كتاب المجتمعات الإسلامية ، لم يُستخدم بعد استخداماً حقاً في استكناه الحيوانات الأدبية واللغوية على حين استخدم الأدب في التاريخ استخداماً طيباً واسعاً .

ومن هذا كانت الصلة بين هذا الكتاب وكتاب المجتمعات الإسلامية صلة وثيقة . . . أنهما يتقاربان ويتكاملان ، لا يفنى أحدهما عن صاحبه ولا يستغنى عنه . ولذلك تجاوزت في هذه المقدمة عن كثير كنت قلته هناك .

وأنا أعيد هنا شكر أستاذي المشرف الأستاذ الجليل « أمين الخولي » فقد عودني الصبر وحُبَّ الحق الأنا، وأخذني بالعمل الدائب ، وردّني مرة ومرة إلى ما يجب أن يأخذ به الدارسون أنفسهم من النهج العلمي ومن الروح العالية التي لا تضيق بالطرق الوعرة الشاقة .

وما من شيء أومله أكثر من أن تكون هذه الدراسة نافعة ، وأن تكون تمهيداً لدراسات أخرى كثيرة نحن في أشد الحاجة إليها .
وذلك ما أسأل الله فيه ، وهو الموفق والمعين .

سُكْرَى فَيَصِل

القاهرة { غرة العام الهجري ١٣٧٢
أيلول « سبتمبر » ١٩٥٢

تمهيد

بين يدي الفتح

١ - تشكل الانطلاق العربي

١ - استطاع الرسول صلوات الله عليه ، في حركة بدأت بطيئة ثم مضت متسارعة بعد ذلك ، أن يجمع حول فكرته الجديدة قبائل العرب جميعاً في الشمال والجنوب . . . كان آمن به قلة قليلة ، ولكن قوة هذا الإيمان من نحو ، وبساطته من نحو آخر ، وثبات المؤمنين به ، كل ذلك مكن للفكرة الإسلامية أن تنتشر في الجزيرة العربية وأن تقبل عليها القبائل راضية بها مطمئنة إليها . . . حتى الذين ناووه لم يجدوا بداً أن يذعنوا له وأن يدينوا بما جاء به . . . وبدأ ، بعد عام الوفود ، كأن الجزيرة العربية التقت التقاء عجيباً حول فكرة واحدة . . . وحين انتهى النبي صلوات الله عليه من إلقاء خطبته في حجة الوداع كانت أصداؤه هذه الخطبة لا تقف عند حدود عرفات ولا تقتصر على الحجاز ، ولكننا ينقل صداها كل واد وجبل في الجزيرة ، ويتحدث بها كل هذا العديد الضخم من الحجيج الذي استمع إليها وينقلها كل في البلد الذي جاء منه أو القبيلة التي أقبل منها ، ويحمل فيها خطوط الإسلام الكبرى ومعالم النظام الجديد .

ب - واستقر في أذهان العرب ، على وعي كامل أو على بعض وعي ، أن هذه الحركة التي تتسرب كما يتسرب الماء في الرمال ، ليست حركة ضيقة ؛ لم تكن في ذاتها نداء خافتاً كهذه النداءات التي كان يسمعاها العرب من المتحفظة ولا نصيحاً كهذا النصيح الذي يلقيهم به الحكماء ولا إشارات مختصرة أو نظرات عابرة ، لم تكن تعبيراً عن القلق والحيرة كما كان سجع الكهان وحكمة الحكماء وقصائد الشعراء ، ولكنها كانت معالجة لهذا القلق وحداً لآلامه العنيفة التي كانت تصهر

روح العربى والذى كانت تدعه كمّ مهملًا فى حساب الحياة الإنسانية فى ذاته والحياة الاجتماعية فيما حوله والحياة السياسية فى فلك الامبراطوريات المطيعة به ، وكانت شفاء من هذا القلق ولفقًا بعيد المدى إلى كل ما فى داخل النفس وما حول النفس ، فى الأنفس والآفاق ، فى القبيلة والشعب والجماعة ، وفى القبائل كلها متفرقة ومجتمعة ، وفيما وراء هذه القبائل من أرض وناس .

ج - ولكل عقيدة جديدة ألقى خاص . . هناك عقائد تحلّ عقدًا ذاتية ضيقة فى النفس أو فى الأسرة أو فى الجماعة ، وهناك أفكار تتناول جانبًا من جوانب النفس ، جانب الانفعال أو العقل أو الإرادة . . أما العقيدة الإسلامية فقد كان من أثرها أنها أنارت بألقها كل جوانب الروح وأثارت فى هزتها كل أطراف النفس . . والتقى العرب ، هؤلاء المتفرقون ، على هزة تناولت عندهم النزوع والتعقل والانفعال جميعًا ، فإذا هم من وحى هذه العقيدة الجديدة فى يقظة متنبهة . . لم ينطووا على الإسلام انطواءً ضيقًا ، ولم يتناولوه من النبي أو من رسله على أنه شيء يحتفظ به فى البيوت أو فى الخيام ، ولم يروا فيه عقيدة يتحلّون أو يتباهون بها كما كان الشأن فى العقائد السابقة التى تحلت بها بعض القبائل ، ولم تحسّ قبيلة ما أو جماعة أن هذا الدين هو لها من دون الجماعات أو القبائل الأخرى . . وإنما كان الأمر على النقيض من ذلك تمامًا . . كان هناك مشاركة بعيدة الآماد فى الإيمان بهذه العقيدة بين العرب جميعًا ، وكان هنالك التقاء متقارب الأبعاد على الاستجابة له والاندماج فيه . . كان هناك صقل لكل مواهب النفس ولكل قواها . . وكان وراء ذلك شعور متوثّب لا يقنع بالانطواء على هذه العقيدة ولكنه يريد أن يجاوز بها هذه الحدود الضيقة إلى كل مجالات العرب الأخرى من هنا وهناك فى الشرق والغرب . . فما أكثر ما حُلّ إلى العرب من آراء ومذاهب ، وما أكثر ما استمعوا إليه من دعوات ومبادئ ، وما أكثر ما شاهدوا من بيع وصوامع . . لقد وفد عليهم ذلك كله ولكنهم لم يلمحوا فيه ذات أنفسهم . . لم يجدوا فيه البساطة التى يجدونها فى حياتهم : حياة الصحراء أو المذن على السواء ، ولا الوضع الذى يعرفونه

في نفوسهم في البر أو المدى ، ولا اللغة النقية التي يعرفون أنها لغتهم ولا المسكارم التي انسابت في تراثهم ونظمهم وهم لذلك حريون اليوم أن يفسكروا في أن تنقل عنهم العقائد ، وأن يحملوا إلى العرب في الأطراف وإلى الفرس والروم وراء هذه الأطراف ، كما حمل إليهم عرب الأطراف ومن دون عرب الأطراف ، عقيدة جديدة فيها من أفسكارهم خير ما كانوا يلحونه وأبعد مما كانوا يلحونه . وفيها من حياتهم تجديد هذه الحياة وصلاحيها وتفريق الأبواب أمامها . . . وفيها من مطامحهم نحو الحياة الرغدة والعيش الهنيء ، آفاق واسعة في الدنيا والآخرة على السواء . . . وفيها من العقائد الأخرى التي كانت تغزو حياتهم ، صدى أو صوتاً أو دعوة حارة ، تبشيراً أو تحذيراً أو لفتاً . . . فيها من هذه العقائد تلخيصها وتخليصها ، جمعها واعتصارها ، تحويلها وتحويلها ، لتكون بعد ذلك طريق العقيدة الجديدة الصحيحة .

د - كذلك كان يحسّ العرب في هذه النقلة التي كانوا يجوزونها أنها أبعد مدى من أن تحدّها جزيرتهم . . . كان في حياتهم التجارية الصلة بالعالم من حولهم وكان في ضمائرهم - كما يقول في ضمير كل شعب لم يعدم إحساسه بالحياة - أن يكون لهم ، ذات يوم ، قياد هذا العالم . . فلما كان الإسلام كان هناك هذا الاستيقاظ لكل ما غفت عليه الضمائر أو انطوت عليه طبقات الشعور العميقة . . . إنه أتاح لهم بسطة العقيدة في تمثّل العقائد الأخرى والسمو عليها ، وبسطة الحياة في الإيمان بكل مافي الحياة ، وبسطة النفس في الاهتمام بهذه النفس واعتبارها طريق العالم الخارجي وبسطة الخلود في الإيمان بما بعد الحياة . . . ولذلك لم يعد عجباً أن ينظر العرب بعد فترة من القلق والتفرق والإحساس بالذات - إلى الرسول وإلى مكة والمدينة ، وأن يتجهوا مع الرسول ومع مكة والمدينة إلى ما وراء ذلك من مشارف الشام وسواد العراق وحفافى الخضرة في مصر ، ثم أن تسكون وثبتهم التالية في هذه الأرضين الممتدة في قلب مملكة فارس والروم .

ه - لقد كان في آيات القرآن الكريم هذا اللفت إلى إنسانية الدعوة الإسلامية ولكن من المؤكد أن الإرهاق الذي أصاب أفواج المؤمنين الأولى

والعنت الذى لقيهم به قومهم وألوان الأذى الذى فُتِنُوا به ، لم يترك لمشارف الأمل العريض أن تجوز فى أفقها أرض الجزيرة . . . غير أنه لم يكد ينتهى عام الوفود حتى بدأ الإحساس بالانطلاق يملأ على صفوة النفوس المؤمنة أو الطامحة كل أقطارها ، واتسعت مشارف الأمل وامتدت مطلّاتها وعرضت آفاقها ، وتراءى للعرب فى الجزيرة العربُ الذين فى الأطراف ، وتألقت فى ضمير العربي أجداد الدنيا والآخرة معاً : الدنيا على أنها مجاز للآخرة ولكنه مجاز حى ، والآخرة على أنها ثواب الدنيا وصورتها فى ميزان العدالة ولكنها صورة خالدة . . . واستطاع أن يخرج من ذلك كله بهذه الفكرة الكبرى التى ركّز فيها فلسفته كلها ، وصاغ بها حركته كلها ، وخلص نظريته القريبة والبعيدة والتفتاه إلى الدنيا وعقيدته فى الآخرة : فكرة الجهاد الذى يعيش معه من عاش سعيداً ، ويموت من مات فيه شهيداً .

و — لقد كانت السعادة أو الشهادة بلورة رائعة للقوة المتحركة التى نبضت بها العقيدة الإسلامية كما كانت الشهادتان بلورة رائعة للعقيدة نفسها . . . وفى ألق السعادة أو نعيم الشهادة كانت تلتحم قوى العرب الداخلية المتوثبة وتنطلق عبر الحدود فى ثقة واطمئنان ، وفى إيمان هو أقوى من كل ثقة واطمئنان . . . ولقد جبّ الإسلام خصوصياتهم ونهاهم عنها ، ودعا إلى إماتة عصبياهم وحذرهم منها ، وسما بنفوسهم ففتحها وقّدة الفكر وصفاء العقيدة ورحبة الأمل . . . وتوفّر له من ذلك كله قوى قوية كان لا بد لها أن تجد مجراها ومرساها ، وأن تجد فى هذا الجرى قيادها الذى تتمركز فيه . . . وهل هنا لك قياد آخر تُسلسل له النفس الإنسانية أندى وأهدى من العيش السعيد أو الموت الشهيد ؟ .

إن لنا غرضنا هنا : أن نتمثل هذه الانطلاقة العربية وأن نتابع توثبها عبر هذه الأجواء التى هدرت فيها ولكن ليس من غرضنا أن نقف وقفة طويلة عند تشكل هذه الانطلاقة . وحسبنا أننا خلصنا ذلك فى الفقرات السابقة ، ولن نعدم فى الفقرات المقبلة فيضاً من الإشارات إلى ذلك بالقدر الذى يقتضى الأمر من تشابك الماضى والحاضر وارتباط الخطوة الجديدة بالخطى القديمة .

٢ - وجهة الانطلاق العربي

يحدد وجهة الانطلاق العربي موضع الجزيرة العربية من العالم، ومركز الدعوة من الجزيرة، وصلة الجزيرة بالأطراف— كما يحدد هذا الاتجاه انحدار سطح الجزيرة، وتوجيهها الجغرافي، وطرقها ومساكنها التي كانت بينها وبين العالم القديم من حولها.

١ - إن موضع الجزيرة في قلب العالم القديم وصلتها بالقارات الثلاث كان يمكن أن يعطى الموجة العربية المنطلقة وجهات مختلفة؛ غير أن نشأة الدعوة في القسم الشمالى من الجزيرة، وانبعاثها في مكة، وازدهارها في المدينة، جعل وجهة العرب أقرب إلى الشمال... حال بينها وبين مسالك البحر، وحجب عنها أمواجه، وتلقاها بهذه الطرق التجارية التي كانت تمتد إلى الشمال، فوصل بينها وبين العراق، وبينها وبين الشام، ودفعها منهما... ولم يكن ذلك لحسب، بل كانت قرابة اللغة والجوار، وصلات القرابة والدم، وعلاقة الرمل والطين؛ كل ذلك كان يقتضى العرب المؤمنين أن يختاروا مشارف الشام وبطائح العراق هدفهم الأول... فليست هذه الأرض بعيدة عنهم ولا غريبة منهم، وليس لكثير من أهلها لغة غير لغتهم، وإن كان يكون لهم ولاء غير ولائهم... ومن هنا كانت اصطدامات الجيوش العربية الأولى على سيف البادية: كانت في مؤتة وتبوك وبصرى، وكانت في الحيرة والأنبار والقادسية.

ب - لقد اجتمعت كل العوامل المسعفة حول هذا الانجاء، ورأى الرسول صلوات الله عليه أن أقدم جيوشه الأولى الداعية يجب أن لا تطأ أرضاً غريبة بعيدة... إنها تغادر الجزيرة للمرة الأولى بهذه الهالة التي تحيط بها من ألقى الإيمان ووهج الدعوة وبريق السيف... وقد كان كثرة من الأفراد تغدو وتروح من قبل في خفارة القوافل، أو رعاية التجارة، أو تسرية المهم؛ فلتعض اليوم في الطريق الذى كانت تمضى فيه من قبل، ولتخالف عن الغاية التي كانت تملؤها إلى غاية جديدة... إنها لن تحمل هذه المرة عروض التجارة، ولن تسوق أموال قریش،

ولن يكون فوق إبلها لبان حضرموت أو سيوف اليمن ، حرير الصين أو توابل الهند ، وإنما ستحمل معها صورة جديدة للحياة في ظلال العقيدة الإسلامية ، ارتضتها لنفسها ، وأرادت أن تدعو الآخرين إليها . . إنها كذلك لن تسأل ، في هذه الجولة ، قرابتها من القبائل أن تمكن لها عند كسرى وقيصر ، ولسكنها تريد أن تضم إليها هذه القبائل ، وأن تخرج بها من ذل الولاء للروم ، أو ضعة الحلف مع الفرس ، إلى قوة الوحدة الجامعة التي توصل لها العقيدة الجديدة والدماء القديمة ، والتي تردّ الفروع إلى الجذوع ، وتجمع الإيمان بالنبين من قبل والإيمان بالنبي بعد ، وتتيح للعرب الذين انحرفت بهم الفطرة ، وقسمتهم الفرقة وأفسدتهم العصبية ، واتخذ منهم ملوك الأرض آنذاك الأسهم والدروع ، أن يعودوا إلى فطرة الله ، وأن تعود إليهم ألقمهم ، وترتدّ إليهم كرامتهم ، وتحيا فيهم نفوسهم ، فيخلصون من جديد ، للحياة الكريمة التقية .

٢ - لكانما كان اندفاع العرب من قبل في تجارة العالم وخفارة العروض وقيادة القوافل ، والاختلاط بما حولهم من أشياء ومن حولهم من أقوام ، آية الله التي أراد أن تمرّن فيها الخطى ، وأن تطرد فيها المسالك ، وأن تمتد الدفقة المنبعثة من الجزيرة في الطريق الممهّدة . . لا تتحسّس هذا الطريق حتى لا يشغلها ذلك عن الغاية الرفيعة التي أعدت لها ، والهدف البعيد الذي أهلت له . فبعد هذه الغاية وسمو هذا الهدف يقتضى أن تكون القوى كلها خالصة له موقوفة عليه .

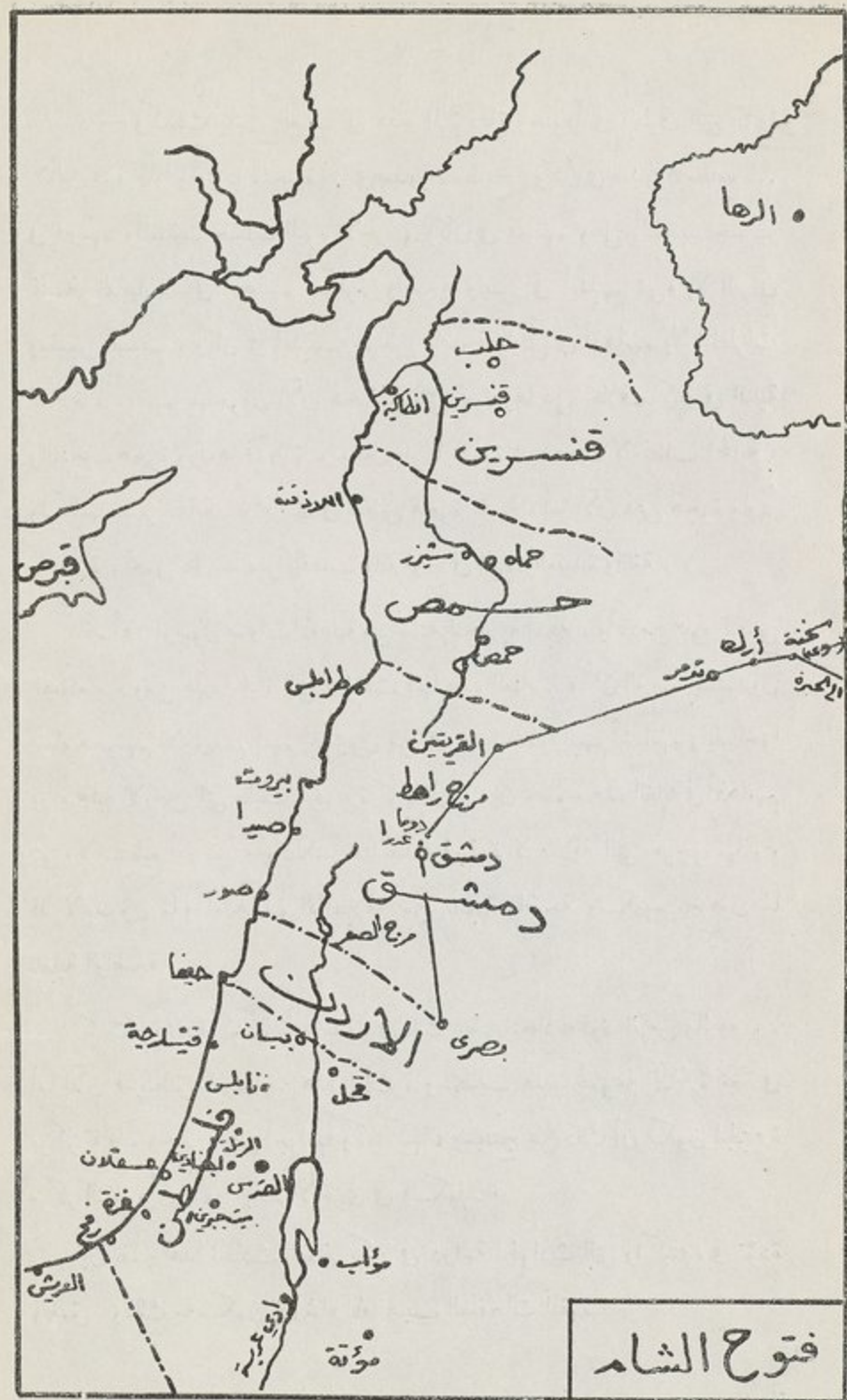
لكانما كان الماضي التجربة التي يفيد منها الحاضر . . غير أن تجربة الماضي كانت مرتبكة مشوشة ضيقة الأفق ، لا تتصل فيها رمال الصحراء بهدى السماء ، ولا تلتقي فيها هذه الرغبة الجارحة في اهتبال الحياة وصفاء النفس . . كانت تجربة لا تحوى عناصر البقاء ولا مادة الخلود ، لأنه لم يكن وراءها إلا هذا النزاع بين الرمل والطين . . أما هنا ، في هذه التجربة الجديدة ، فإن العرب يحملون كل عناصر البقاء يزاجون بين صلاح البال وصلاح الحال ، ويوقفون بين سمو الحياة وسمو العقيدة ، ويمضون في حركة الإصلاح هذه التي تأتي على فترة من الرسل .

د - وكذلك ينثال العرب في هذه المرة دعاة وجنوداً في الطرق التي كانوا ينثالون فيها تجاراً وجنوداً للتجارة... في صدورهم مطامح، وكان في صدورهم مطامع... في قلوبهم وأستهم حساب اليوم الآخر، وكان في قلوبهم وعلى ألسنتهم حساب غنيمة الدنيا... في أذهانهم فكرة واضحة وليس في أيديهم شيء إلا القرآن ومقبض السيف، وكان في أيديهم أعراض واضحة وليس في أذهانهم إلا الخطرات العابرة... إنهم يهاجرون الآن هجرتهم التي تعودوها على خلاف كبير في الغاية والنوع: هجرة وراءها فكرة، وبين يديها عقيدة... هجرة لا تطلب الحماية، ولكنها تنشر الحماية... كانت في الماضي هجرة عقيمة، أما الآن فهي هجرة ولودٌ مزدهرة، تحمل كل عناصر الخصب والنزاج في الدم والعقيدة واللغة.

لقد أفاد الرسول صلوات الله عليه من بيئته التجارية الدقة، وأفاد من سموه النفسى الصفاء... ومن هذه الحياة التي تمازجت فيها هذه العناصر، كان العرب يستمدون اتجاه هجرتهم الأولى... إنهم يخرجون من الجزيرة ليضموا إليهم أشتاتهم وليتساحوا وراء هذه الأرض التي تطيف بالجزيرة كالهلال... إن وضوح هذه الغاية في أذهانهم شيء لا نستطيع أن نتبينه ولكننا نجد صداه في قوة الانطلاقة التي خرجوا بها... قد لا يدرون ما وراء هذه الانطلاقة من نتيجة واضحة ولكنهم يعرفون لها الغاية الواضحة.

كانت الجزيرة كوكباً تابعاً يدور في فلك عظيم تتجاذبه قوة الفرس والروم... أما الآن فسينطلق العرب من هذا الفلك، وسيصيب هذه المجموعة الدائرة تغيرٌ في مركز ثقلها، وتحطم لبعض أجرامها وكواكبها، وسينتج عن ذلك أن تكون الجزيرة مركز الثقل وأن تدور البلاد الأخرى في فلكها...

إن تفسير هذا الحادث الضخم يمكن في دراسة الحوادث التي واكبته، في تودة وتعمق. وذلك ما سيكون إن شاء الله نصيب الصفحات المقبلة



الفصل الأول

فتوح الشام

القسم الأول

في حياة الرسول (البعث)

عشره :

لم يكن اتصال الحركة الإسلامية بالشام المرة الأولى في عهد الخليفة الأول ، فالحوادث التي جرت إثر وفاة الرسول ، والجيوش التي مضت ، والفتوح التي تمت ، كانت جميعاً امتداداً لما كان الرسول صلوات الله عليه قد بدأه ، وتحقيقاً للغايات التي رسمها ، وسيراً بالحركة الإسلامية في الطريق التي رادها لها وشقها أمامها . ولقد كان من أول ما فعل الرسول بعد أن اتجه بكتبه ورسله إلى الأمراء من حوله في المقاطعات والواحات وإلى الملوك في الشام وفارس ومصر وبلاد الروم ، أن جهّز بعث مؤتة . ولقد كان هذا البعث حركة مبكرة في حياة الدعوة الإسلامية ، ويبدو أن الرسول أحسّ بركاته البارة وإدراكه البعيد منذ تمّ فتح الحديبية « ٦ هـ - ٦٢٧ م » أن الأمور تجري لمستقرّ لها وأن مكة توشك أن تسلس له قيادها ، ولن يعوقه أمر الجزيرة بعدها . . فإذا هو تقدم إلى الأطراف الشمالية فإنما يستشرف بالجماعة الإسلامية هدفها الذي يريد أن تتوجّه له .

١ - مؤتة

ولقد كان بعث مؤتة ^(١) في جمادى الأولى من السنة الثامنة في رواية الطبري « أيلول عام ٦٢٩ هـ » وكان زيد بن حارثة مولى الرسول ومُتَّبِعًا يقود هذه الآلاف الثلاثة التي توطئ أقدامها المرة الأولى ، أرضاً غير أرض الجزيرة . قد لا تكون هذه الأرض غريبة عنها فهي قد تعرفها تاجرة ، وقد تعرفها مهاجرة ، وقد تعرفها زائرة ، ولكن الذي لا شك فيه أنها تواجه للمرة الأولى جنداً لم تألفه ، وجيشاً

(١) تقع مؤتة شمال البتراء قرب الطرف الجنوبي من البحر الميت ، إلى الشرق منه ، وتناخم البلقاء .

لم تعرفه ، وألواناً من الأسلحة وأساليب من القتال قد لا يكون لها بها عهد . . إنها تواجه كتائب الروم وحامياتهم التي كانت تنتشر في هذه المنطقة من الأرض تثبيتاً للحماية أو تعبيراً عن الاحتلال أو رعاية لطرق التجارة أو لإرصاداً لمن أراد الغارة . ولهذه الكتائب في تجهيزها وفي لقاءها غير ما تعود العرب أن يواجهوا عند التجمع واللقاء ، وكان لها في أسلحتها كذلك — وهي جزء من جيش ضخّم أَلِفْ أصعب للمعارك مع الفرس — تنوعٌ وتفوق . أما العدد فلم يكن من التكافؤ في شيء : كان جيش القائد « البطريق » ثيودوروس كثيفاً ، على حين لم يجاوز جيش زيد ثلاثة آلاف ^(١) غير أن العدد لم يكن هو الذي يفيد المسلمين أو يضرهم في معركة من المعارك وإنما كانوا بالنصر يقاتلون ^(٢) .

وفي إطار من كل هذه الظروف التي تتألف على سرية زيد ، في أرض غريبة وراء حدود الوطن الأم يسيطر عليها البيزنطيون ، ويتعاونون مع سكانها ، عرباً أو غير عرب ، على حمايتها ، وتنتشر فيها الخافر والكتائب ، ويفصلها عن المدينة هذه الآماد البعيدة — لا يبدو لأعيننا غريباً أن يلقى زيد وبعثه الفتي هذا المصير الحزن : « أن يشيط في رماح القوم » ^(٣) والراية في يده ، فيتلفقها جعفر بن أبي طالب ويقاتل عنها حتى إذا « ألحمة القتال اقتحم عن فرس له شقراء ، فحقرها ، ثم قاتل حتى قُتل . فأخذ الراية عبد الله بن رواحة ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد وينشد ، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل » . ثم يبرز خالد ، والمعركة السكالحة تنيخ أثقالها من كل جانب وتجبس على الجند أنفاسهم ، فيكون أكبرهم أن يستنقذ الجيش وأن ينقذ المسلمين من هزيمة ماحقة محققة « فيدافع بالقوم ويحاشي ، ثم ينحاز ويتحيز ، حتى ينصرف بالفاس » ^(٤) .

(١) الطبرى ١/٣/١٦١٠

(٢) الطبرى ١/٥/٢٥٠٢ في مقالة خالد لأبي عبيدة : « وبالعدد يقاتلون وإنما تقاتل منذ أسلمنا بالنصر ، فلا تحفل كثرتهم » وقرأ ٢٦١٠

(٣) الطبرى ١/٣/١٦١٤ (٤) الطبرى ١/٣/١٦١٦

٢ - تبوك

ولم يكذب الرسول يُتَمِّم فتوح مكة وغزوة حُنين وحصار الطائف حتى أخذ يعدّ جيشه من جديد ؛ « فأمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ^(١) » في ظروف قاسية حرجية عبّر عنها المؤرخون بقولهم : في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار وأُحِبَّت الظلال ، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذي هم عليه ^(٢) . ولكن ذلك لم يفتن المسلمين ، ولم يصرفهم عن أن يؤدوا واجب الدعوة ، ولم يلفتهم قول المشركين : « وقالوا لا تنفروا في الحر .. ^(٣) » ؛ وإنما جدّ الرسول وحمل رجال من أهل الغنى فاحتسبوا ، وأنفق عثمان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم من نفقته .. وجاءه البكّاءون يستحملونه ، فليس عندهم ما يتقوّن به على الخروج ، فلم يجد ما يحملهم عليهم ، فتولّوا « وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ^(٤) » واستقّب برسول الله سفره ، وأجمع السفر ، واعتذر من اعتذر ، وتخلف من تخلف ، مُحِقّاً أو منافقاً يبتغى الفتنة « لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور ^(٥) » ، وخلف على أهله عليّ بن أبي طالب ، وعلى المدينة سباع بن عُزْفُطَة أخا بني غفار ، وفصل من المدينة في ثلاثين ألفاً ، وصرّ بالحِجْر حتى نزل تبوك .

وفي تبوك لم تكن هناك معارك ذات غناء كبير .. كان كل ما أصاب المسلمون بعض الواحات التي صالحوا أهلها .. « صالحوا أهل جرّ باء وأذرح ، وصالحوا صاحب أيلة يوحنة بن روبة ، وبعث الرسول خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك ، رجل من كندة ، كان عليها ملسكاً ، وكان نصرانياً ؛ فقدم خالد به على الرسول ، فحقن له دمه وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله .. وانصرف الجيش بعد بضع عشرة ليلة ، لم يجاوز تبوك ، قافلاً إلى المدينة ^(٦) .

(١) ١٦٩٣/٤/١

(٢) ١٦٩٣/٤/١ في حوادث تبوك سنة تسع ، وكذلك النصوص الأخرى في هذه الصفحات .

(٣) التوبة ٨١

(٤) النوبة ٩٢

(٥) التوبة ٤٨

(٦) ١٧٠٢/٤/١ - ١٧٠٣ جل مقتطفة .

ويبدو ، في ضوء ما حققه خروج الرسول إلى تبوك ، أنه كان يستهدف شيئين اثنين : أولهما التمهيد للدعوة في الشام ، وذلك باستصلاح الواحات ، وللواحات في هذه الطرق الصحراوية قيمتها الكبرى في الحركات الحربية لأنها منازل الجيوش ومراكز تموينها ، بالقدر الذي كانت تحتاج إليه مثل هذه الجيوش من تموين .. والثاني ، السير في طريق المؤالفة بين العرب وبين هذا اللون من الخروج إلى الحرب واستئصال ما مكن للروم من هيبة في بعض النفوس ؛ وما من شك في أن خضوع صاحب أيلة وأكيدر دومة ، وصلاح أهل جرّبا. وأذرح ، كان بداية طيبة للأمرين جميعاً ؛ كان فتحاً لمنافذ الطرق إلى الشام ، وكان إثارة للقوة في نفوس العرب ؛ فهذه الواحات إنما كانت تعيش في حماية الروم وظلالها ، ولن يفسّر خضوعها إلا على أنه كسرٌ لخطوط المقاومة الأولى التي اعتمتها الروم منذ قتلوا رسول النبي إلى صاحب بصرى ، وألحقوا بهزيمة في مؤتة .

وحققت تبوك أغراضها هذه ، وعاد الرسول إلى المدينة وقد شقّ للمسلمين طريقهم هذا .. لفتمهم إليه أولاً ، ودلّهم عليه ثانياً حين بعث فيه مُتَبَنِّاه في مؤتة ، ثم سار هو بنفسه في تبوك في ظروف قاسية حرجة لا تتيح للجيوش أن تغادر أرضها ومستقرها .. ولكن الرسول كان يقصد إلى ذلك ، كان يقصد أن يفقه العرب وجهته هذه في الدعوة الإسلامية ، وأن تشرب قلوبهم اندفاعاً نحوها ، وأن يعضوا فيها ؛ فقد آذنت شمسُ بيزنطة أن تنجّاب عن هذه البلاد التي تحتلها ، وأن للدعوة الإسلامية أن تحررها ، وليس « بنو الأصفر » شيئاً ذا بال أمام جيوش الدعوة ؛ لقد كانت مقدماتهم التي تعيش في واحات الحدود تُسلم أو تصالح ، وسيكون ذلك شأن البلاد الأخرى من ورائهم ، ومع ذلك فليجدد الرسول صلى الله عليه وسلم الدولة الإسلامية استشرافها ولقمتها من قبل أن يصطفيه الله لجواره الكريم .

٣ - بعث أسامة (المحرم من سنة ١١ - آذار سنة ٦٣٢)

في المحرم من سنة ١١ ، قبل شهر واحد من وفاته (١٣ ربيع أو أواخر صفر من سنة ٥١١ هـ - ٨ يونية سنة ٦٣٢ م) ضرب الرسول على الناس البعث من جديد إلى الشام .. كانت مؤتة أول مُنطَاق العرب إلى حرب الروم ، وكان قد قُتل فيها زيد مولاة ، وكانت تبوك تمهيداً للطريق إلى الغاية ، وقد قادها الرسول بنفسه ، أما في هذه المرة ، فقد أمر أسامة بن زيد ، هذا الفتى الشاب ، حتى تكون صورة أبيه - وقد شاطته رماح الروم - ملء قلبه وعينيه ، وحتى تكون صورة جعفر بن أبي طالب وهو « يطير بجناحيه مع الملائكة إلى السماء ^(١) » تتألق في ضميره ، وحتى يرى المسلمون أن الرسول أغزى الروم ابنه ومولاة ، وأنه غزاهم بنفسه ، ثم أغزاهم بابن ابنه ومولاة زيد بن حارثة ، وأنه بذلك - كما قال الرسول - خلق ^(٢) .. وقد أمره أن يوطئ الخيل تحنوم البلقاء والدَّارُوم من أرض فلسطين ^(٣) .

ولكن أسامة لم يكد يتهيأ للخروج حتى بدأ الرسول شكاته ، ولم يكد يخرج يضرب بالجرف قرب المدينة حتى ثقل الرسول صلوات الله عليه ^(٤) ، ولم يجاوز آخرُ البعث الخندق حتى قبض عليه الصلاة والسلام ، قبض ووجهة هذا الجيش ، وفيه وجوه الناس ، الشام . . ويقف أسامة ليستأذن أبا بكر « إذ لا يأمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون ^(٥) » ويتلقى أبو بكر هذه التكاليف الثقيلة العريضة ، وتضع الجماعة بين يديه دعوتها التي جهد الرسول صلى الله عليه وسلم فيها كل هذه السنين الطوال ، وتسكل إليه هذه الأمانة « وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشترأت

(١) الطبري ١٦١٧/٣/١ مقتبس من حديث الرسول .

(٢) الطبري ١٧٩٤/٤/١ - ١٧٩٥

(٣) الطبري ١٧٩٤/٣/١ وفي رواية أخرى « ١٧٩٥ » أن يوطئ من آبل الزيت من مشارف الشام الأرض بالأردن .

(٥) الطبري ١٨٤٩/٤/١

(٤) الطبري ١٧٩٧/٤/١

اليهود والنصارى ، والمسامون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقتلتهم وكثرة عددهم^(١) . . . » . ويتحدث إليه المتحدثون أن يتمهل في بعث أسامة ، « وأن فيه جلّ المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين^(٢) » ، ولكن أبا بكر ، هذا الرجل الذى كان أقرب النفوس نفساً إلى رسول الله وإدراكاً لغاياته وتمرساً بأهدافه ، والذى صحب الدعوة في كل خطاها منذ كانت همساً في الأذن ، ومناجاةً في السر ، حتى أضحت نداءً للناس جميعاً — ينتفض ليقول : « والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيرى لأنفذته^(٣) » .

ويخرج أبو بكر إلى الجرف فيأتى الجيش ، ويشخصهم ويشيعهم ، وهو ماش وأسامه راكب ، ويأبى عليه أن ينزل ، ويوصيهم وصاته المشهورة^(٤) ويودّع أسامة وهو يقول له : « واصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم : إبدأ ببيلاد قضاة ثم آيت آبل ، ولا تقصّر في شيء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تعجلن لما خلفت عن عهده^(٥) » .

ويمضى أسامة مُغِداً على ذى المروة والوادي ، ويتنهي إلى ما أمره به النبي صلى الله عليه وسلم من بثّ الخمول في قبائل قضاة والغارة على آبل . ويسلم ويغتم ويعود في أربعين يوماً سوى مقامه ومنقَلَبِهِ^(٦) .

ولما قدم أسامة بن زيد خرج أبو بكر واستخلفه على المدينة ومضى حتى انتهى إلى الرَبَذَةِ يلقى بنى عبس وذبيان . . فقاتلهم فهزمهم الله وفلّهم ثم رجع إلى المدينة^(٧) .

(١) الطبرى ١/٤/١٨٤٨ (٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) الطبرى ١/٤/١٨٤٨ ، وفي ١٨٤٩ رواية ثانية

(٤) الطبرى ١/٤/١٨٥١ (٥) الطبرى ١/٤/١٨٥٠

(٦) نفس المصدر والصفحة (٧) الطبرى ١/٤/١٨٧٩ — ١٨٨٠

وأراح أسامة وجندُه ظهرهم وجمّوا ، وجاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم ،
فقطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية ، أحدَ عشر لواءً لقتال أهل الردة ، ورسم لكل
لواء سبيله . . وفصلت الأمراء من ذى القِصَّة ونزلوا على قصدهم^(١) وكان أبرزم
وأنبهم ذكراً خالد بن الوليد .

القسم الثاني

بعد وفاة الرسول (الجيوش)

تمهيد :

واستطاعت الجيوش الإسلامية بعد سلسلة من الاصطدامات والمعارك في أطراف
بلاد العرب ووسطها ، أن تطفئ لهب الردة وأن تعيد إلى الدولة التي خلفها الرسول
مظاهر وحدتها ، وإلى المدينة مكاتها في قيادة الجزيرة وتوجيهها ، وعادت الألوية
التي عقدها أبو بكر ، وفي مقدمتها لواء خالد ، إلى المدينة وقد كلَّها الظفر وأتاحت
لها هذه المغامرات البعيدة قدراً من التجربة والتمرس ، ووهبتها فوق ما كانت تملك
من يقين وثقة . واستطاع أبو بكر أن يتنفس في جوٍّ من الطمأنينة والنقاء ، وعادت
تلج عليه استشرافات الرسول نحو الشام ، ومطالب الدعوة نحو العراق ، وحاجة
الإسلام إلى أن يتمخض عن اتساع جديد . ووجد أنه ، إذ تحقق له الاستقرار الداخلي
بما كان من انقياد القبائل وعودتها إلى الجماعة ، يستطيع أن يتابع خطى الرسول في
الانتشار الخارجى وأن يمدّ من رقعة الدعوة فيضم إليها هذه المقاطعات الخضراء من
حوله : الشام والعراق ومصر . . ولم يفارقه في ذلك طابع المبادأة والسرعة وقطع الطريق
على كل تردد أو جبن فقد كان يعرف إلى أى شيء يهدف ، وكانت خطواته هذه
المتزنة السريعة التي تتجاوب مع نبضات قلب مليء بالنفقة ، تدل على ما كان يهدف
إليه . . ولهذا لم يكد خالد يفرغ من اليمامة حتى كتب له أبو بكر وهو مقيم فيها :

(١) الطبرى ١٨٨٠/٤/١ - ١٨٨١

أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند، وهي الأُبلة، وتَأَلَّفَ أهل فارس ومن كان في مُلكهم من الأمم^(١). وما علينا الساعة من حديث الدعوة في العراق، فلننظر كيف كان سير الدعوة في الشام . . فللعراق مكانه من هذه الفصول إن شاء الله .

١ - تصنيف الجيوش والأمداد

بدأ الخليفة الأول توجيه الجيوش إلى الشام في السنة الثالثة عشرة للهجرة مُنْصَرَفَهُ من مكة إلى المدينة، بعد أن قفل من الحج^(٢).

ولورحنا نتتبع أنباء هذه الجيوش ونحاول تصنيفها لوجدنا أننا أمام فيض متدفق من الروايات والأسماء والقيادات: أبو عبيدة بن الجراح، وعمر بن العاص، وشُرْحَبِيل بن حَسَنَة، ويزيد بن أبي سفيان، وأخوه معاوية، والوليد بن عقبة، وخالد بن سعيد بن العاص . .

ويظهر أن مرَدَّ هذا الفيض من الروايات إلى ما كان من كثرة البعوث من نحو، وإلى الطريقة التي سار عليها أبو بكر في التجنيد والاستنفار من نحو آخر، وإلى الخلط الذي كان بين الجيش وبين الأمداد من نحو ثالث، وإلى إهمال الفواصل الزمنية في بعض الروايات من نحو أخير . . وعن هذه الأسباب كان يبدو بعض التعقيد وبعض التداخل .

وفي وسعنا أن نلخص ذلك فيما يلي :

الخطوة الأولى — توجيه خالد بن سعيد بن العاص نحو بتياء :

توضح رواية الطبري في جلاء نير هذه الخطوة بالأسطر التالية : أمر أبو بكر خالدًا بأن ينزل بتياء، ففَصَلَ رِداءً حتى ينزل بتياء، وقد أمره أبو بكر أن لا يبرحها، وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه، وأن لا يقبل إلا مِمَّنْ لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله

(١) الطبري ٢٠١٦/٤/١ (٢) الطبري ٢٠٧٨/٤/١

حتى يأتيه أمره . . فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة^(١) . « وكان لواء خالد أول لواء عقده^(٢) » وكان وجهه إلى الشام حيث وجه خالد بن الوليد إلى العراق^(٣) .

الخطوة الثانية — استنفار المسلمين وتوجيه الأمراء نحو فلسطين والأردن :
« احتاج أبو بكر للشام وعناه أمره^(٤) » . فكتب إلى بعض العمال يخبرهم بين العمالة والجهاد ، مثل الوليد بن عقبة وعمر بن العاص ، فكتبوا يؤثرون الجهاد ، فأمرهم أن يستخلفوا على أعمالهم وأن يندبوا الناس مما يليهم ؛ وأخذ يخطب الناس يحضض على الجهاد ، وبعث من اجتمع إليه كما يلي : بعث أبو بكر عمرو بن العاص قبل فلسطين فأخذ طريق المعركة على أيلة^(٥) ، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة ابن الجراح وشرحبيل بن حسنة ، وهو أحد الغوث ، وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام^(٦) ، وكتب إلى الوليد بن عقبة وأمره بالأردن وأمدّه^(٧) .

وفي هذه الخطوة الثانية يضيع ذكر خالد بن سعيد بن العاص ، إما لأنه عزل قبل أن يسير « الطبري ٢٠٧٩ سطر ٧ » — وقد اضطفن عليه عمر بن الخطاب في قالة قالها بعدبيعة أبي بكر وما زال عمر بأبي بكر حتى عزله — أو لأنه عزل بعد سيره واستجاب أبو بكر لعمر في عزله بعدما فعل فعلته « ٢٠٨٥ سطر ١٨ » إذ اقتحم على الروم ، طآب الخطوة ، وأعرى ظهره وبادر الأمراء بقتال الروم وهُزم في مرج الصفر من بين الواقوسة ودمشق « ٢٠٨٤ — ٢٠٨٥ » ، وقتل ابنه . . ومهما يكن من أمر الروايات الأخرى في مقتله « ٢١٠٧ سطر ١٥ » أو في فراره ، أو في محاولته

(١) الطبري ٢٠٨١/٤/١ (٢) الطبري ٢٠٧٩/٤/١

(٣) الطبري ٢١١٠/٤/١ (٤) الطبري ٢٠٨٢/٤/١

(٥) فأخذ عمرو طريق المعركة وسلك أبو عبيدة طريقه . وأخذ يزيد طريق التبوكية وسلك شرحبيل طريقه ، وسمى لهم أمصار الشام . وعرف أن الروم ستشغلهم فأحب أن يصعد المصوب ويصوب المصعد ، لثلاثواكلوا . فكان كما ظن وصاروا إلى ما أحب ٢٠٨٥/٤/١ — ٨٦ وأيضاً ٢١٠٧ سطر ٧

(٦) الطبري ٢٠٧٨/٤/١ — ٢٠٧٩

(٧) الطبري ٢٠٨٤/٤/١ سطر ٨ — ٩

التكفير عن هذا الفرار ، فإن جيشه أو فلّال جيشه ، تفرق بين معاوية وبين شرحبيل ابن حسنة^(١) . وأما جيش الوليد بن عقبة فقد قدم على خالد بن سعيد فسانده^(٢) ، وانطوى فيما انطوى فيه جيش خالد .

الخطوة الثالثة — الأمداد والتعديّل في القيادة وتسمية المقاطعات (السكرور) :

أ — يقدم شرحبيل بن حسنة على أبي بكر وافداً من عند خالد بن الوليد بفتح من فتوحه ، فيسرّحه أبو بكر نحو الشام بجند ، ويستعمله على عمل الوليد ، ويخرج معه يوصيه . ويأتى شرحبيل على خالد بن سعيد فيفصل بأصحابه إلا القليل^(٣) .

ب — يجتمع إلى أبي بكر أناس فيؤمّر عليهم معاوية ويأمره أن يلحق يزيد أخيه فيخرج معاوية حتى يلحق به . فإذا مرّ بخالد (بن سعيد بن العاص) فصل ببقية أصحابه^(٤) .

وهكذا يكون قد استقامت تسمية كل كورة من كور الشام لكل أمير من أمراء الجند : سمى لأبي عبيدة بن عبد الله بن الجراح حمص ، وليزيد بن أبي سفيان دمشق ، وشرحبيل بن حسنة الأردن ، ولعمرو بن العاص ولعلقة بن مجرّز فلسطين^(٥) .

الخطوة الرابعة — في بلاد الشام :

ويوغب القواد بالناس^(٦) ، وتتوجه هذه الجيوش نحو الشام كل في طريقها ، ويلحق بها ما كان من أمداد أبي بكر لها ، وتبدو ، وهى في الشام ، في جيشين كبيرين : جيش يقوده عمرو بن العاص ومهمته الهجوم على جنوبى شرقى فلسطين .. وجيش آخر يقوده يزيد وشرحبيل ومهمته الهجوم على مقاطعة مواب القديمة^(٧) .

(١) الطبرى ٢٠٩٠/٤/١ وثلاثة آلاف من فلّال خالد بن سعيد ، أمر عليهم أبو بكر معاوية ،

وشرحبيل . (٢) الطبرى ٢٠٨٤/٤/١

(٣) الطبرى مزيج من خبرين ٢٠٨٥/٤/١ و ٢١١١/٤/١

(٤) الطبرى ٢٠٨٥/٤/١ سطر ١٢ (٥) الطبرى ٢٠٩٠/٤/١

(٦) الطبرى ٢٠٨٦/٤/١ (٧) بروكلمان ١١١/١

وبعد سلسلة من المواقع والاصطدامات يحس المسلمون حاجتهم الجدية إلى أن يتكثروا في جيش واحد^(١) فيكون هذا الجيش بقيادة خالد ويكون مركزه بصرى

٢ - الاصطدامات

يمكننا أن نميز في الروايات الكثيرة التي تحدثنا عن واقعات الجيوش الإسلامية في بلاد الشام أنها تنظم في مرحلتين :

المرحلة الأولى : اصطدامات متفرقة خاضها الأمراء بجندهم حين وطئوا أرض الشام أو حين تقدموا فيها .

المرحلة الثانية : معارك كبرى خاضها الجيش الإسلامي كله في مواقع فاصلة انتهت به إلى التغلب على الشام ومطاردة البيزنطيين ، وفتحت له في الشمال الطريق إلى الجزيرة وما وراءها ، وفي الجنوب الطريق إلى مصر وما دونها .

ومن الواضح أن المرحلة الأولى مرحلة اصطدامات وأن الثانية مرحلة وقائع ومن الواضح أيضاً أن هاتين المرحلتين تتلاقيان مع ما كان من تفرّد الجيوش أولاً وتضامها ثانياً . فحين كانت حركة الفتح تلامس أطراف البلاد كانت لا تزال الجيوش موزعة بين الأمراء الذين فصلوا من المدينة والأمداد التي تتبعهم ، أما حين حققت الحركة أولى انتصاراتها وبدأت توغل في داخل الشام فقد أضحت المعارك ذات طبيعة خاصة ، يريد منها المسلمون التمسك والتمدد ، ويريد منها البيزنطيون الإبعاد والطرْد .

الاصطدامات الأولى : لقي المسلمون الروم في وادي عربة^(٢) . وكان المسلمون

(١) الطبري ٤/١/٢٠٩٠ : « فلما شارفوا الشام دهم كل أمير منهم قوم كثير ، فأجمعوا رأيهم أن يجتمعوا بمكان واحد وأن يلقوا جمع المشركين بجمع المسلمين . وفي ٤/١/٢٠٨٧ قفزوا « المسلمون » جميعاً بالكتب والرسل إلى عمرو : أن ما الرأي ؟ فكانتهم وراسلهم أن الرأي الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة . وقد كتب إلى أبي بكر بمثل ما كانوا به عمراً ، فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرو ، بأن اجتمعوا فتكونوا عسكرياً واحداً وألقوا زحف المشركين بزحف المسلمين ، واجتمعوا متساندين .

(٢) منخفض عظيم جنوبي البحر الميت .

بقيادة يزيد، وكان الروم بقيادة سرجيوس، وكان سرجيوس هذا بطريق فلسطين وكان مقره قيسارية، المدينة الساحلية التي تقع إلى جنوب حيفا. وانتصر يزيد في هذه المعركة واضطر الروم أن يرتدوا إلى غزة حيث كانت بعض مراكزهم الحربية، فاتبعهم المسلمون وأدركوهم عند قرية داثن، وكادوا أن يفنئهم (٤ شباط « فبراير » ٦٣٤^(١)).

وكان اللقاء الثاني في تموز من عام ٦٣٤ في أجنادين^(٢). وأجنادين في فلسطين بين الرملة وبيت جبرين^(٣). وقد انتصر فيها المسلمون على قوات بيزنطة التي كان يقودها أرطوبون واضطروها إلى التراجع نحو بيت المقدس.

ونعدّ من المعارك الصغيرة معركة خاضتها فرقة إسلامية صغيرة في يناير « كانون الثاني » من سنة ٦٣٥ تقدمت إلى الشمال عبر المناطق الحمية واستولت على حمص^(٤).

٣ - المعارك

لم تتخذ حركات الجيوش الإسلامية شكل المعارك الكبرى إلا بعد أن جاء خالد بن الوليد من العراق مُمدداً لأهل الشام. ويبدو أن هذه الجيوش استطاعت في الواحات التي كانت على أكتاف بلاد الشام، أن تحقق الصلح وتضمن إراقة الدماء، وأنها حين تقدمت خطوات أخرى في مناطق الحدود استطاعت كذلك أن تحقق الظفر وتضمن الغلبة في مثل مُواب وأَيْلة. . وأما فيما بعد ذلك فقد بدأت

(١) فيليب حتى تاريخ العرب « مطول » ٢٠٠

(٢) روايات الطبري عن أجنادين في ١/٤/٢١٢٥ — ٢٦ وتاريخها لليتين بقتنا من جمادى الأولى سنة ١٣ هـ

(٣) فيليب حتى ٢٠٢ أوجنابتين (اليوثروبوليس في اليونانية) على طريق غزة وأورشليم بروكلمان ١١١ ، الطبري ١/٤/٢١٢٥ وأجنادين بلد بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين .

(٤) بروكلمان ١١٢/١

العقبات تتضح وتنمو في طريق الدعوة ، واتخذت هذه العقبات أشكالا لعل منها شدة المقاومة ، ولعل منها كثرة العدد ، ولعل منها ما سسرى من موقف العرب ومساندتهم للروم .

ولهذا أمدّ أبو بكر جيوش الشام بخير جيوشه وأقوى جنوده ، وقد كانت فرق خالد هذه التي فتحت الحيرة هي هذه الدرّة المتألّقة في جبين الدولة ، صقلتها حروب الرّدّة وصهرها هذا التطواف في بلاد العرب ، وعانت كثيراً من القسوة والشدائد فأورثها ذلك مناعة منيعة وقوة قوية . فأمدّ الشام بها وكتب إلى خالد أن يؤمر على العراق المثنّى وأن يسير إلى سورية^(١) حتى يأتي جموع المسلمين فإنهم قد شجّوا وأشجّوا^(٢) .

وكما تسكون الصاعقة شدة وسرعة ومفاجأة كانت فرقة خالد تقطع الطريق بين الشام والعراق وتحقق شيئاً يشبه المعجزة في حركات الجيوش ، وتطاع على الروم من مؤخرتهم ، وتصيب في طريقها بعض الواحات وبعض القبائل ، وتلتقي مع جيوش المسلمين جميعاً في بصرى في آذار « مارس » من سنة ٦٣٤^(٣) .

(١) الطبري ٢٠٨٩/٤/١ في موضعين .

(٢) الطبري ٢١١٠/٤/١ وبقيّة الكتاب : وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشجّ الجموع من الناس بعون الله شجّاك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك . فليهنأك ، أبا سليمان ، النية والخطوة ، فأعم يتم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل . وإياك أن تدلّ بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء .

(٣) لا يزال الطريق الذي سلكه خالد من الحيرة إلى الشام موضع تحقيق كثير من العلماء ولا تزال كثرة الرويات عنه تزيد في عبء هؤلاء المحققين وتضاعف من ثقل مهمتهم . ويتولى في العراق طه باشا الهاشمي أمر هذه النواحي بما عرف من اهتمامه بسيرة خالد وحركاته الحربية . ولعل أوضح الروايات وأكملها في رسم طريقه الرواية التالية : « فوجه أبو بكر خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام وضمهم إليه فشخص خالد من الحيرة في ربيع الآخر سنة ١٣ هـ في ثمانمائة ويقال في خمسمائة واستخلف على عمله المثنى بن حارثة ، فلقبه عدو بصندوداء فظفر بهم ، وخلف بها ابن حرام الأنصاري . ولقى جمعاً بالمصيخ والحصيد عليهم ربيعة بن بجير التغلبي فهزمهم وسبي وغنم ؛ وسار ففوز من قراقر^(١) إلى سوى^(٢) فأغار على أهل سوى واكتسح أموالهم =

(١) قراقر : قلابان قراقر حديثاً عن فيليب حتى ٢٠٢ .

(٢) سوى : بالقرب من سبع يبار الحديثة إلى الشمال الشرقي من دمشق . عن فيليب حتى ٢٠٢ .

ومع امداد خالد تبدأ مرحلة جديدة في تطور الفتح الحربي وتمثل هذه المرحلة في مظاهر ثلاثة :

١ — توحيد جيوش المسلمين . ٢ — توحيد القيادة تحت إمرة خالد .

٣ — تغيير نظام التعبئة . وتنتال الفتوح بعد ذلك منظمة موحدة . وتصلح بصرى^(١) وهي مفتاح القسم الأوسط من سورية بعد مقاومة يسيرة . ويحاصر الجيش مدينة فيحل^(٢) ثم يطلب أهلها الأمان في ٢٣ يناير سنة ٦٣٥ . ثم يتقدم المسلمون نحو دمشق ويهزمون الروم في طريقهم إليها في موقعة مرج الصفر « وهو سهل على بعد ٢٠ ميلا جنوبى دمشق » ثم يحاصرونها هذا الحصار الذى يستمر ستة أشهر أو سبعة لتتلقى بعد ذلك إليهم بمفاتيحها في « أيلول — سبتمبر » من عام ٦٣٥ « إثر خيانة قام بها بعض أرباب السلطة المدنية والروحية ومنهم الأسقف جد القديس يوحنا^(٣) . . ويكون استسلام دمشق تنويجا لكل جهودهم التى بدأت منذ كتب

== وقتل حرقوس بن النعمان البهراني . ثم أتى أرك فصالحوه . وأتى تدمر فنجصنوا ثم صالحوه . ثم أتى الفريتين فقاتلهم فظفر بهم وغنم . وأتى حواريين فقاتلهم فهزمهم وقتل وسبي . وأتى قصم فصالحه بنو مشجعة من قضاة . وأتى مرج راهط^(١) فأغار على غسان في يوم فصجهم فقتل وسبي ووجه بسر بن أرطاة وحبيب بن مساعة إلى القوطة فأتوا كنيسة فسبوا الرجال والنساء وساقوا العمال إلى خالد . الطبرى ١/٤/٢١٠٨ — ٢١٠٩ ، وقابل أيضاً الروايات الأخرى في ١/٤/٢١١٢ — ٢١١٤ التى تذكر كيف تزود بالماء .

(١) هى بصرى أسكى شام الحالية من محافظة حوران . ونص الطبرى ١/٤/٢١٢٥ « ثم سار خالد حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد ابن أبى سفيان ، فاجتمعوا عليها فربطوها حتى صالحت بصرى على الجزية وفتحها الله على المسلمين فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبى بكر .

(٢) حصن في الشرق من الأردن يسيطر على معبر هذا النهر (فيليب حتى ٢٠٣) — وفي بروكلمان ١/١١٢ : « وفي يناير ٦٣٥ هاجم العدو مرة ثانية في غل على المنحدرات الغربية من شرقي الأردن .

(٣) حتى تاريخ العرب « مطول » ٢٠٣

(١) مرج راهط من مضارب الفساسنة على بعد ١٥ ميلا من دمشق بالقرب من عنزة عن فيليب حتى ٢٠٢

الرسول صلى الله عليه وسلم رسائله إلى هرقل وبعث أول بعثته إلى مؤتة ، ويكون ذلك تخفيفاً عن مقتل زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة ، ويكون خالد الذي أنقذ الجيش في مؤتة وحارزه هنا وهناك حتى رجع به إلى المدينة ، هو الذي تفتح دمشق على يديه ويصالح أهلها بكتابته ويدخلون في عهده وعهد المسلمين ، وتكون الفترة بين مؤتة « ٦٢٩ » وبين دمشق « ٦٣٥ » ست سنوات قضاهما المسلمون في محاولات متصلة مستمرة : يدعون فلا يستجاب لهم وينذرون فلا يؤبه لنذرهم ، ويظن بهم الروم هذه الظنون التي خدعتهم عنهم وهوت لهم من أمرهم حتى لقوا منهم ما لقوا .. ويستقر المسلمون في هذه المدينة الخالدة ويبدؤون يلقون عليها طوابعهم ويتلقون منها خصائصها ، لتكون بعد ذلك عاصمة ملك ضخم في عهد بني أمية .

وكان لابد لهذا الفتح الذي فتح على المسلمين من أن يثير في جيوش البيزنطة روح المقاومة وأن يحملها على ردٍّ عنيف . وقد تمثل ذلك في معركة اليرموك وفيما حشد هرقل من جيش كثيف وعدة ضخمة . ويبدو كما يقول بروكمان « أن غرض هذا الجيش كان انقاذ دمشق غير أن أوان الإنقاذ كان قد فات — ومع ذلك فقد استطاع أن ينفذ حمص على الأقل حتى إذا أقبل الخريف وعقبه الشتاء توقفت فيما يبدو العمليات الحربية بين الفريقين بعد صلح اتفقا عليه ^(١) » .

وفي صيف سنة ٦٣٦ نشبت معركة اليرموك ، وكان جيش الروم خمسين ألفاً بقيادة ثيودورس أخى هرقل ، وكان جيش المسلمين خمسة وعشرين ألفاً بقيادة خالد ^(٢) واستطاع المسلمون في ٢٠ آب « أغسطس » في معركة فاصلة بدأت بعد سلسلة من المناوشات ، أن يحققوا النصر وأن يتقدموا في يسر وانطلاق نحو الشمال ليحتلوا حمص من جديد وليلقوا فيها وقفة استجمام وراحة .. وقد كانت هزيمة البيزنطيين في اليرموك هزيمة ماحقة فني فيها الجيش أو أكثره ، وقتل فيها القائد ، واضطر هرقل أن

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ١١٢/١

(٢) فيليب حتى ٢٠٤/١ والطبرى ٢٠٩١/٤/١ فكانوا ستة وأربعين ألفاً ، والطبرى أيضاً ٢٣٤٧/٥/١ المسلمون ٢٤ ألفاً والروم مائة ألف .

ينسحب من أنطاكية وهو يقول جملته المشهورة التي تمثل لوعته وحزنه : عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو^(١).

ويبدو من تتبع الفتوح بعد ، أن فتح دمشق وهزيمة اليرموك كان يشبه أن يكون إسلام زمام بلاد الشام والجزيرة إلى المسلمين ، لأنه مكن لهم من أن يسيطروا على هذه المنطقة المتوسطة من سورية والتي تحمى ظهورهم بالبادية ، وأن ينالوا منها بعد في الشمال وفي الجنوب : أما في الجنوب فسينتهى بهم الأمر إلى الاستيلاء على بيت المقدس بعد ثلاث سنوات من فتح دمشق «٦٣٨» وإلى الاستيلاء على قيسارية وهي مدينة ساحلية أتاح لها مركزها الساحلي أن تتلقى أمداد الروم بحراً ولكنها استسلمت أخيراً في تشرين الأول «أكتوبر» سنة ٦٤٠ في عهد معاوية .

وأما في الشمال فقد توالى الفتوح بعد حمص ، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تدخل حلب وأن تدخل بعد حلب أنطاكية ، حصن المسيحية الحصين في هذه المنطقة الشرقية ، ثم توجهت بعد ذلك إلى الشرق نحو مدن الجزيرة فصالحها أهل الرها ونصيبين وأرمينية ، وكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً وكانت تلك السهولة مَهْجَنَةً عليهم وعلى من أقام فيهم من المسلمين^(٢).

وبافتتاح الجزيرة تم الاتصال بين فتوح الشام وفتوح العراق .. وستكون الشام بعد هذا منطلق الجيوش الإسلامية إلى إفريقية الشمالية من نحو وإلى الجناح الشرق من المملكة الإسلامية من نحو آخر .

لو أننا نَحْيَنَّا مؤتة وتبوك وبعث أسامة لكان فتح الشام قد امتد بين سنة ٦٣٤ التي انقبت فيها الجيوش الإسلامية بالروم في وادي عربة وبين سنة ٤٠ التي استسلمت فيها قيسارية لمعاوية . وفي خلال هذه السنوات استطاعت الجيوش الإسلامية أن

(١) البلاذري ١٣٧ وفي الطبري ٢٣٩٦/٥/١ عليك السلام يا سورية سلاما لاجتماع بعده ورواية أخرى في نفس الصفحة

(٢) الطبري ٢٥٠٧/٥/١ - ٢٥٠٨

تركز أقدامها في معارك قاسية . أما بعد ذلك فقد كانت المقاومة يسيرة ليس فيها كبير عزم . . وسنرى في دراسة هذه الفتوح من الوجهة الاجتماعية تفصيل القول في هذه الإشارة المجمل .

القسم الثالث

موقف السكان من الفتوح

ترى كيف كان موقف هذه البلاد من حركة التحرير وماذا كانت ميول أهلها . أنما نستطيع أن نتبين ذلك إذا نحن درسنا موقف الطبقات الثلاث التي كانت تسكون المجتمع الشامي قبل الفتح الإسلامي : طبقة العرب ، وطبقة رجال الدين المسيحيين ، وطبقة الروم .

١ - موقف عرب الشام

إن كثرة كثيرة من المؤرخين ترى أن انتشار العرب في هذه المنطقة ، على حدودها أو في أطراف منها كبصرى ودمشق أو في مناطق كبرى كالجزيرة ، كان من أكبر العوامل التي مهدت للفتح العربي طريقه وأعانت عليه . وليس فيهم من يذكر هذه القرابة بين عرب الجزيرة وعرب الضاحية دون أن يشير إلى أثرها في سرعة الاستجابة وتحقيق الغلبة ، حتى يرى بعضهم « أن الفتح كان حركة قومية وأن الفوز فيه كان للقومية العربية لا للدين الإسلامي ^(١) » .

والواقع أننا لا نستطيع أن نطلق القول في ذلك منكرين له أو مؤمنين به إلا أن يتاح لنا أن نتبع موقف عرب الشام من الحركة الإسلامية ومن جيوش التحرير . وسنجد أن نعمل ذلك في نطاق من التسلسل التاريخي حتى تكون الأمور أكثر استبانة وأشد وضوحاً .

(١) حتى تاريخ العرب ١٩٧

وأول الحوادث التي تطالعنا من هذا النحو أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل رسوله إلى قائد قلعة بصرى يدعو إلى الإسلام ويبصّره بهذه الحركة التي قامت في قلب بلاد العرب . . ولكن الرسول يقتل ، وللرُّسل منذ عرف تاريخ العلائق الإنسانية حُرْمَتُهُمْ وأمنُهُمْ في أشد حالات الغضب وأقسى ألوان العداوة ، وما من شك في أن مقتل هذا الرسول في بلاد تقيم لمثل هذه التقاليد حرمتها يهب المطالع للمرة الأولى ، انطباعاً سيئاً عن تلقى عرب الشام للحركة الإسلامية .

وفي مؤتة في العام الثامن الهجري ، ايلول «سبتمبر» ٦٢٩ ، تلقى سرية زيد أشد الهول ، وتلقف الرماحُ زيداً ابن النبي من كل نحو ، ويقتل جعفر ابن عمه ، ويموت بعده عبدالله بن رواحة ، ويستشهد من يستشهد ممن لم تحفظ لنا أسماؤهم ولا أعدادهم . . وأغلب الظن أن الروم لم يكونوا وحدهم هم الذين يحاربون بل كان العرب كذلك يحاربون العرب ويقتلونهم .

وفي عام الوفود ، في العام التاسع للهجرة ، بعد أن فتح الله على المسلمين مكة ومكّن لهم من البيت وهو مثابة العرب وأمنهم وموطن حرّماهم ، كانت تنطلق وفود القبائل من كل صوب تتجه إلى النبي تمدّ يدها بتابعه على الإسلام والنصرة ، وتنضوي في نظامه الجديد . . وفي هذا الحين لم نتبين فيما بين أيدينا من روايات المؤرخين صدى لذلك كله بين عرب الشام أو عرب العراق ؛ لم نجد لا هجرة أفراد ولا توفد قبائل . ولو كان شيء من التجاوب بين هؤلاء العرب والحركة الإسلامية لدلت عليه حادثات أو أنباء ، من طرف بعيد أو قريب .

وتسكون غزوة تبوك في العام التاسع الهجري كذلك ، ويقبل على النبي صاحب أيلة يوحنة بن روبة فيصالح الرسول ويكتب له عهده ، ويقبل ناس من أهل جرباء وأذرح فيصالحهم كذلك ويكتب لهم عهودهم ، ويأتيه صاحب دومة الجندل فيدخله في ذمة المسلمين ، ويكون الرسول قد قارب مشارف الشام ، ولكن عرب الشام لا يستيقظون لدعائه ولا يستجيبون لدُعائه ولا يباعدون لنصرته وتأنيده .

فإذا نحن تجاوزنا هذه الفترة الأولى إلى الفترة الثانية التي بدأ فيها الخليفة الأول تجهيز الجيوش وتوجيهها إلى الشام ، وجدنا أن موقف العرب لم يكن في كثير من المرات استجابة أو تأييداً ، وأن الروم كانت « تضرب البعوث على العرب الضاحية وكانت وكانت تستنفرهم فينفر إليها من بهراء وكلب وسليح وتنوخ وطم وجذام وغسان^(١) » وكانت تحارب هؤلاء المستنفرين في المواقع المختلفة . . بل إنها كانت تجذب منهم من تستخدمه في التجسس والتطلع . ففي أجنادين ، لما تدانى العسكران بعث القبطار رجلاً عربياً — قال مُحدث أن ذلك الرجل من قُضاة من يزيد بن حيدان يقال له ابن هزارف — فقال ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتني بخبرهم . . قال فدخل في الناس رجل عربي لا يُنكر ، فأقام فيهم يوماً وليلة ثم أتاه فقال له ما وراءك : قال بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملسكهم قطعوا يده^(٢) .

هناك رواية واحدة ينفر بها سيف عن أولى مراحل الطريق إلى الشام حين « أمر أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص أن ينزل تيماء وأن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه ، فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على العرب الضاحية البعوث . . وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك وبنزول من استنفر الروم ونفر إليهم من بهراء وكلب وسليح و . . من دون زيزاء بثلاث فكتب إليه أبو بكر : أقدم ولا تحجم واستنصر الله . . فسار إليهم خالد فلما دنا منهم تفرقوا وأعرؤا منزلهم فنزله . ودخل عامة من كان تجمع له في الإسلام^(٣) . »

ترى ما قيمة هذه الرواية المنفردة ، وهل في الوسع أن تتحقق من روايتها ، وهل دخل هؤلاء عامة في الإسلام وانضموا إلى جيش التحرير ؟ .

ربما كان يغنيننا عن ذلك أن ننظر في الرواية التالية عن اللقاء بين الروم والمسلمين فنجد في حديث ابن اسحاق عن اليرموك وهو يصف قسوة المعركة واشتراك نساء

(٢) الطبري ٢١٢٥/٤/١ — ٢٦

(١) الطبري ٢٠٨١/٤/١

(٣) الطبري ٢٠٨١/٤/١

المسلمين من قریش فيها أنه يخلص القبائل الشامية بهذا النص العجيب : وكان انضم إلى المسلمين حين ساروا إلى الروم ناس من لخم وجذام فلما رأوا جد القتال فرّوا ونجّوا إلى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين^(١) .

موقف عرب الضاحية يبدو إذن موقفاً واضحاً . فهم لم يتلقوا الدعوة الجديدة بالترحاب بها والانضمام إليها ، وهم كذلك لم يؤاؤوا العطف والحدب . . كان ذلك موقفهم طيلة حياة الرسول ، وكان كذلك موقفهم في حياة الخليفة الأول . . والقلّة القليلة التي التحقت بالمسلمين عادت فخذلتهم فجأة في أحلك ساعات المعركة الكبرى التي فصلت في مصير بلاد الشام وفي أقسى مواقفها وعلى حين اضطر النساء المسلمات أن يسهمن بالعون وأن يقاتلن بالسيوف .

ونحن بعدُ نملك أن نستبين موقف العرب الشاميين من غير طريق الروايات ، ونستطيع أن نتمثله في حركات الفتح نفسها إذا تجاوزنا أيام حياة الرسول والتسنا لهم العذر عنها . . فمن الواضح أن البيزنطيين لم يكونوا يقاتلون بالبيزنطيين وحدهم ، كانت كثرة من جيوشهم من هؤلاء العرب أنفسهم ، فمن هم الذين قاتلوا في وادي عربة . . ومن هم الذين قاتلوا في أجنادين وفي دمشق ؟ كيف كان يستطيع المحاصرون أن يحفظوا على أنفسهم هذا الحصار ستة أشهر أو سبعة لورقت في نفوس العرب صلات القرى وحجّ فيهم دم النسب المشترك . . وفي اليرموك كيف كان نصف الجيش من المستعربة عليهم جبلة بن الأيهم الغساني^(٢) يقاتلون العرب المسلمين إلى جانب أهل أرمينية . . أكان هذا كله اضطراراً وإكراهاً . . وكيف لحقت بعض القبائل ، بعد أن استقر للمسلمين الأمر وانتهى إليهم الزمام ، بهرقل ومضت معه إلى بلاد الروم^(٣) ؟ .

(١) الطبري ٢٣٤٧/٥/١

(٢) الطبري ٢٣٤٧/٥/١ فسار القبصار بمائة ألف مقاتل ، معه من أهل أرمينية اثنا عشر ألفاً عليهم جرجج ، ومن المستعربة من غسان وتلك القبائل من قضاة اثنا عشر ألفاً عليهم جبلة بن الأيهم الغساني وسائرهم من الروم .

(٣) الطبري ٢٣٤٧/٥/١ ودخل أبو عبيدة تلك السنة دمشق فشتا بها ، فلما أصافت الروم سار هرقل بالروم حتى نزل أنطاكية ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة ، وتلك القبائل من قضاة وغسان وبشر كثير .

٢ — موقف الروم

ولا يتميز موقف الروم بأكثر من أنه كان محاولة جاهدة عنيفة دون امتداد هذه الموجة المنطلقة .. ومن الطبيعي أن هؤلاء الروم كانوا يدركون مركز بلاد الشام من امبراطوريتهم ، وكانوا يعرفون أن اقتطاعها هو اقتطاع لمصر أيضاً بعد أن يعترض المسلمون في سورية بينهم وبينها ، وأنها كذلك تهديد لهم . فهم لهذا لم ينزلوا عنها في يسر وبساطة : جهزوا كل ما قدروا عليه من جيوش ، وخاضوا كل ما ملكوا أن يخوضوا من معارك ، واستنفروا كل من كان في وسعهم أن يستنفروه : العرب وأهل أرمينية والبيزنطيين وسكان المقاطعات الأخرى ، غير أنهم لم يوفقوا .. وقد يكون من العبث أن نبحث عن سر هذا الفشل في أسباب تتلمسها تلمساً في شئ كثير من العنت الذهني فنقول مع الذين يقولون « إن الروم أهملوا تحصين الحدود — وإن هرقل أبطل الجراية التي كان يوزعها في قبائل الشام العربية المقيمة جنوباً من البحر الميت على الخط الواصل بين غزة والمدينة — وإن نصيباً وافراً من الفوز الذي حازوه يرجع إلى اعتمادهم أساليب حربية تلائم فلول آسيا الغربية وصحارى إفريقيا الشمالية — منها استعمال الخيل والإبل — ولم تسكن الروم تحسن استعمالها^(١) .. » فلم يكن هنالك هذا الإهمال لأن هؤلاء الروم أنفسهم هم الذين استطاعوا أن يجندوا مائة ألف أو خمسين ألفاً على الأقل في اليرموك بكل ما يحتاج إليه هذا العدد الضخم من عدد — ومن الصعب أن نصدق قصة إبطال الجراية هذه ، لأنه لو صحت لكان معنى ذلك أن ولاء العرب كان ينتقل من يد الروم إلى يد العرب المسلمين ، ولم نجد في تتبع انتشار المسلمين إلا أثراً باهتاً لهذا الولاء — وأما الأساليب الحربية التي اعتمدها العرب فلم تكن شيئاً قط غير إيمانهم وشجاعتهم وتحريم تولية الظهر إلا تحرفاً لقتال .. ولو كان من سبيل إلى الحديث عن الأساليب لكان هذا الحديث من نصيب الروم هؤلاء الذين كان تاريخهم سلسلة من الحروب أفادتهم الدربة والمعرفة بفنون القتال ، وعلمتهم استعمال

(١) فيليب حتى تاريخ العرب ١٩٤/١ — ١٩٥

الإبل والخيـل على حد سواء ، لأنهم حاربوا الفرس في هذه الأرض التي حاربهم بها المسلمون ... فلم يكن هناك مجال لهذه التعلات لا بطبيعة الأرض ولا بأدوات الحرب ولا بأساليبها ، فذلك كله مما ألف البيزنطيون وعرفوه تجربة وخبرة وممارسة خلال القرون الطويلة التي عاشوها في هذه البلاد والحروب الوويلة التي أشجوا بها وشجوا ... وإن الإنسان ليدافع بسمه عريضة حين يرى أن التماس العذر للروم واعتبار الفتح حركة قريبة يسيرة ، لا يكون إلا على حساب اضطراب الحقائق وجعل الحروب بين المسلمين والبيزنطيين في فلولات آسيا وصحارى إفريقيا ، على حين لم تسكن في هذه الفلولات والصحارى وإنما كانت في المدن والوديان وعلى أطراف الأنهار ، وفي بلاد سكناها البيزنطيون ستة قرون أو تزيد ، وكانت حامياتهم وجنودهم في كل ناحية منها وطرف فيها .

والحق أن الروم كانوا يهملون هذه الفعلة النفسية العميقة التي أصابها العرب في الدين الجديد ، وكانوا على غير وعى واضح بحقيقتها البعيدة ، وأنها نظام جديد آمن به العرب فوهبهم حياة داخلية جديدة تغاير كل ما كانوا عليه ، وأنهم دعوا إلى هذا النظام وأرادوا غيرهم على الإيمان به ، وخرجوا من أجل هذه الغاية التي كانت تتيح لهم خير الدنيا والآخرة . . . ويبدو أن هذه الجهالة كانت هي مصدراً لكثير مما آل إليه الأمر ، فقد أعمت الروم عن تقدير قوة العرب وعن تقويم هذه العقيدة التي تكن وراءها ، فلم يستطيعوا أن يضعوا الهجرة في غير موضع الهجرات السابقة ظناً أنها الفارات ثم لا يلبث أن ينبجلين . . . ولذلك طاولوا في القتال ومدّوا من أيامه مؤملين أن يكون في ذلك ما يملّ العرب ويعود بهم إلى مصدرهم . . . ولكن العرب في هذه المرة لم يكونوا عرباً مُرتادين ، ولكنهم كانوا عرباً مسلمين ، ودعاة مهاجرين ... ولم يكونوا من هذه القبائل الشمالية التي تنشد النفع ثم ترد فحسب ولكنهم كانوا من كل أطراف الجزيرة ، لا يردم عن غايتهم شيء لأنهم ليس لهم إلا إحدى الحسنيين وليس لأعدائهم إلا اختيار واحدة من ثلاث ... ولذلك كان من خطل الرأي وسوء

التقدير ما يروون من أن هرقل قال لأمير حصص بعد موقعة مرج الروم : « بلغني أن طعامهم لحوم الإبل وشرابهم ألبانها ، وهذا الشتاء ، فلا تقاتلهم إلا في كل يوم بارد فإنهم لا يبقى إلى الصيف منهم أحد هذا جلّ طعامه وشرابه ^(١) » . وما يروون أيضاً من « أن أهل حصص كانوا يتواصون بينهم ، ويقولون تمسكوا فإنهم حفاة فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم مع ما يأكلون ويشربون ^(٢) » .

. . لقد غاب عن فطنة الروم أن نبياً قضى ثلاثة وعشرين عاماً يُعدّ هؤلاء الناس لهذه الدعوة ، وأن هذا الإعداد هو العدة التي كانت تنقص الروم وتزخر بها جيوش المسلمين .

٣ - موقف النصاري

ما من شك في أن الحرب اتخذت شكلاً دينياً واضحاً في هذه المعارك التي دارت في أرض الشام . . وكان مما لجأ إليه الروم أنهم استشاروا مشاعر الجماعة الدينية واستثمروا في ذلك رجال الدين . والتفاصيل التي وردت في بعض روايات المؤرخين تطلعنا على أن قواد الروم كانوا يقدمون أمامهم الشمامسة والرهبان والقسيسين يُغرون الجند ويخصّصونهم على القتال ^(٣) وأن هؤلاء الشمامسة والقساوسة كانوا جزءاً من الجيش وسلاحاً من أسلحته يقيمون معه إذا قام ، ويرتحلون إذا ارتحل ، ويخندقون إذا خندق ، يثيرون فيه حماسة الدين إذ ينعون له النصرانية ^(٤) .

ويبدو هذا الطابع الديني واضحاً كذلك في صنيع أشرف الروم . فقد كانوا يروّون أنهم في هذه الحروب إنما ينعون النصرانية ، فإذا لم يستطيعوا منعها فلا عليهم من أن يتخطفهم الموت وقد لقوا رءوسهم لا يحبّون أن يروا يوم السوء ^(٥) إذا لم

(١) الطبري ٢٣٩٠/٥/١ - ٩١ (٢) الطبري ٢٣٩١/٥/١

(٣) الطبري ٢٠٨٩/٤/١ (٤) الطبري ٢٠٩١/٤/١

(٥) الطبري ٢٠٩٩/٤/١

يستطيعوا أن يروا يوم السرور . . وقد حدث هذا غير مرة : تجلّ الفيقار وأشرف من الروم معه في اليرموك وأصيبوا في تزمّلهم . ولفّ القبقلار رأسه في أجنادين فاحتزّه المسلمون وإنه للفقف .

و بلغ من تميز الطابع الديني أن هرقل رغب في موادة العرب ، ولكن جلساءه قالوا له : « قاتل عن دينك ولا تجبّن الناس واقض الذي عليك . . قال وأي شيء أطلب إلا توقيع دينكم ^(١) » .

لم يكن ذلك إذن موقف رجال الدين وحدهم ، ولكنه كان موقف النصارى جميعاً . . وطبيعى في مثل هذه المجتمعات أن يكون موقف رجال الدين وموقف عامة الناس واحداً . فلم تكن هنالك هذه التفرقة في مثل هذا الإحساس

على أن موقف النصارى لم يكن موقفاً جامداً ولم تلازمه هذه الصلابة في كل مراحل الفتح ، فبعد أن كانت هزيمة اليرموك وبعد أن أمسك المسلمون بزمام الموقف حين تم لهم الاستيلاء على سورية الوسطى وأضحى تقدمهم نحو الجنوب نحو القدس ، ونحو الشمال نحو الجزيرة ، أمراً مضمون النتائج . . بعد هذا أخذت النصرانية سبيلاً آخر في مداراة الإسلام وفي إفساح المجال له ، فارتضى أهل إيلياء الصلح ، وقيل إنهم طلبوا أن يتولّى الخليفة نفسه العقد ^(٢) . . « واستقبل بطريك أورشليم صفرونيوس الملقب بـ « حامى الكنيسة المعسول اللسان » عُمرَ وطاف به على أنحاء البلدة وأراه الأماكن المقدسة . . ^(٣) » .

واستقاد أهل الجزيرة في يسر ولين إلى فتوح عياض بن غنم ، وسرعان ما صالحوا على الجزية ^(٤) . وكان هرقل استنّيع أهل الرّها فأبوا وقالوا : نحن هنا خير منا هنالك وأبوا أن يتبعوه وتفرقوا عنه وعن المسلمين ^(٥) . وكاتب أهل الجزيرة أبا عبيدة

(١) الطبرى ٢١٠٣/٤/١ (٢) الطبرى ٢٤٠٤/٥/١

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب ٢٠٨/١ عن ثيوفانس

(٤) الطبرى ٢٥٠٥/٥/١ وما بعد ذلك (٥) الطبرى ٢٣٩٥/٥/١

والمسلمين بخص ، فأمدّوه أول الأمر بثلاثين ألفاً ، فلما بلغهم أن سعداً وجه القعقاع ابن عمرو عوناً لأبي عبيدة في حصص من العراق ، وأن الخيول خرجت نحو الرقة وحرّان ونصيبين ، تقوّضوا إلى مدائنهم^(١) وبادروا المسلمين إليها ، فتحصّنوا ونزل عليهم المسلمون . . وأرسل إليه أهل حصص حين استنارهم بأنّا قد عاهدناهم فنخاف ألاّ ننقصر^(٢) . . وما من شك في أن الموقع الجغرافي للجزيرة بين العراق والشام — وقد خضعاً للمسلمين — يجعل من اليسير تطويقهم وإمداد أحد جيشي الشام والعراق أحدهما بالآخر . . وذلك أحد العوامل الكبرى التي أملت على النصارى هذا الموقف . على أننا لا نحب أن نُغفل هنا الإشارة إلى كثرة ما يردد المؤرخون من أمر الخلاف الديني بين البيزنطيين وبين نصارى الشام ، وما ينسبون إلى اختلاف الكنيستين ، السورية المونوفيزية التي تؤمن بأن المسيح طبيعة واحدة والكنيسة البيزنطية التي تؤمن بما أقر مجمع خلقدونية « ٤٥١ م » من إقرار طبيعتين للمسيح : الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية — من أثر في الترحيب بالمسلمين وتسهيل مهمتهم أو الميل إليهم .

ويبدو أن من العسير أن يطمئن الإنسان ، سواء استشهد بما نعرف من روح الجماعات أو بما استقرّأنا من حوادث الفتح ، إلى أن الخلاف المذهبي أدّى إلى مثل هذا الترحيب ، وأن العداء استحال إلى أن يفسح المجال لدين جديد أقلّ ما يوصف به أنه لا يرضى المذهبين معاً ، وإن كان يحلّ المسيح عليه السلام محلّ الإيمان بنبوّته وكتابه ولكنه يجرّده من ألوهيته بطبيعتها أو بطبيعتها كليهما ، فلا يرى فيه غير ما يرى في محمد بشراً رسولاً . . . وصحيح أن الإسلام قد أتاح لهؤلاء النصارى قدراً من الحرية قد لا يجدونه عند البيزنطيين . ولكن هل كان نصارى الشام يعرفون

(١) الطبري ٢٥٠٢/٥/١ وفي ٢٥٠٠ رواية أخرى : ولما بلغ أهل الجزيرة بأن الجنود قد ضربت من الكوفة ولم يدروا ، الجزيرة يريدون أم حصص ، ففرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم وخلاوا الروم .

(٢) الطبري ٢٥٠١/٥/١

كيف كان سيسير المسلمون بهم وكيف كانوا سيعاملونهم . . ألا يجب لنا أن لا ننسى التفريق بين النظر إلى الأمور قبل وقوعها وبين النظر إليها بعد أن تقع ؟ لقد دخل الإسلام بلاد الشام فلقى من مقاومة النصارى مثل ما لقي من مقاومة العرب . . لم يكن دخوله ترحيباً ولم تنصب له الرايات ولم تستقبله على الحدود الوفود ، وإنما تألبت عليه هذه الطبقات جميعاً على اختلاف في البواعث وتباين في الأغراض . . ولقى مقاومة العرب كما لقي مقاومة الروم وكما لقي مقاومة النصارى ، ولعله أن يكون قد وجد منفذاً لحبوبيته وصلاحيته من خلال هذا الاختلاف والتباين . . أما الأسباب الكثيرة التي يحاول المؤرخون أن يفترضوها ، سواء ما اتصل منها بالروم أو العرب أو النصارى ، فهي لا تعدو أن تكون ظلالاً خفيفة لا تدل على الحقيقة إلا بمقدار ما تستر منها . . أما الحقيقة ذاتها فهي تسكن وراء ذلك . . تسكن في أنه كان في حركة الإسلام دعوة وكان يتنفس بروح معنوية رفيعة ، على حين لم يكن لدى القوى التي واجهته مجتمعةً مثل هذه الروح : الروم يوقنون أن الأرض لم تسكن أرضهم — والعرب يظنون أن المهاجرين سيقاسمونهم نعمة العيش فإذا جدَّ الجِدَّ سيلتقون معهم بحبلٍ من قرابتهم لهم — والنصارى بين أن يكونوا عرباً أو روماً وقد ضاعت حماستهم الدينية في ثنايا هذه الأغراض الملتوية الأخرى . . ولذلك لم يكن عجيباً أن يؤول الأمر إلى مثل ما آل إليه .

افصل الثانی

فتة — وح العراق

القسم الأول

الفتوح

محمّد :

لم يكن العراق غربياً عن سكان الجزيرة ، ولم تبعد القبائل التي تسكنه في أنسابها عن قبائل الجزيرة ، وقد كان هو امتداداً لمنازلها ودار هجرة من هجراتها .. كانت تنتقل إليه وتسكنه كما كانت تنتقل إلى الشام وتسكنه ، وكان الفرس هنا كما كان الروم هناك يجدون في هذه القبائل التي تقارب حياة الحضرة وتنشد لونها من الاستقرار — أداة من أدواتها التي تسكنها من وراءها من العرب : تقيم منها هذه الدويلات أو هذه الإمارات ، وتجعل منها مقاطعات من مقاطعاتها أو ولاية من ولاياتها ، ويكون ما بينها وبينها من الجفاء أو الود ومن الأمانة أو الكيد ، تبعاً لما يكون من استقامة السيرة وحسن السريّة وتعاقب الملوك أو الأمراء . فلم يستقم الأمر ، في مرة ، على حال معينة أمداً طويلاً ، وإنما كان هناك أمراء يناصبون الملوك الساسانيين العداء وملوك يبذلون للأمراء الود ، كان بين الأمراء من قُتل في السجون وكان من الملوك من رُجى في قصور العرب وباديتهم . . وبلغ من شدة الصلات بين الفرس والعرب أن بهرام جور إنما نشئ في قصور المناذرة وبوادي العرب ، وتعلم لغتهم ، واعتاد عاداتهم وقال الشعر كما يقولون^(١) . . ولم يقتصر ذلك على بهرام وإنما كان طائفة من أبناء البيوتات الفارسية الذين عاشوا مع آبائهم في عمالات العراق أو اليمن ينشقون العربية ويحيدون فنون القول فيها على نحو ما يجيد ذلك أبناءها . . ففي حروب العراق سار ~~عبد الله بن حريز~~ ^{حريز بن عبد الله} إلى مهران يقاتله . . فكان بما قاله

حريز بن عبد الله

مهران لما لقي جريراً هذا الرجز الذي تعود العرب أن يقولوا مثله عند اللقاء :

إن تسألوا عني فإني مهران أنا لمن أنكرني ابنُ باذان

قال — والمتحدث ابن إسحاق — فأنكرت ذلك حتى حدثني من لا أتهم من أهل العلم أنه كان عربياً نشأ مع أبيه باليمن إذ كان عاملاً لكسرى^(١) . قال فلم أنكر ذلك حين بلغني .

ومهما يكن من أمر هذه الصلات في الجاهلية فقد كان العراق كما كان الشام بعض أهداف حركة الفتوح الإسلامية . ولذلك لم يكد خالد يفرغ من حروب الردة حتى كتب إليه أبو بكر — وهو في اليمامة — أن يمضى إلى العراق فيدخلها من أسفلها وحتى كتب كذلك إلى عياض بن غنم ليشاركة هذه المهمة : أن سير حتى تأتي المصيص فابدأ بها ثم أدخل العراق من أعلاها ، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه ، فإذا اجتمعما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحكم رداً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوك من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن^(٢) .

وسواء أكانت رواية سيف بن عمر أو كانت رواية الواقدي أو كانت رواية ابن الكلبي أو كانت هذه الروايات الأخرى المتناثرة عن اختلاف طريق خالد إلى العراق ، أكان سار من اليمامة أم كان رجع من اليمامة فقدم المدينة ثم سار إلى العراق — وعن إغفال ذكر عياض أو الإشارة إليه — وعن دور الأمراء الأربعة المثنى ومذعور وسلمي وحرمله^(٣) والمثنى بوجه خاص . . سواء أكانت هذه الرواية أم تلك ، فقد كان الهدف الأول للجيوش الإسلامية أن تبلغ الحيرة عاصمة عرب الضاحية حتى تنزلها وتنفى الفرس عنها وتجعل الطريق بينها وبين الحجاز آمنة لا سلطان فيها لأجنبي . . تفض مسالحها وتقر أصحابها من العرب أو من الفلاحين ثم تقحم على الفرس ، وقد أمّنت ظهرها ، معاقلمهم^(٤) .

(١) الطبري ١ / ٤ / ٢٢٠١ - ٢٢٠٢ (٢) الطبري ١ / ٤ / ٢٠٢١ - ٢٠٢٢

(٣) الطبري ١ / ٤ / ٢٠٢١ و ٢٠١٨ الأسطر ٧ - ١٠ (٤) الطبري ١ / ٤ / ٢٠٥٨

وفي الطريق إلى الحيرة كانت أيام ووقائع يفيض المؤرخون الإسلاميون في الحديث عنها ، وكانت منازل ومراحل يختلفون في بعضها ولا يتفقون فيها جميعاً على رأى واحد . . وأغلب الظن أن ذلك لم يكن عن تضارب أو تعارض ، وإنما كان عن تركيز أو إسهاب ، وعن تفصيل أو إجمال ، وعن النظر إلى سير بعض الفرق من الجيش أو النظر إلى سير الجيش كله . . فمن الواضح أن حركة الجيش لا تقتضى أن يسير كلًّا واحداً^(١) ... لا بدَّ فيه من أن يفترق ويلتقى ، ويتفرّع ويتجمّع ، ويسير بعضه من هنا وبعضه من هناك ، ولا بد من هذه الحركات الفرعية والاصطدامات الأولى قبل أن تكون المعركة الفاصلة ، ولا بدَّ من تنقية الطريق وتطهير الأرض من مراكز الفرس ومسالحها . ومن الواضح كذلك على ما سنرى بعد أن القبائل التي كانت تنتشر في هذه البقعة من الأرض لم تتخذ موقفاً واحداً . . سالم بعضها وحارب بعضٌ ؛ وأسهم بعضها في النصر ، في تحقيقه ، وأسهم بعضها في تعويقه ، ووقفت بعض المدن والقرى موقف المسائرة ووقف بعضها موقف العداء والمناصرة . . وذلك كله كان يؤدي إلى كثرة الروايات : تُفعل شيئاً وتتحدث عن شيء آخر ، وتؤلى أمراً من الأهمية غير ما تؤلى سواء ، فتبدو وكأنها هي متعارضة أو متناقضة .

ونستطيع أن نلخص حركة فتح العراق في المراحل الثلاث الآتية :

المرحلة الأولى — العراق العربي

وهي ذات شقين : سير خالد من اليمامة أو من المدينة ليأتى العراق من أسفله وسير عياض من المُصَيِّخ ليأتى العراق من أعلاه .

(١) في رواية عن المغيرة بن عتبة قاضي الكوفة أن خالداً فرّق جنده ، مخرجه من اليمامة إلى العراق ، في ثلاث فرق ، ولم يحملهم على طريق واحد فسرّح المثنى قبله بيومين ، ودليله ظفر — وسرّح عدى بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاً مالك بن عباد وسالم بن نصر ، أحدهما قبل صاحبه بيوم — وخرج خالد ودليله رافع فواعدهم جميعاً الحفير ٢٠٢٢/٤/١ - ٢٠٢٣

الشق الأول — خالد قبل الحيرة

١ — ذات السلاسل : كانت المعركة الأولى في طريق خالد معركة ذات السلاسل في الكاظمة «أو الكواظم» قرب الحفير ، وكان على رأس الفرس هرمز : «أسوأ أمراء ذلك الفرج جواراً للعرب ، فكلّ العرب عليه مغیظ ، وقد كانوا ضربه مثلاً في الخبيث حتى قالوا أخبث من هرمز وأكفر من هرمز»^(١) .

وسميت ذات السلاسل لأن هرمز وأصحابه اقترنوا بالسلاسل ، ونزل خالد عليهم وقتلهم فما ارتفع النهار وفي الغائط مُقْتَرَنٌ ، وانهزموا وركب المسلمون أكتافهم^(٢) .

ولم يلجأ الفرس إلى الاقتران فحسب ، وإنما تذهب بعض الروايات إلى أنهم استخدموا كذلك الفيل — وسيلعب الفيل دوراً هاماً في المعارك المقبلة — لأن رواية سيف عن محمد أن خالداً بعث بالفتح وما بقي من الأخماس وبالفيل . . ولكن يبدو لمتتبع الفتوح أن الإشارة إلى الفيل هنا إشارة مبكرة ، لأن المعارك لم تبلغ بعد قسوتها ولم يستخدم فيها الفرس كل أساليبهم وعددهم ، ولأن هزيمة المسلمين في الأيام التي استخدمت فيها الفيلة بعد ذلك كانت مفاجئة لهم وكانت الفيلة هي عنصر المفاجئة وسبب الهزيمة . . فلو أنهم عرفوها في ذات السلاسل لكان لهم معها بعد ذلك في الجسر ، حيث بلى منها أبو عبيد بن مسعود الثقفي القائد ، وفي القادسية — شأن آخر .

٢ — المدار أو الثني^(٣) : كان أردشير أمدّ هرمز بجيش عليه قارن بن قريانس فخرج من المدائن ، حتى إذا ما انتهى إلى المدار وبلغته الهزيمة في ذات السلاسل ، وانتهت إليه الفلال وتذامروا ، اجتمعوا على العود فمسكروا بالمدار ، وكتب خالد إلى أبي بكر باجتماعهم إلى الثني ، المَغِيث والمُعَاث — والعرب تسمى كل نهر الثني — وخرج خالد سائراً حتى ينزل المدار على قارن في جموعه ، فالتقوا ، وقتل

(٢) الطبري ٢٠٢٧/٤/١ - ٢٠٢٩

(١) الطبري ٢٠٢٣/٤/١ - ٢٠٢٥

قارن ، وقُتِلَت فارس لذلك مققلة عظيمة ، قيل ثلاثون ألفاً سوى من غرق ، ومنعت المياه المسلمين من طلبهم ، ولولا المياه لأُتِيَ على آخرهم ، ولم يُفْلِت منهم من أفلت إلا عراة وأشباه العراة .

وأقام خالد لعدوه بالمدار يتجسس الأخبار ، وسلم الأسلاب لمن سلبها باللغة ما بلغت ، وقسم الفئ ، ونقل من الأخماس أهل البلاد ، وبعث ببقية الأخماس ، ووقد وفداً مع سعيد بن النعمان أخى بنى عدى بن كعب ، وأمر على الجند سعيد بن النعمان ، وعلى الجزاء سويد بن مقرن المزني وأمره بنزول الحفير ، وأمره ببث عماله ووضع يده في الجباية .

٣ — الوَلَجَة^(١) : ولما فرغ خالد من الثني ووقع الخبر إلى أردشير بمصايب قارن وأهل المذار ، بعث الأندرزغر — وكان فارسياً من مولدى السواد وتناهم ، ولم يكن ممن ولد في المدائن ولا نشأ بها — وأرسل بهم جاذوبه في أثره ، وأمره أن يعبر طريق الأندرزغر .

وخرج الأندرزغر سائراً من المدائن حتى أتى كسكر ، ثم جازها إلى الوجلة ، وقد حُشِر إليه من بين الخيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين ، فعسكروا إلى جانب عسكره بالوجلة .

ونزل خالد ، بعد أن سار من الثني ، على الأندرزغر وجنوده ومن تأشب إليه ، فاقتتلوا قتالاً شديداً هو أعظم من قتال الثني ، وتمت الغلبة للمسلمين .

٤ — أَلَيْسُ الصَّفْرَى ، على صلب الفرات^(٢) : اجتمع الفرس إلى العرب في هذه الموقعة ، وذلك أن خالداً كان أصاب في الوجلة أناساً من نصارى بكر بن وائل ، أعانوا أهل فارس ، فيهم ابن الجابر بن بجير ، وابن لعبد الأسود العجلي ، فغضب لهم نصارى قومهم ، وكتبوا الأعاجم وكتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى أليس ،

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٣١ - ٢٠٣٦

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٢٩ - ٢٠٣١

وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه : أن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب .

وبلغ خالد هذا التجمع فنهّد لهم ، ودارت المعركة فكشفهم الله للمسلمين ومنحهم أكتافهم . وبعث بالفتح مع رجل يدعى جنسلاً من عجل — وكان دليلاً صارماً — فقدم على أبي بكر بذلك .

٥ — أمغيشيا^(١) : كانت أليس من مسالح أمغيشيا ، وكان منها أكثر الجند في موقعة أليس . ولذلك نهض خالد فاتاها — وقد أعجلهم عما فيها — وقد جلا أهلها وتفرقوا في السواد — فغلب عليها .

٦ — يوم المقر وفم فرات بادقلى^(٢) : ولما أخرب خالد أمغيشيا أدرك الآزاذبه ، وكان مرزبان الحيرة ، أنه غير متروك . فتهيأ لحرب خالد وعسكر خارجها من الحيرة وأمر ابنه بسدّ الفرات . فلما استقلّ خالد من أمغيشيا وحمل الرّجل في السفن مع الأثقال والأنفال ، لم يفجأ خالد إلاّ والسفن جوانح ، فارتاعوا لذلك ، فقال الملاحون إن أهل فارس نجّروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ، فلا يأتينا الماء إلاّ بسدّ الأنهار ، فعجّل خالد في خيل نحو ابن الآزاذبه فتلقاها على فم العتيق خيل من خيله ، فخيّمهم وهم آمنون لغارة خالد في تلك الساعة ، فأنامهم بالمقر ، ثم سار من فوره وسبق الأخبار إلى ابن الآزاذبه حتى يلقاه وجنده على فم فرات بادقلى ، فاقتتلوا فأنامهم ، ونجّر الفرات وسدّ الأنهار ، وسلك الماء سبيله .

٧ — الحيرة^(٣) والأنبار^(٤) : وقصد خالد بعدد للحيرة ، وتنام أصحابه إليه بالخورنق ، وأهل الحيرة متحصّنون ، فأدخل المدينة الخيل من عسكره ، وأمر بالقصور بكل قصر رجلا من قواده يحاصر أهله ويقاثلهم ؛ « فكان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي — وكان ضرار بن الخطاب محاصراً قصر

(٢) الطبرى ٢٠٣٧/٤/١ — ٣٨

(١) الطبرى ٢٠٣٦/٤/١

(٤) الطبرى ٢٠٥٩/٤/١

(٣) الطبرى ٢٠٣٨/٤/١ — ٢٠٤٥

الْعَدَسِيِّينَ وَفِيهِ عَدِيٌّ بْنُ عَدِيٍّ الْمَقْتُولُ — وَكَانَ ضَرَارُ بْنُ مَقْرَنَ الْمُزَنِيِّ ، عَاشَرَ عَشْرَةَ إِخْوَةً لَهُ ، مُحَاصِرًا قَصْرَ بَنِي مَازِنَ وَفِيهِ ابْنُ أَكْغَالٍ — وَكَانَ الْمُثَنَّى مُحَاصِرًا قَصْرَ ابْنِ بُقَيْلَةَ وَفِيهِ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْمَسِيحِ — فَدَعَوْهُمْ جَمِيعًا وَأَجْلَوْهُمْ يَوْمًا ، فَأَبَى أَهْلُ الْخَيْرَةِ وَتَلَّجُوا ، فَنَافَوْهُمْ الْمَسْلُومُونَ ، وَكَانَ قِتَالُهُمْ أَنْتَهَى إِلَى نَزُولِ أَهْلِ الْخَيْرَةِ عَلَى الْجُزْيَةِ ، فَعَاهَدَهُمْ خَالِدٌ وَكُتِبَ لَهُمْ .

٨ — مَا حَوْلَ الْخَيْرَةِ ^(١) : وَسَقُوطُ الْخَيْرَةِ وَالْأَنْبَارُ جَعَلَ الدِّهَاقِينَ يَتَتَابِعُونَ عَلَى صَلَاحِ الْمَسْلُومِينَ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَرَبَّصُونَ وَيَنْظُرُونَ مَا يَصْنَعُ أَهْلُ الْخَيْرَةِ ، فَلَمَّا اسْتَقَامَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَضَوْا يَعَاهِدُونَهُ ، أَتَاهُ دِهَاقِينَ الْمِثْلَاطِينَ ، وَأَتَاهُ زَاذُ بْنُ بُهَيْشٍ دِهْقَانُ فُرَاتٍ مِريَا ، وَصَلُّوبَا بْنُ نَسْطُونَا بْنُ بَصْبَهْرَئِي ، فَصَالَحُوهُ عَلَى مَا بَيْنَ الْفَلَاحِييَةِ إِلَى هُرْمُزْ جَرْدٍ . وَصَالَحَهُ غَيْرُهُمْ عَلَى مَنَاطِقٍ أُخْرَى . وَتَمَّتِ الْمَسْلَمِينَ الْغَلْبَةُ عَلَى أَحَدِ جَانِبِي السَّوَادِ ، وَصَارَ فِي وَسْعِهِمْ أَنْ يَهْدُوا شَاطِئَ دَجَلَةَ ، وَكُتِبَ خَالِدٌ يَنْذِرُ مَلُوكَ الْفَرَسِ وَمَرَازِئِهِمْ ^(٢) .

الشَّقُّ الثَّانِي — خَالِدٌ بَعْدَ الْخَيْرَةِ (خَالِدٌ يَتَنَقَّذُ عِيَاضًا)

وَكَانَ عَلَى خَالِدٍ قَبْلَ أَنْ يَمْضِيَ فِي فَتْحِ فَارَسَ أَنْ يَنْظُرَ أَيْنَ أَنْتَهَى بَعِيَاضُ بْنُ غَنَمٍ سِيرَهُ إِذْ مَضَى يَأْتِي الْعِرَاقَ مِنْ أَعْلَاهُ . . . وَكَانَ عِيَاضٌ قَدْ شَجِيَ وَأَشْجَى بِدُومَةٍ . . . فَكَانَ لَا بَدَّ لَخَالِدٍ أَنْ يَتَنَقَّذَهُ وَيُعَالَجَ عَمَلَهُ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَقَامَ لَهُ مَا بَيْنَ الْفَلَاحِييَةِ إِلَى أَسْفَلِ السَّوَادِ ^(٣) ، وَبَعْدَ أَنْ وَزَعَ الْعَمَالَ وَالْمَسَالِحَ ^(٤) . . .

١ — عَيْنُ التَّمْرِ ^(٥) : كَانَ أَوَّلُ مَا فَعَلَ خَالِدٌ حِينَ خَرَجَ فِي عَمَلِ عِيَاضٍ لِإِغَاثَتِهِ وَلِيَقْضِيَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ أَنْ قَصَدَ إِلَى عَيْنِ التَّمْرِ . وَفِي عَيْنِ التَّمْرِ كَانَ جَمْعٌ مِنَ الْعَرَبِ ، مِنَ التَّمْرِ وَتَغْلِبَ وَإِبَادَ وَمَنْ لَا فَهْمَ عَلَيْهِمْ عَقَّةُ بْنُ أَبِي عَقَّةَ ، فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ مِنَ الْعَجَمِ

(١) الطَّبَرِيُّ ٤/١/٤٩٩ - ٢٠٥٢ (٢) الطَّبَرِيُّ ٤/١/٥٣٠ - ٢٠٥٣
(٣) الطَّبَرِيُّ ٤/١/٥٧٢ - ٢٠٥٧
(٤) الطَّبَرِيُّ ٤/١/٥٧٢ - ٢٠٥٧
(٥) الطَّبَرِيُّ ٤/١/٦٢٢ - ٢٠٦٤

عليهم مهران بن بهزاد جوبين . وتولى عَقَّة قتال خالد ، فأسر وانهمزم صفه ،
 وهرب بُحَيْرُ بن فلان أحد بني عبيد بن سعد بن زهير وكان على ميسرته ، والهذيلُ
 بن عمران وكان على ميمنته ، وهرب مهران ، واعتصم الهَرَّابُ بحصن هناك فاقتحمه
 عليهم خالد ، وسباه ، وغنم ما فيه وقتل أسراه ، وقتل عقة قبلهم ليؤتسهم من الحياة .
 ٢ - دُومة الجندل^(١) : وخلف خالدُ عُوَيْمَ بن السكاهل الأسلمي على عين
 التمر ، وخرج إلى دومة الجندل . ولما بلغ أهل دومة مسيره إليهم ، بعثوا إلى أحزابهم
 من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم ، فقاتلوه والفرس ، في حديث طويل . .
 وكانت له الغلبة .

٣ - الحَصِيدُ والخنافس والمُصَيِّخُ والبشر^(٢) : وكاتب عربُ الجزيرة الفرسَ
 غضباً لعَقَّة ، فخرج زَرْمَهْرُ من بغداد ومعه رُوْرَبُه يريد الأنبار ، وأعدا حُصَيْدًا
 والخنافس ، وخرج الهذيل بن عمران ، فعسكر بالمصيخ ، ونزل ربيعة بن بجير
 في عسكره بالثَمِيَّةِ وبالبشر .

ولم يترك خالد للفرس أو العرب الفرصة للاجتماع ، وبادرهم الهجمة ، فأرسل
 القهقاع إلى حصيد وأمره على الناس ، وبعث أبا إيلي بن فدَكِيٍّ إلى الخنافس ،
 وتولى هو أمرَ الهذيل وربيعة .

فأما في الحَصِيدِ : فقد استمدَّ روزبه زَرْمَهْرَ فأمدّه بنفسه ، واستخلف على عسكره
 المَهْبُوذان والتقوا جميعاً بحُصَيْدٍ ، فقتل الله العجم مقتلة عظيمة ، وقتل القهقاعُ زَرْمَهْرَ
 وقتل روزبه ، قتله عصمةُ بن عبد الله أحد بني الحارث بن طَرِيف من بني ضَبَّة .
 وأما في الخنافس : فقد سار أبو ليلى بن فدَكِيٍّ بمن معه ومن قدم عليه نحو
 الخنافس ، وقد أرزت فلأل الحَصِيدِ إلى المَهْبُوذان ، فلما أحس المَهْبُوذان هرب ومن
 معه وأرزوا إلى المَصَيِّخِ ، وبه الهذيل بن عمران ، ولم يلق بالخنافس كيداً ، وبعثوا
 إلى خالد بالخبر جميعاً .

وأما في المصبيح : فقد كتب خالد إلى القعقاع وأبى ليلي وأعبد وغروة يواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المصبيح .. فأغاروا على الهذيل ومن معه ومن أوى إليه ، وهم نائمون ، من ثلاثة أوجه . وأفلت الهذيل في أناس قليل .

وأما في البشر والثني : فقد كرّر خالد المفاجأة ، وبيت القوم بالثني ثم بالبشر وقتل في كل مقتلة عظيمة ، ثم عطف من البشر إلى الرضاب ، وبها هلال بن عقة ، فلم يلق كيداً .

وكذلك وفق خالد في سلسلة من المباغعات السريعة أن يحول بين الفرس والعرب وبين الاجتماع في جبهة واحدة .

٤ — الفراض^(١) : ثم قصد خالد بعد الرضاب وبعد بغتته تغلب إلى الفراض ، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة ، فاجتمع عليه الروم والفرس والعرب ، على ما سنرى بعد ، فاقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً ، ثم إن الله عز وجل هزمهم .

ثم أذن خالد في القفل إلى الحيرة ، وأظهر هو أنه في الساقفة .. ولكنه مضى إلى الحج في طريق غير مطروقة متعسفاً البلاد متسمّتا مكة^(٢) ثم عاد إلى الحيرة ليلقاه كتاب أبي بكر يأمره بالشام .

وكذلك استقام العراق للمسلمين أسفله وأعلاه ، أسفل السواد وضافي الفرات والضاف الفرية بنوع خاص ، وخضعت الحيرة والأنبار « ٦٣٣ م » ، واتصل ما بين الشام والعراق والجزيرة في الفراض على رضا من القبائل العربية أو كره ، وعلى كره من الفرس لاشك ، وعلى رضا من الفلاحين لاشك في ذلك أيضاً . وسنقول تفصيل الأمر حين ننظر في موقف السكان من الفتح .

وحسبنا أن نشير هنا إلى أن المرحلة الأولى من مراحل تحرير العراق قد توجت بدخول الحيرة من نحو — وكانت من عمل خالد بن الوليد من نحو آخر — وكانت في خلافة أبي بكر من نحو ثالث — وكانت آمادها العراق العربي والقبائل العربية الضاربة فيه وفيما حوله ، من نحو أخير .

بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية :

وفما بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية التي سنتحدث عنها بعد ، كان كتاب أبي بكر إلى خالد أن يستخلف على العراق ، وأن يمضى إلى الشام ينجد المسلمين فيها بعد الذى تجمع لهم فيها من الروم . فمضى خالد « فى ربيع سنة ٦٣٤ » من العراق إلى الشام مُنْجِداً فى هذه السرعة المعجزة التى تحدثنا عنها الرواة^(١) ، واستخلف على العراق المثنى بن حارثة الشيبانى ، الجندى العامل المغامر ، الذى يدين له فتح العراق بكثير من الجراة والقوة والاندفاع .

المرحلة الثانية — العراق العجمى

(من الحيرة إلى القادسية)

تمهيد :

وتبدأ المرحلة الثانية مع خلافة عمر . . لن يعود خالد إلى العراق مرة ثانية فقد أثر الخليفة الثانى أن يعفيه من القيادة ، ولن يقصر الخليفة الجديد جهده على الشام فقد حققت الجيوش الإسلامية فى الشام ظفراً طيباً مكّناً لها منها . . وكان لابد لهذه الفتوحات التى بدأت فى العراق أن تستكمل غاياتها وتتابع طريقها . ولذلك وجد عمر أنه مدفوع إلى العراق ملفوت إليه على مثل ما وجد أبو بكر من قبل أنه مدفوع إلى الشام ملفوت نحوه . . فبدأ يندب الناس إلى هذا الوجه من وجوه المسلمين إثر أن سوّى تراب الخليفة الأول .

لقد بدأت المرحلة الثانية أذن بخليفة جديد هو عمر ، وبإمداد جديد هو إمداد أبي عبيد الثقفى الذى كان أول من لبى نداء عمر ، وبقيادة جديدة انتهت بعد مقتل أبي عبيد فى الجسر و وفاة المثنى بعد البويب ، إلى سعد : صاحب النبي وبطل القادسية والمؤثر لحركة الفتح فى هذا الجناح من الأرض الذى سيكون بعد الجناح الشرقى من الأمبراطورية الإسلامية الواسعة .

ولقد كانت ميادين هذه المرحلة العراق العجمى . فلم يكن خالد حين افتتح

(١) انظر عن سير خالد إلى الشام ٢٢ - ٢٣ من الفصل الماضى .

جنوب العراق يقصد إلى هذه الأرض التي يملؤها العرب فذلك مطلب يسير - على ما كان من مقاومتهم - في جانب الآمال الكبرى التي تراوده ، وإنما كان يهدف إلى ما وراء ذلك من أرض الأعاجم . . كان العراق العربي القنطرة التي تحمل جند المسلمين إلى ما وراءه ، ولذلك كان أول ما فعله إذ استقر له أمر الحيرة والأنبار أن كتب - في رواية هشام عن أبي مخنف عن الشعبي - إلى مرازمة أهل فارس هذا الكتاب العنيف يدعوهم إلى الإسلام أو الذمة في أسلوب قاس ولهجة حازمة تقطر عنفواناً^(١) ، ولذلك أيضاً قبل من بعض الأرياف التي مرّ بها في طريقه حول الحيرة صلحاً هيناً يسيراً ، صالح أهل باقيا على ألف درهم^(٢) . . ولذلك أيضاً صالح أهل الحيرة على أن يكونوا له عيوناً ففعلوا^(٣) . .

المعارك :

وقد تتالت المواقع في هذه المرحلة من مراحل فتوح العراق وفي وسعنا أن نشير إليها بما يلي :

١ - معركة النمارق^(٤) : وقد كانت هذه المعركة عقب وصول أبي عبيد وتوليّه قيادة الجيوش في العراق . وكأنما أراد منها الفرس أن يُرهبوا أبا عبيد ، أول من انتدب ، حتى يقهروا في نفسه إرادة الظفر ورغبة النصر ، فأعدّوا لها القوى الداخلية وعباؤوا الجند ، ولقوا فيها المسلمين من خلفهم ومن بين أيديهم ومن أمامهم : كتبوا إلى دهاقين السواد أن يشوروا بالمسلمين ، ودسّوا في كل رستاق رجلاً ليثور بأهله ، فبعثوا جابان إلى البهقُباد الأسفل ، ونرّسوا إلى كسكر ، وجنداً ليواقعوا المثنى . . وبلغ المثنى ذلك فضم إليه مسالحه وحذّر . . وخرج الدهاقين وتوالّوا على الخروج ، وثار أهل الرساتيق وتتابعوا على الثورة ، ونزل أبو عبيد والمثنى بخفّان ، وتعبّى ، ثم كان اللقاء في النمارق . . وكان قتالاً شديداً هزم الله فيه أهل فارس وأسير جابان القائد ومردائشاه ، وكانا على المُجَنَّبَةِ ، وكانا معاً هما اللذين تولّيا أمر الثورة .

(٢) الطبري ١/٤/٢٠١٩

(١) الطبري ١/٤/٢٠٢٠ و ٢٠٥٣

(٤) الطبري ١/٤/٢١٦٢ - ٢١٦٨

(٣) الطبري ١/٤/٢٠٢٠

٢ — السَّاقَطِيَّةُ بِكَسْكَر^(١) : وحين انهزم الفرس في النارق أخذ فالتهم نحو كسكر يلتجئون إليها ، وأتبعهم أبو عبيد الجرّدة — وانحاز إلى الفالّة أهل كسكر وباروسما ونهر جَوْبَر والزاب وعاجلهم أبو عبيد ، فالتقوا أسفل من كسكر بمكان يدعى السقاطية ، فاقتتلوا في صحارى مُلْسٍ قتالا شديدا وتم النصر للمسلمين . ولم يمهل أبو عبيد أعداءه وإنما سرّح المثنى إلى باروسما ، وبعث والقا إلى الزوابى ، وعاصما إلى نهر جَوْبَر ، فهزموا من كان تجمّع ، وأخربوا وسبّوا . .

٣ — وقعة باقسيانا^(٢) : وقد استمدّ الجيشُ الفارسى بعد هذه الهزائم بوران ، وكانت على العرش ، فأمدته بالجالنوس . ونزل جالنوس هذا باقسيانا فمهد له أبو عبيد في المسلمين ، وهو على تعبيته ، فالتقوا وهزمهم المسلمون وهرب الجالنوس ، وأقام أبو عبيد وقد غلب على تلك البلاد .

٤ — وقعة الجسر^(٣) « ويقال لها وقعة القرقس أو القسّ قسّ الناطف أو المروحة » .

ولم تستقم المعارك للمسلمين في نسق واحد ، فالتصر الذي حققوه في المواقع السابقة قابلته هزيمة يوم الجسر هذه ، وهزائم الفرس دعّتهم إلى أن يشدوا ويكثروا من جموعهم : فاستعمل رستم على حرب أبي عبيد بهمن جاذويّه وهو ذو الحاجب ، وردّ معه الجالنوس ومعه الفيلة فيها فيل أبيض عليه النخل ، واستكثر من الجنّد وحفل بهذه المعركة وسار ومعه راية كسرى « دَرَفَش كايان » يلقي أبا عبيد في زهاء وعُدّة لم يلق المسلمين بها أحدٌ من قبل ، حتى وقف على شاطئ الفرات بقس الناطف ، وأبو عبيد معسكر على شاطئ الفرات بالمروحة ، موضع البرج والعاقول . . فبعث إليه بهمن يخبره بين أن يعبر أحدهما أو الآخر ، ولم يكن الرأي العبور ، ونهى المسلمون أبا عبيد وأشاروا إليه أن يذعوم إلى العبور ، ولجوا في ذلك ولجّ ، وكان أشدّ الفاس عليه سليط بن قيس . ولكن أبا عبيد ،

(٢) الطبري ٢١٧٢/٤/١

(١) الطبري ٢١٦٨/٤/١ - ٢١٧٠

(٣) الطبري ٢١٨٢ - ٢١٧٤/٤/١

هذا القائد الذي لا يريد أن يعرف غير النصر ، ترك الرأي وقال : لا يكونوا أجراً على الموت منّا بل نعبر إليهم . فعبروا إليهم ، واقتتلوا .. وأسرت السيوف في أهل فارس وأصيب منهم ستة آلاف في المعركة .. وإلى هنا لم يبق أو لم ينتظر — على حد تعبير الطبرى — إلا الهزيمة رغم ما لقي المسلمون من شدة الفيلة وهيبة الخيل لها ، لولا أن خبطة الفيل لأبى عبيد تركت أثرها ، فللقائد في مثل هذه الجيوش دائماً سحره وأثره وقد كان جرحه أو أصابته أو قتله تعنى تدهور الجيش أو تفككه أو انسحابه . وكذلك كان الأمر هنا ، فقد ركب أهل فارس المسلمين وبادر رجل من ثقيف هو عبد الله بن مرثد الثقفي في شيء من الحاس لا يعنى النتائج ، فقطع الجسر ، فانهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم ، فتهافتوا في الفرات ، وأصابوا يومئذ من المسلمين أربعة آلاف من بين غريق وقتيل ، وحى الناس المثنى وعاصم والكلج الضبي ومذعور ، حتى عقدوا الجسر وعبروهم ثم عبروا في آثارهم ، فأقاموا بالمروحة والمثنى جريح والكلج ومذعور وعاصم ، وكانوا حماة الناس مع المثنى .

ولقد كان من قسوة معركة الجسر هذه أن هرب من الناس بشر كثير على وجوههم ، وافتضحوا في أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم ، ولحق بعضهم بالمدينة ، وتركها بعضهم ونزلوا البوادي ، وبقي المثنى في قلة . وعند النهدي أنه بلغ عدد الهلكي يومئذ أربعة آلاف بين قتيل وغريق ، وهرب ألفان وبقي ثلاثة ، وقد جرح المثنى وأثبت فيه حلق من درعه هتكهن الرمح ، وقتل سليط بن قيس عند الجسر .

وعلى أن النصر كان حليف فارس إلا أنهم لم يستطيعوا استثماره ولم يتمكنوا من أن يتعقبوا المسلمين إما عن عجز أو عن تجاوب مع ما كان في المدائن من ثورات داخلية ، فقد رووا أنه بينا أهل فارس يحاولون العبور أتاهم الخبر أن الناس بالمدائن ثاروا برستم .. وصاروا فرقتين ، فرجع ذو الحاجب بجنده .

٥ - البويب^(١): ثَقُلَ على عمر أمر هذه الهزيمة ، وما لقي الجند من هول ،
وثقل على المسلمين الفارين أمرُ فرارهم ، فليس يجيز الإسلام للجندى هذا الفرار
إلا أن يكون متحيزاً إلى فئة^(٢) أو متحرفاً لقتال ، فلحق بعضهم بالمدينة مستخفياً ،
ونزل بعضهم البادية مستحياً ، ورأى عمر جزعَ المسلمين ، من المهاجرين والأنصار ،
من الفرار فوقف موقف القائد الخنك الذى لا يصرفه هول المصيبة عن حسن التفكير
والتقدير ، ولا يفتت فيه جزعُه تماسكُه ، واعتبر فرار الفارين تحيزاً إليه على أنه هو
القائد الأعلى لهذه الجيوش وعلى أن المسلمين فى المدينة هم الفئة التى تمد هذه الجيوش
وترعى شؤونها وتشرف على حركاتها ، وهى مصدرها ومبعثها ونقطة انطلاقها ،
فالتجوء إلى المدينة أو إلى عمر ليس إذن فراراً من المعركة ولسكنه وثبة لمعركة أخرى
أو متحرفاً لقتال آخر . . وفى ذلك قال عمر : « لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فنتكم
إنما انحزتم إلى » .

وكان لابد للمسلمين إذن من أن يثأروا للجسر ، وكان لابد لهم من أن يكفروا
عن سيئاتهم فى الفرار ، وكان على عمر أن ينقذ المسلمين من أثر هذه الصدمة ، وأن
يطبّ لجزعهم ، وكان هذا الوجه من قبل أشدَّ الوجوه عليهم وأكراهه لهم^(٣) وزاده
يوم الجسر جهامة وقسوة ، ولذلك كان يلقى فى إمداد المثنى قسوة وحرَجاً : وحين
حاول أن يبعث بجيلة بعد أن استخرجها من الناس - حين جاءه فى ذلك جرير
بن عبد الله - اضطر إلى إكراهه على السير إلى العراق ، فقد أراد جرير الشام ،
وأبى عمر ، لأن أهل الشام قد قوَّوا على عدوهم ، وأكراهه ثم عوضه لإكراهه إياه

(١) كان البويب مغيضاً للفرات أيام المدود ، أزمان فارس ، يصب فى الجوف . الطبرى
٢١٨٧/٤/١ ، ٢١٩٩/٤/١

(٢) « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله
ومأواه جهنم وبئس المصير » الأفعال ١٦

(٣) ندب عمر الناس أول خلافته ثلاثة أيام فلم ينتدب أحد إلى فارس لأنه كان من أكراه
الوجوه إليهم وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزيمتهم وقهرهم الأمم . الطبرى ٢١٥٩/٤/١

واستصلاحاً له ، ربيعَ خمس ما أفاء الله عليهم في غزاتهم هذه ، له ولمن اجتمع إليه ولمن أخرج إليه من القبائل ^(١) .

ولم يكن إمداد المثنى ببجيلة وحدها ، وإنما بعث عمر كذلك عصمة بن عبد الله من بني عبد بن الحارث الضبي فيمن تبعه من بني ضبة ^(٢) .

وكانت فرصة طيبة أمام عمر يعالج فيها أمر أهل الردة ... كان أبو بكر من قبل كره أن يستخدمهم في الحروب وأوصى أن لا يستعان بمرتد ^(٣) ولم تنفع عنده شفاعته من استشفع من مثل المثنى ^(٤) . فلما كانت الجسر وحاجة جند العراق إلى الإمداد ، اهتبل عمر هذه المناسبة يفيد منها من العزم الذي لم ينطاق ومن الحماس الذي لم يستثمر ومن الحرمان الذي مكن للرغبة في الفتوحات والتكفير بها عن ماضي السيئات ، فكتب إلى أهل الردة « فلم يواف شعبان أحدٌ إلا رمى به المثنى ^(٥) » .

ثم وإلى عمر بعد ذلك إمداد المسلمين بمن كان ينتدبهم وبمن كان يجتمع إليه ^(٦) وتوافى إلى المثنى جمع عظيم ، واجتمع عسكر المسلمين على البويب مما يلي موضع الكوفة اليوم وعليهم المثنى ، وبإزائهم الفرس عليهم مهران ، والمشركون بموضع دار الرزق « شوميا ٢١٩٠ » ، والمسلمون بموضع السكون « ٢١٨٧ » ، والفرات بينهما « ٢١٩٠ » .

ومضى المثنى يقود المعركة في شجاعة ودرية ، وأولى أمر النظام عناية خاصة ، « ٢١٨٥ و٩١ » لكأنه بذلك يريد أن يعوض ما كان يوم الجسر من غلبة الحماس على الطاعة . وخاض القتال وحقق النصر وقتل مهران وقتل معه من الفرس ناس كثير ... ما كانت بين العرب والعجم وقعة أبقى رمةً منها « ٢١٩٤ » حتى ليحدث شعيب عن

(١) الطبري ٢١٨٣/٤/١ . واقرأ عن استخراج بجيلة من الناس طائفة من التفاصيل في ٢١٨٦ مواطن أخرى متفرقات . (٢) اقرأ تصنيف الأمداد ومصادرها القبلية في كتابنا « المجتمعات الإسلامية في القرن الأول » ٩٢ - ٩٣ (٣) الطبري ٢٠٨١/٤/١

(٤) ٢١٢٠/٤/١ خرج المثنى نحو أبي بكر ليخبره خبر المسلمين والمشركون وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته ، وندب من أهل الردة من يستطعمه الغزو ، وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم .

(٥) الطبري ٢١٨٣/٤/١

(٦) انظر الطبري ٢١٨٨/٤/١ - ٩٢ - ٩٣ وال فقرات الخاصة بذلك فيما يلي من صفحات

سيف : والله ان كنا لثاقى البويب فنرى فيما بين موضع السكون وبنى سديم عظاماً
بيضاً تلوح من هامهم وأوصالهم يُعْتَبَرُ بها « ٢١٩٣ » ، وأنهم كانوا يحزرونها
مائة ألف « ٢١٩٣ و ٢١٩٩ » .

واطمأن المسلمون إلى هذا النصر ، ووجدوا فيه تعويضاً عن يوم الجسر وتسلاًوا
به عن مصيبتهم السابقة « ٩٤ » ، وثأروا فيه لقتلهم حتى لقد سُمِّيَ البويب يوم
الأعشار ، أحصى فيه مائة رجل ، قتل كل رجل منهم عشرة في المعركة يومئذ ، عدا
من قتل التسعة أو مادون التسعة « ٢١٩٦ » .

ولم يقعد إغراء النصر بالمتنى عن غايته . فقد ندب الناس اثر المعركة وراء
الجيش المنهزم وسألهم أن يتبعوهم إلى السيب « ٩٧ » واستجابت له في ذلك بجيلة
وناس كانوا في يوم المعركة أرادوا أن يخرجوا إلى العدو من صف المسلمين ؛ يريدون
أن يستتلوا تكفيراً عن سيئاتهم يوم فروا من الجسر ، فنهزم وقرعهم بالرمح وألزمهم
موقفهم « ٢١٨٥ » .

وأمر المتنى أن يعقد لهم الجسر « ٢١٩٨ » ثم أخرجهم في آثار القوم وأتبعهم
بجيلة ، وخيول من المسلمين تعذ من كل فارس ، فانطلقوا في طلبهم حتى بلغوا السيب
ولم يبق في العسكر جسر سوى إلا خرج في الخيل ، فأصابوا غناً كثيراً . . وأغاروا حتى
بلغوا ساباط « ٩٩ » ثم انكفأوا راجعين إلى المتنى .

وتبدو قيمة البويب ، لا في استصلاح الأثر النفسى الذى كان بعد هزيمة الجسر ،
بل في أن المسلمين أضحوا قادرين على السواد كله . . كانوا يحاربون من قبل
لا يجتازون الفرات ، ثم حاربوا فيما بين الفرات ودجلة ، أما بعد البويب فقد استمكنوا
من كل هذه المنطقة التى تمتد بين الفرات ودجلة « فمخروها لا يخافون كيداً ولا يلقون
فيها مانعاً »^(١) .

٦ — الخنافس والكباث وغارات أخرى^(٢) : وقد استقام الأمر للمسلمين بعد

(١) الطبرى ٢٠٩٩/٤/١ وانظر كل أخبار البويب في الصفحات بين ٢١٨٤ - ٢١٩٩

(٢) الطبرى ٢٢٠٢/٤/١ - ٢٢٠٧

البويب ، واستقاد لهم السواد ، وأخذ المثنى يمحّره هنا وهناك :وزّع القواد وأذكى المسالّح وأغار على تجمعات الفرس والعرب .

وكان من هذه الغارات غارته على الخنافس ، وهو سوق يتوافى إليها الناس ، ويجتمع بها ربيعة ومضر يخفرونهم ، فأغار عليها وانتسف السوق وما فيها وسلب الخفراء ثم رجع عوده على بدئه ، يريد أن يطرق دهاقين الأنبار ، واستعان بهؤلاء الدهاقين ليُغير على المدائن فأغار وسلم .

ومن هذه الغارات غارته على الكبّاث . ويتميز الكبّاث أن أهله كلهم من بنى تغلب ، فأخلّوه وارفَضُوا عنه ، وتبعهم المسلمون يركبون آثارهم ، وأدركوا آخرياتهم ، وقتلوا وأكثروا .

ومنها غارة على أحياء من تغلب والنمر بصفين .

وقد كان المثنى هو سيد هذه الغارات كلها بعد البويب ، وكان على مقدمته حُذَيْفَةُ بْنُ مُحْصَنٍ الْغَلْفَانِيُّ وَعَلَى مُجَنَّبَتَيْهِ النعمان بن عوف بن النعمان ومَطَرُ الشَّيْبَانِيانِ . « ٢٢٠٧ » .

ولا يطول أمر هذه الغارات فقد أدرك الفرس أيّ نذر مبينة تهدد دولتهم الواسعة فبدأوا يعدون للمعركة الجديدة : معركة القادسية ، إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ .

٧ — القادسية^(١) : حين وفق المسلمون في هذه المعارك المتسلسلة التي أشرنا إليها واستطاعوا أن يغلبوا على السواد ، وانطلقت أيديهم فيه ينالون منه حيث شاءوا وجاوزوا المناطق التي كانوا يرتادونها في الجاهلية في أطراف العراق وفي جنوبه ، إلى صميم الامبراطورية الفارسية ، وعبروا الفرات ونحروا السواد ، وحاذوا دجلة ، وجازوها في بعض الغارات المتفرقة . . حينذاك وجد الساسانيون أنهم والخطر سواء . . لم يعد الأمر غارات قصيرة قريبة ولا أفواج عربية صغيرة تفتى

(١) الطبري ٢٢٠٨/٤/١ وما بعد ذلك .

أو تستقر ، وإنما هي أمواج تنذر وتغير ، وتدعو وتفتح . ولم تعد هذه الجماعات التي عهدوها تمتاز في أيام الجذب وتتجر في أيام التجارة ، وتحاول أن تحمل إلى القبائل وراءها العروض ، وإنما هي جماعات من نوع جديد تدعو إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب فإذا حاربت لم تعرف الفرار ولم تستهدف غير النصر أو الشهادة . . ولهذا ثار الفرس برؤسائهم : غلى فيهم حماسهم ووجدوا في خلافاتهم الداخلية منفذاً ينفذ منه المسلمون ، وأحسوا أنهم يطرقون أبواب مدينهم في عنف وشدة ، وأن هذه الأبواب لن تلبث أن تنفتح لهم على مثل ما انفتحت لهم في المعارك السابقة « فما بعد بغداد وساباط وتسكريت إلا المدائن^(١) » على ما رَوَوْا أن أهل فارس قالوا لرؤسائهم ومن هنا هاج أمر القادسية ، ووجد يزدجرد أن الحكم يلقي على كتفيه هذا العبء الثقيل : إنقاذ البلاد من هذا الهجوم الثقيل الذي يمتد ويستطيل . . فبدأ لذلك حركة عامة جند فيها الكفاءات وحشد كل القوى وأرادها مع المسلمين معركة فاصلة قاصمة .

ولم يكن استعداد الفرس لهذه المعركة في هذه المناطق الفارسية فحسب ، وإنما تعداها إلى المناطق التي سيطر عليها المسلمون ، فسمي يزدجرد الجنود لسكر مساحة كانت للفرس أو موضع ثغر « ٢٢١٠ » ، فسمي جند الحيرة والأنبار والمسالخ والأبلة وثار سكان هذه المناطق ، وهم ذمة المسلمين ، بالمسلمين ، وكفر أهل السواد ، من كان له منهم عهد ومن لم يكن له عهد .

ورافقت هذه الإثارات الداخلية الزخوف من المدائن ، فوجد المسلمون أن الأرض التي لم يُمكن لأقدامهم منها تسكاد تميد بهم ، وأن كل شيء يثور من حولهم : الجند والسكان والمعاهدين وغير المعاهدين ، وأدركوا أن زحفاً هائلاً مرعباً يتقدم نحوهم وأن معركة كبيرة تنتظرهم . . فكتبوا إلى عمر وتنزل الناس بالطف في عسكر واحد « ٢٢١٠ » وانسحبوا متخليين عن أكثر المناطق التي احتلوها . . حتى جاءهم كتاب عمر .

موقف الفرس إذن هو هذا :

١ - استقرارٌ داخليّ تمثل في تنصيب يزدجرد واجتماعهم عليه ، واطمأنت فارس واستوسقوا وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته « ٢٢١٠ » .

ب - تجنيدٌ عام شمل كل ما استطاع الفرس أن يجندوه ، وتوزيع الفرق في كل أنحاء الأرض التي احتلها العرب .

ج - وأخيراً إثارة السكان وتآليبهم على المسلمين ، حتى خفروا عهدهم وكفروا بذمتهم وثاروا بهم . . .

فإذا يكون موقف المسلمين ؟ .

سيكون موقف المسلمين في هذه اللحظات الحرجة هو هذا الموقف الذي تعاون على صياغته كتاب عمر من نحو « ٢٢١٠ و ٢٢٢٧ - ٢٨ » ووصاة المثنى من نحو آخر « ٢٢٢٦ - ٢٧ » فقد روّوا أن المثنى أوصى سعداً في خطة قتال وصاة لا تخرج عن كتاب عمر في كثير ، بل تشترك معه في الفكرة واللفظ والنصيحة والخطة . . ويتلخص هذا الموقف فيما يلي :

١ - الانسحاب : خروج المثنى والقواد الآخرون على حامياتهم من الأرض التي احتلوها من بين ظهري الأعاجم .

ب - التراجع : والتفرق في المياه التي تلي الأعاجم على حدود الأرض العربية والأرض الفارسية . . وقد نزل المثنى في ذي قار ، ونزل الناس الطفّ ، فكانوا في أمواه العراق من أولها إلى آخرها مسلّح بعضهم ينظر إلى بعض ويغيث بعضهم بعضاً إن كان كون « ٢٢١١ » .

ج - مقابلة التجنيد العام بالتجنيد العام : فالمثنى يستنفر الناس من حوله في أمر عمر له : ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أجلبتموه ، فإن جاء طائعاً وإلاً حشرتموه ، احمّلوا العرب على الجِدّة إذا جدّ العجم فلتلقوا جدّهم بجِدّكم . . وعمر يكتب إلى عمال العرب على السكور

والقبائل : لا تدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى . والعجل العجل « ٢٢١٠ - ٢٢١١ » .

نحن إذن أمام هذه القوى الضخمة التي تتجمع لتضطرع : القوى الساسانية تنتفض انتفاضة الحياة التي تأبى أن تموت ، والقوى العربية تدافع عن كيائها الناشئة ودعوتها الممتدة ، وهؤلاء وأولئك لا يدعون سبيلاً إلا سلكوه ولا عُدّة إلا اعتدّوا بها ولا جنداً إلا حشدوه .

وفي هذا الحماس المتدفق هنا وهناك كانت معركة القادسية . . . ولسنا نحاول أن نتحدث هنا عن جيوش المسلمين ، كيف تجمعت وكيف انتظمت في الفرق والأعشار وكيف وزعت جندها وحثت ظهورها ، ولا عن قسوة المعارك كيف التهمت الشهداء وملأت وجه الأرض منهم ، ولا عن هذه الأيام التي مضت بين ابتداء المعركة وانتصار المسلمين ، يوم أرمات ويوم أغواث وليلة الهرير . . . فقد أوسع المؤرخون هذا كله حديثاً عنه وتتبعاً لأطرافه . ورسم له الطبرى في الصفحات التي أفرد لها به صوراً ملونة زاهية منذ بدأ الجيشان يلتقيان على الدماء والمفاوضة حتى خرس المنطق وتفتحت الأنفاس عن السيوف . . . وإنك لتقرأ هذه التفاصيل التي ساقها المؤرخون فتدرك شدة اهتمام المسلمين بهذه المعركة وتقديرهم لمداها البعيد وأثرها في الجماعة العربية والجماعة الفارسية على السواء . . . قالوا : « وكانت العرب تَوَقَّعُ وقعة العرب وأهل فارس في القادسية فيما بين العذيب إلى عَدَنَ أُبَيْنَ وفيما بين الأُبُلَّةِ وأَيْلَةَ ، يَرَوْنَ أن ثبات ملكهم وزواله بها ، وكانت في كل بلد مُصَيِّخَةً إليها تنظر ماذا يكون من أمرها حتى أن كان الرجل ليريد الأمر فيقول : لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية ^(١) » .

وقد نقلت لنا الأحاديث التي دارت بين رسم ويزدجرد وبين الوفود التي حدثته عن الإسلام ، ورسمت له الدعوة آفاق الروح المسلمة وترامى هذه الآفاق في عالم ندى مخضّل تُظِلُّه المساواة وتحكمه العدالة وتسود فيه عبادة الله . . . ولقد تحدث النعمان

بن مُقَرَّن والمغيرة بن شعبة وأضرابهما أحاديث شائعة بارعة تملؤها الفطرة الصحيحة والنظرة المستقيمة . . . ويبدو أن الفرس لم يستطيعوا أن يدركوا ما كان من جديد في حياة العرب . . . كانوا دائماً يقيسون الحاضر على الماضي ويذكرون العرب أيامهم المجيدة وما لقوا من رعاية الفرس وعونهم ويغرونهم بالسكسب والمال والهدايا . . . وما دروا أن الأمر اليوم غيره بالأمس ، وعبثاً حاول أن يدهم رؤساء الوفود ومحدثوها على ذلك أو يلفتهم إليه . . . وقد انتهت القادسية بانتصار المسلمين هذا الانتصار الرائع الذي كسر كلَّ السدود من أمامهم فاندفعوا لا يقفون عند حد . . . استعادوا كل ما كانوا جَلَّوا عنه ، ومضوا ورائه . . . ربما كانوا يخشون بعض مقاومة الفرس ومغالبتهم أما بعد أن وفَّقوا هذا التوفيق العريض البعيد فقد كان عليهم أن ينساقوا ، في قوة وإدراك ، وراء هذه الإمبراطورية المولوية ، أن يحققوا دعوة الرسول وانتشار الإسلام ووراثته الأرض .

المرحلة الثانية — من القادسية إلى المدائن

فاذا عدَّونا القادسية في تتبع حركة الفتح وجدنا أننا في المرحلة الثالثة من مراحل هذه الحركة . . . كانت المرحلة الأولى تمسكيناً للمسلمين من العراق العربي وكانت المرحلة الثانية في عهد عمر حين غناه العراق وسيرَّ له الامداد ووَلَّى أمره أبا عبيد والمثنى ، ثم مات أبو عبيد واضطلع المثنى بالأمر كله حتى كانت ردة الفرس وثورة أهل السواد وموت المثنى .

أما القادسية فكانت هذه المعركة الفاصلة التي توجَّت المرحلة الثانية ، تولاها قائد جديد هو سعد ، وردَّت إلى المسلمين الأرض التي كانوا أصابوها ، واندفعت بهم في قوة وجراءة، ومكَّنت عندهم للشعور بالظفر فوق أنه مكين ، ونقلت اليهم ما كان في عسكر فارس من سلاح وكراع ومال . . . فكأنما وضعت في أيديهم كل ما كان ينقصهم من عُدَّة وانتزعته من أيدي أعدائهم .

ولا تمتاز المرحلة الثالثة بشيء إلا هذا الانهيار الذي سارت فيه الإمبراطورية الساسانية ، وليس في هذه الحركة هنا ما يلفتنا من وجه من وجوه الدراسة : جيوش

تتقدم وجيوش ترتد ، قوى تظفر وقوى تخسر^(١) ، ومعاقلة تنهار ومساجد المسلمين تقام^(٢) . . وأيام ومواقع تبدأ بعد القادسية فبابل ، فبهرسير ، فالمدائن ، فجلولاء ، فسكريت ، فالخصنين ، فاسبذان ، فقرقيسيا ، فتستر ، فالسوس ، فجدسبور ، فنهاوند ، التي كانت كما يلعبها المؤرخون المسلمون ، فتفتح الفتوح .

لقد استسلمت المدائن عاصمة الامبراطورية الساسانية والتجأ الأمباطور من مقاطعة إلى أخرى . . كان رؤساء المقاطعات يتولون التقاء المسلمين ومدافعهم ، وكانوا يقولون صلحهم وحربهم ، وانتهى الأمر بيزدجرد إلى أن قتل في مرو ذات يوم من أيام . . ومع مقتله كانت المقاومة الرسمية للحركة الإسلامية تنخبو وتخفت ، لتفسح المجال لمقاومات عنيدة في المقاطعات والأطراف .

القسم الثاني

موقف العراق من حركة الفتح

كيف كان موقف العراق من حركة التحرير هذه التي قادها خالد والمثنى وأبو عبيد وسعد . . وماذا كان ميول حكامه وأهليه وعربه وفلاحيه . . هل استجابت بعض الطبقات للفتاحين أم أصمت آذانها عنهم . . هل هناك من تلقى الفتح مرحباً به هاشأله أم كان السكان سواء في مناهضته ومقاومته والتأليب عليه . . كيف كان موقف عرب الضاحية من اخوانهم عرب البادية ، وكيف كان موقف الفلاحين الذين يملكون الأرض ويعملون فيها ، وماذا كان موقف الفرس الحاكمين . . أكان ذلك كله سواء ؟ وهل تميز موقف العرب بالمساعدة والعون . . أمهدوا للمسلمين المتقبلين الطريق يسلكونه ودلّوهم على الثغرات التي ينفذون منها أم انخرطوا مع الفرس يحاربونهم ويقومون دونهم . . أكان للفلاحين من ذلك موقف خاص ، ومن هم أولئك الذين قادوا هذه المقاومة العسيرة التي لقيها المسلمون وأججوا نارها ؟ . .

سنحاول فيما يلي أن نجيب عن ذلك كله وسندرس موقف الطبقات الثلاث من

(١) اقرأ الطبري ١/٥/٢٤٢ وما حول ذلك

(٢) اقرأ الطبري ١/٥/٢٨٩ عن مسجد أقامه المسلمون في المدائن .

حركة الفتح : موقف العرب من نحو ، وموقف الفلاحين « السكان الوطنيين » من نحو آخر ، وموقف الفرس من نحو ثالث . . فلعل ذلك أن يكشف لنا الغطاء عن سير حركة الفتح وعن استقرار المسلمين في هذه القطعة من الأرض ، ولعل ذلك أن يفسر لنا ماذا كان بعدُ من أحداث . . وسنرى حين تستبين لنا هذه المواقف ما كان بين فتح الشام وفتح العراق من فروق والتقاء .

١ - موقف العرب

لقد تعود المؤرخون المُحدثون حين يتحدّثون عن فتح العراق ، كما تعودوا ذلك في الحديث عن فتح الشام ، أن يسندوا إلى العرب المقيمين في الأطراف والمدن دورَ الشريك المسعف الذي لا يفتأ يؤدي لشريكه العون ويمد له اليد ، ويقيه بعض شر الحروب التي يقبل عليها والأعداء الذين يواجههم ، ولا يكاد يبعد مؤرخ من المؤرخين الشرقيين أو المستشرقين عن هذا الرأي أو يجانبه . . حتى خيل إلينا أن عرب الأطراف كانوا دائماً التُّكَّة التي اعتمد عليها المسلمون ، وأن للمساعدات القيمة التي قاموا بها يعود فضل هذه الفتوح المعجزة .

ولقد وقفنا في الحديث عن تحرير الشام وقفةً طويلة عند موقف العرب من حركة الفتوح ، وأبنا كيف أن كثيراً من المؤرخين لم يلمحوا كل جوانب الموضوع ، ولم يستقرئوا كل حوادث الفتح حين أسندوا إلى العرب الشاميين نصرة العرب الفاتحين المنطلقين من جزيرتهم بدينهم ودعوتهم وقرآنهم . . ويبدو أننا هنا ، في الحديث عن العراق ، مضطرون أن نقف كذلك مثل هذه الوقفة ، فنعرض لموقف عرب العراق من حركة خالد والمثنى ، وما كان عليه هذا الموقف . . أكان موقف ترحيب أم مقاومة ، ولم كان الترحيب أو كانت المقاومة . . أكانوا يولون وجههم الجزيرة حقاً ، أم كانوا يولون وجههم شطر فارس . وهل حنت الدماء إلى الدماء ، أم ساطتها العداوة وغلبت عليها البغضاء ؟ . إن ذلك يقضي علينا أن نسلسل حوادث

المرحلة الأولى — أعنى العراق العرابى — فى نطاقها التاريخى الذى مضت فيه حتى نكون على بينة :

من الواضح أن خطة أبى بكر حين دفع المسلمين إلى العراق تلخّصها رسالته إلى خالد : أن عارق حتى تلقى عياضاً ، ورسالته إلى عياض بن غنم وهو بين النجاش والحجاز : أن سِرّ حتى تأتى المصَيِّخ ، فابدأ بها ، ثم ادخل العراق من أعلاها وعارق حتى تلقى خالداً^(١) . . أعنى أن يدخل خالد العراق من أسفله ، ويأتيه عياض من أعلاه ، ثم يلتقيان فى الحيرة . فلنتتبع طريق خالد وما لقي ، وطريق عياض وما لقي ، ولنحاول أن نرى كيف كان لقاء العرب لهما فى هذه الطرق إلى الحيرة .

١ — موقف العرب فى طريق خالد إلى الحيرة :

تلخص الروايات المطولة قصّد خالد إلى الحيرة فى المواقع التالية :

١ — الحفير ، أو ذات السلاسل : وليس فى الروايات عنها ذكر للقبائل العربية .

٢ — المذار ، أو الثنى : وليس فى أخبارها ذكر للعرب .

٣ — الوجّة : أرسل أردشير بعد الهزيمتين السابقتين الأندَرَزَغَر ، وحُسِرَ إليه من بين الحيرة وكسكر — وكسكر مما بلى الوجّة من البر — من عرب الضاحية والدهاقين ، فعسكروا إلى جنب عسكره بالوجّة ، وسار إليهم خالد فاقتتلوا شديداً ، وكانت له الغلبة ، وأصاب فى أناس من بكر بن وائل ابناً لجابر بن بُجير ، وابناً لعبد الأسود^(٢) .

٤ — أَلَيْس : لما أصاب خالد يوم الوجّة من أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس غضب لهم نصارى قومهم ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى أَلَيْس وعليهم عبد الأسود العجلى ، وكان أشد الناس على أولئك النصارى مسامو بنى عجل : عُتَيْبَةُ بن النَّهَّاس وسَعِيد بن مُرَّة ونفر^(٣) . .

(٢) الطبرى ٢٠٢٩/٤/١ - ٢٠٣١

(١) الطبرى ٢٠٣٠/٤/١

(٣) الطبرى ٢٠٣٢/٤/١

وكتب أردشير إلى بهمن جاذوئيه أن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب ، فقدّم بهمن جابان ، ومضى هذا إلى أليس فنزل بها ، واجتمعت إليه المسالحي التي كانت يازاء العرب ، وعبد الأسود في نصارى العرب من بنى عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة ، وكان جابر ابن بجير نصرانياً ، فساند عبد الأسود .

وكان خالد بلغه تجمع عبد الأسود وجابر وزهير فيمن تأشّب إليهم ، فهدّ لهم ، ولا يشعر بدنوّ جابان ، وليس لخالد همه إلا من تجمع له من عرب الضاحية ونصاراهم ، فأقبل ... فلما طلع على جابان جعل على مُجَنَّبَتَيْهِ عبدَ الأسود وأبجر ، وخالد على تعبيته .. فاقتلوا قتالاً شديداً ، ثم إن الله عز وجل كشفهم للمسلمين ومنحهم أكتافهم^(١) .

٥ — أمغيشيا : لما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى أمغيشيا ، وقد أعجلهم عما فيها ، وقد جلا أهلها وتفرقوا في السواد ، فأمر بهدمها ، وكانت مضرّاً كالحيرة^(٢) .

٦ — الحيرة : ثم قصد خالد بعد يوم المقر وفم فرات بادقلى^(٣) إلى الحيرة^(٤) وأهلها متحصّنون فأحاطها بخيله ، وأمر بكل قصر رجلاً من قواده يحاصر أهله ويقاثلهم : فكان ضرار بن الازور محاصراً القصر الأبيض ، وفيه إياس بن قبيصة الطائي — وكان ضرار بن الخطاب محاصراً قصر العدسين وفيه عدى بن عدى المقتول — وكان ضرار بن مقرن المزني ، عاشر عشرة أخوة له ، محاصراً قصر بنى مازن وفيه ابن أكال — وكان المثنى محاصراً قصر ابن بُقَيْلَة وفيه عمرو بن عبد المسيح ، فدعّوهم وأجلّوهم يوماً ، فأتى أهل الحيرة ولجوا فناوشهم المسلمون ، ثم انتهى القتال

(٢) الطبرى ٢٠٣٦/٤/١ - ٢٠٣٧

(٤) الطبرى ٢٠٣٨/٤/١

(١) الطبرى ٢٠٣١/٤/١ - ٢٠٣٤

(٣) الطبرى ٢٠٣٧/٤/١

إلى الصلح^(١) على تسعين ومائة ألف درهم^(٢) .. وفي رواية لابن هشام السكبي^{بن} أن خالداً صالح أهل الحيرة على أن يكونوا له عيوناً ، ففعلوا^(٣) .

وقد كان استسلام الحيرة للمسلمين حادثاً كبيراً له أثره في نفوس السكان والدهاقين جميعاً . كانوا يحسبون أن في الأمر منجاة وأن هذا النصر الذي يحققه المسلمون لن يكون نصراً مؤقتاً . . وكانوا كما يقول الطبري « يتربصون بخالد وينظرون ما يصنع أهل الحيرة ، فلما استقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد واستقاموا له ، أتت الدهاقين فصالحوه على ما تحت أيديهم من أرضين^(٤) »

ولكن المقام لا يطمئن بخالد في الحيرة ، فقد حقق أحد شطري الخطة التي رسمها الخليفة الأول وبقى عليه أن يتنقذ عمل عياض حتى يحقق الشطر الأخير ، وحتى يتحقق له ما حدث به عبد الله بن وئيمة من أنى « إنما أريد أن أستفرغ المسالخ التي أمر بها عياض فنسكنها العرب فيأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم وتجيئنا العرب أمنة غير متعتة^(٥) »

من الواضح بعد هذا العرض أن موقف العرب لم يكن مسمفاً في حركة الفتح ولم يتجاوب عرب الضاحية مع عرب الجزيرة . . لم تتوهج فيهم حرارة الدم ولم تحرق عندهم نبضات القراية . وفي المعارك الأولى في الحفير والمذار لا نجد ذكراً للعرب لافي القيادة ولا في الجند ، ولا ندرى أكانت هذه الأرضين خالية منهم لا تنزلها قبائلهم أم أن القبائل التي تنزلها لم تكن ذات شأن كبير ... وبدأت المقاومة منذ كانت الوجلة ... ويقرن ذكر العرب في هذه المقاومة بذكر نصارى العرب كأننا أمام حقيقتين اثنتين .

(١) الطبري ٢٠٤١/١/٤ خلا خالد عند الصلح بأهل كل قصر منهم دون الآخرين وبدأ بأصحاب عدى ، فقال : ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ، أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ فقال عدى : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال لو كنتم كما تقول لم تحادونا وتكرهوا أمرنا ؟ فقال له عدى : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية ... الخ

(٢) الطبري ٢٠٤٤/٤/١ - ٢٠٤٥ في نص كتاب الصلح

(٣) الطبري ٢٠٢٠/٤/١ (٤) الطبري ٢٠٥٠/٤/١ وما حول ذلك

(٥) الطبري ٢٠٥٨/٤/١

أولاهما — أن موقف عرب العراق كان ضد عرب الفتح
والثانية — أن هؤلاء العرب الذين قاوموا وحاربوا وكتبوا الفرس وكتبهم
الفرس واجتمعوا بهم واتعدوا معهم وتأشبوا إليهم ، إنما كانوا ، أو أكثرهم ، من
العرب النصارى . . أتراه كان الدين أم كانت الرغبات ؟ . أكان نصارى العرب
يقاومون مخافة أن يشاركهم هؤلاء الوافدون الأرض والحياة والرزق ، أم كانوا يقاومون
لأن هنالك ديناً جديداً آمنت به الجزيرة فهو يوشك أن يُظْلَمَهم ويطويهم .
ربما كانت تتضح لنا الأمور على خير مما انضحت لنا لو أننا تتبعنا طريق خالد
بعد الحيرة حين مضى يتنقذ عياضاً في الشطر الأعلى من العراق .

٢ — موقف العرب في طريق خالد بعد الحيرة :

سنلخص عمل خالد في المواقع التالية :

١ — الأنبار^(١) : خرج خالد على تعبئته يريد الأنبار ، والأنبار مزيج من
العرب والعجم ، فتحصن أهلها ووُفِّق خالد إلى فتحها ومصالحة أهلها ومن حولهم من
أهل البوازيج وأهل كَلَوَاضَى .

والروايات تقول إنه لما اطمأن خالد بالأنبار والمسلمون ، وأمن أهل الأنبار
وظهروا ، رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمون ، فسألهم ما أنتم ؟ قالوا قوم من العرب
نزلنا إلى قوم قبلنا . فقال ممن تعلمتم السكتاب ؟ قالوا تعلمنا الخط من إياد .
وأنشدوه قول الشاعر :

قوى إياد لو أنهم أممٌ أو لو أقاموا فتهزل النعم

قوم لهم باحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم

٢ — عين التمر^(٢) : ولما فرغ من الأنبار واستحكمت له ، استخلف عليها
وقصد عين التمر . فلقى فيها جمعاً عظيماً من العجم عليهم مهران وجمعاً عظيماً من
العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لافهم عليهم عَقَّة . . ونزل عقة لخالد على

الطريق ، وعلى ميمنته بُحَيْر بن فلان أحد بني عبيد بن ^{سعيد} بن زهير ، وعلى ميسرته الهذيل بن عمران . . وكانت الغلبة لخالد وهرب بُحَيْر والهذيل واتبعهم المسمون وهرب مهران في جفده

٣ — دُومَة الجندل ^(١) : ومضى خالد من عين التمر بعد أن خَلَفَ عليها عُوَيْمَ ابن الكاهل الأسامي إلى دومة الجندل ، وبلغ أهلها مسيره إليهم ، فبعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكتب وغسان وتنوخ والضجاعم ، وقبل ماقد أتاها ودِيعَة ، في كَلْب وبَهْرَاء ، ومساندُه ابن وَبَرَة بن رُومانس ، وأتاها ابن الحذر جان في الضجاعم ، وابن الأيهم في طوائف من غَسَّان وتنوخ ، وكانوا أشجوا عياضاً وشَجُّوا به . . فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض ، واستطاع أن يقع بكل هؤلاء الأحلاف من العرب هزيمة ماحقة .

٤ — الحُصَيْد والخنافس والمُصَيِّخ والثَّني ^(٢) : وقد أثارَت هذه المواقع محاولة عرب الجزيرة الثَّارَ لَعَقَة ، وقد قتله خالد في عين التمر ، فتسكَّتوا مع الفرس وخرج الفرس بقيادة زَرْمِيز ومعه رُوزَبه وأعدا حُصَيْدًا والخنافس ، وانتظروا بالمسلمين اجتماع من كاتبهما من ربيعة ، وقد كانوا تسكَّتوا وأعدوا . . وخرج العرب فعمَّسَ الهذيل بن عمران بالمُصَيِّخ وربيعة بن بُحَيْر بالثَّني والبِشْر ، يريدان زَرْمِيز ورُوزَبه . . واسكن خالدًا ، بما عُرِفَ عنه من مبادهة ، لم ينتظر أن يلتئم هذا الجمع ، فقتل من العجم مقتلة عظيمة في الحُصَيْد ولم يلق كبير كيد في الخنافس ، وأغار على الهذيل بالمُصَيِّخ من ثلاثة أوجه ، وأفلت الهذيل مع ناس ، وبيَّتَ ربيعة بن بُحَيْر التغلبي ، وقد كان نزل الثَّني والبِشْر ، في خطة محكمة ، وعطف من البشر إلى الرضاب وبها هلال بن عَمَّة ، وقد ارفضَّ عنه أصحابه حين سمعوا بدنو خالد ، وانقشع عنها هلال فلم يلق كيداً .

(١) الطبري ٢٠٦٥/٤/١ - ٢٠٦٦ (٢) ٢٠٦٧/٤/١ - ٢٠٧٣

٥ - الفِراض^(١) : ثم قصد خالد بعد الرضاب وبغْتَتِه تغلب ، إلى الفِراض - وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة - فاجتمع له الروم والفرس والعرب : حميت الروم واغتازت واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس وقد حَمَوْا واغتازوا واستمدوا تغلب وإباداً والنمر فأمَدَوْهم ثم ناهدوا خالداً واقتتلوا بعد قتالا شديداً طويلاً حتى هزمهم الله . . وأقام خالد على الفِراض عشراً ، ثم أذن في الفغل إلى الحيرة . وهكذا استطاع خالد أن يحتل أعلى العراق ، وأن يستقم له مادون الحيرة وماعلاها من أطراف الفرات ، وأن يتنقذ عياضاً ويحقق الشطر الذي عجز عنه من خطة القيادة في المدينة . . وكان عمله هذا بين خروجه من الحيرة وعودته إليها سلسلة قاسية اتصلت فيها المعارك والأيام ونُظِمْنَ نظماً^(٢) .

هل نحتاج بعد هذا العرض المتتابع أن نقول شيئاً كثيراً نوضح به موقف عرب الضاحية في العراق من جيوش التحرير ؟ . إن يوماً من هذه الأيام في الأنبار أو في أليس أو في المصَيِّخ أو في الولجة لم يخلُ من مقاومة ولم تخل المقاومة من عرب . . بل لعل العرب هم الذين كانوا يحملون عبثها ويقومون بنصيبها ويجمعون الأحلاف والأنصار لها . . لم يكن خالد ليلقى الفرس وحدهم ولكنه كان يلقي العرب والفرس ، بل كان يلقي في هذه المواقع التي دارت على طرف الفرات الغربي مجاورة للبادية ، من العرب فوق ما يلقي من الفرس ، ولعل العرب كانوا يقاتلونه أحياناً وحدهم من دون الأعاجم كما في عين النمر .

وإنه ليستبين واضحاً من خلال هذا العرض أن عرب الضاحية هنا وقفوا في وجه عرب البادية : جمعوا لهم وجبهوهم وقَاتَلُوهم . . لم يهدوا لهم الطريق إلى العراق كما يذهب إلى ذلك كثير من المؤرخين حين يعدّون العوامل التي سهلت الفتح ولم يكونوا معهم إلّاباً على الفرس ، وإنما كانوا مع الفرس إلّاباً عليهم ، يستنزفون قواهم التي كان يجب أن تدخر لقتال الأعاجم . ولعل أقل ما كان من موقفهم أن

اضطروا خالداً إلى قضاء عام كامل فيما بين دخوله الحيرة وسيره إلى الشام يعالج عمل عياض في مناطق عربية كلها . . فأخروا سير الفتح وما كان دون فتح فارس شيء — إنها كما يقول خالد : لَسَنَةً كَأَنَّهَا سَنَةٌ نِسَاءً^(١) .

٣ — موقف عرب المدن :

ولم يكن عرب المدن خيراً من عرب البادية ، فقد حارب الحيريون وقتلوا ، وخذق الأنباريون وقاوموا على مثل ما حارب بنو عجل وتيم اللات وضُبَيْعَة في أَلَيْسَ ، وعلى مثل ما حاربت تغلب وإياد والنَّمِر في الفراض ، وعلى مثل ما حاربت بهراء وكنب وغسان وتنوخ والضجاعم في دُومَة الجندل . . وقد يكون في بعض أخبار الحيرة والأنبار بعض الطرافة من مثل ما حدثوا به من أن خالداً صالح أهل الحيرة على أن يكونوا عيوناً له^(٢) ، وأن أهل الأنبار حرصوا على أن ينتسبوا إلى العرب فوصلوا بين حاضرم وماضي الهجرات العربية إلى العراق وزعموا أنهم تعلموا الخط من إياد^(٣) . . . قد تكون هذه الأخبار وأمثالها من الأخبار الأخرى التي جاءت في حديث خالد مع أصحاب القصور في الحيرة حين جاء يتألفهم ويدعوهم ويسألهم ما تفعمون منا^(٤) ، قد يكون هذا هو الذي أوحى للمؤرخين بهذه الأوهام التي استقرت في التاريخ الإسلامي عن مساعدة عرب الضاحية للمسلمين المنطليين . والواقع أن هذه المساعدة لا تتضح ولا تستبين ، وإنما الذي يتضح ويستبين مقاومة متصلة مستمرة لا تسكاد نهزم في موقعة حتى تتجمع في موقعة ، ولا يكاد يهدّ خالد طرفاً منها حتى يفجأه طرف ، ولا يفرض حلفاً حتى يتشكل حلف .

٤ — ارتداد عرب العراق عن صلحهم :

وليس هذا الخسب بل إن هناك ما هو أبعد من ذلك وأعق دلالة على موقف عرب الضاحية في العراق بوجه عام ، مدناً وبوادي . فلم تكن غلبة خالد لهم ودعوتهم إلى الإسلام وصلحهم وعقودهم وتألفهم أول الأمر ، لم يكن شيء من ذلك ليحول بينهم وبين

(٢) الطبري ٢٠٢٠/٤/١

(٤) الطبري ٢٠٤١/٤/١

(١) الطبري ٢٠٥٦/٤/١

(٣) الطبري ٢٠٦١/٤/١

أن يرتدوا ، وأن ينتفضوا بالمسلمين . ولقد كانت تكون المقاومة ، أول حركة الفتح ، مقاومة لها مبرراتها ومعاذيرها في منطق الواقع ، من الجهل بطبيعتها والخطر من الفرس والخشية أن تكون المساندة للعرب طريقاً للاضطهاد والظلم .. ولكن كيف نفسر بعد ذلك حركة الارتداد الواسعة ، ونقض العهود المتصل ، والإخلال بكتب الصلح إخلالاً لم ينقطع ؟ . أكان يكون الأمر كذلك لو أن العرب وقفوا حقاً إلى جانب الفاتحين وكانت ميولهم معهم ..

لقد نقض أهل الحيرة عهدهم ثلاث مرات : صالحهم خالد في ربيع الأول من سنة ١٢ ، فلما كفر أهل السواد بعد موت أبي بكر استخفوا بالكتاب وضيعوه ، وكفروا فيمن كفر ، وغلب عليهم أهل فارس -- فلما افتتح المثنى المدينة ثانية أذلوا بذلك فلم يجبههم إليه وعاد بشرط آخر -- فلما غاب المثنى على البلاد كفروا فيمن كفر وأعانوا واستخفوا وأضاعوا الكتاب -- فلما افتتحها سعد وأذلوا بذلك سألهم واحداً من الشرطين ، فلم يجيبوا بهما ، فوضع عليهم وتحرى ما يرى أنهم مطيقون^(١) .

ولقد نقض أهل الأنبار كذلك عهدهم . لم تنفع عروبتهم المسلمين في شيء كالم تنفعهم عروبة الحيرة . لم يثبتوا على ما عاهدوا عليه ، وإنما نقضوا فيما كان يكون بين المسلمين والمشركون من الدول ، ووقفوا إلى جانب الفرس في كل حركات الإثارة والمقاومة .

لقد روى سيف عن عمرو عن الشعبي أن خالداً لما فتح الحيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يسلم فيهن ، ثم انصرف وقال : لقد قاتلت يوم مؤتة فانتقطع في يدي تسعة أسياف ، وما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليس^(٢) .. ثمانى ركعات متصلات !! أى تعبير نفسى عميق عن قسوة ما لقي خالد حتى لقي الحيرة من الجنوب ؟ . ترى ماذا فعل حين عاد إليها من الشمال ، وماذا كان يفعل لو أتيح له أن يصلى عقب عودته من تنقذ عياض وعمله في المصبيخ والبرشاء وهذه السلسلة الطويلة من الوقاعات ؟

٢ - موقف الفرس

بِمَ يتميز موقف الفرس من حركة الفتوح ؟

من الواضح أن موقف الفرس كان موقف مقاومة عنيفة قاسية ، ولقد رأينا في نظر حوادث الفتح أمثلة من قسوة المعارك التي كان يخوضها المسلمون .. كان هنالك قتال ضار في أكثر المواقع ، وكان هناك تفريق ومقاتل ، وسبي وأسارى ، وثورات وانتفاضات ؛ وقد استخدمت كل الأسلحة ، وجُنِّدت كل القوى ، وحشر الناس من كل ناحية في المعارك الفاصلة ، وبلى المسلمون هنا ما لم يبلوه في الشام ، حتى لقد كان وجه فارس أكره الوجوه إليهم^(١) ، وكان الخليفة يحملهم عليه ، ويدفعهم إليه ، ويعرضهم عن هذا الإكراه نصيباً من الخس^(٢) . غير أن هذه المقاومة لم تتخذ دائماً شكلاً واحداً : كانت مقاومة مشتركة فارسية - عربية في المرحلة الأولى حين كان خالد يخضع العراق العربي وما يتصل به من مناطق يسكنها الفرس .. وكانت مقاومة فارسية فحسب في المراحل التالية فيما بعد ، وإن لم تخل مع ذلك من انتفاضات العرب وخروجهم عن ذمة المسلمين .

١ - الحياة الداخلية للأسرة المالكة : ولقد لفتت الأسرة المالكة في فارس نظر المؤرخين ، ووجدوا لونها من الاضطراب يتمثل في كثرة الملوك المملكين والمخلوعين ، ثم ربطوا بين هذا الاضطراب في حياة الأسرة المالكة وبين امتداد الفتوح الإسلامية ، وجعلوا من ميسرات هذه الفتوح ، القلق الداخلي في حكومة الساسانيين .

وعلى أن اضطراب القصور ينعكس أثره في حياة الجماعة كلها ، إلا أننا نحسب أن نشير إلى أن مقاومة الفرس لم تنهر أو لم تنهقر تحت تأثير هذا العامل ، ولم يكن له هذا الأثر الكبير الذي يجب أن يوليه إياه بعض المؤرخين .. فقد كانت قيادة الجيوش لا تنى تعمل وتجنّد وتثير ، في حكم كل ملك طالبت مدته أو قصرت ، وكانت الجيوش تفصل وتقاوم وتسير دون أن يترك لها خلع الملوك أو تنصيبهم ظلاً

(١) الطبري ٢١٥٩/١/١ (٢) الطبري ٢١٨٨/٤/١ في تسيير بجيلة إلى العراق .

قويًا على حركتها^(١) . . كان الخلاف الداخلي لا يفسد الإجماع على قتال المسلمين ، ولا ينال من التساند عليه ، ولو كان له أثر كبير لسمعنا عن ثورات داخلية أو انتفاض مقاطعات ، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن ، وكل الذي كان ، إنما هو على النقيض ، استجابة لدسّ الدهاقين ، وثورة بالمسلمين ، وإخفاء لكتب الصالح ، وانتفاض متصل متكرر على كل ما كان من شروط وعهود .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا أن فترة الخلاف الداخلي لم تطل . . إنها لم ترافق كل حركة الفتح ، وإنما اتقى الفرس بعد ذلك على تنصيب يزدجرد والتفوا حوله واجتمعوا على معاينته ، وكانوا جميعاً يداً واحدة معه . ورواية شعيب عن سيف عن محمد وطاحه وزباد «أنهم ملّكوه واجتمعوا عليه ، واطمأنّ فارس واستوسقوا وتبارى الرؤساء في طاعته ومعوته^(٢)» . وقد كان تنصيب يزدجرد من قبل أن يمضى المسلمون في فتح العراق العجوى ومن قبل الصلة المباشرة بالأرض الفارسية .

وأخيراً نحب أن لا ننسى أن المؤرخين المسلمين قد لمحوا لحماً واضحاً هذا المعنى الذي يالغ عليه المحدثون من المؤرخين ، وكأنما أدركوا ما سيكون حوله من جدل ، وما يثير من نقاش ، ولذلك ذكروا بعد حديث الحيرة : « وكان أهل فارس يموت أردشير مختلفين في الملك ، مجتمعين على قتال خالد ، متساندين^(٣) » .

٢ — هل كانت الإمبراطورية هرمة : والمؤرخون الذين تحدّثوا عن الإمبراطورية الساسانية يذكرون أن الحركة الإسلامية صادفتها على حين عجز ، فقد جاءت بعد هذه الحروب المضنية المُنْهِيَةِ التي دارت بين الفرس والروم ، وأنها وجدت فراغاً فتمكّنت منه ، وأن الإمبراطورية كانت بلغت حدّاً من الهرم أو الشيخوخة جدير أن يتيح لها مثل هذا المصير الذي لقيته على يد الدعاة المسلمين .

وما من شيء أقرب إلى المغالطة وأبعد عن الصواب من هذا . فالإمبراطورية

(١) في الطبري ٢١٦٤/٤/١ بعد أن تحدّث عن تنصيب رستم : ودعت « بوران » مرازية فارس وكتبت له (رستم) : بأنك على حرب فارس ليس عليك إلا الله عز وجل عن رضا منا وتسليم لحكمك ، وحكمك جائز فيهم ما كان حكمك في منع أرضهم وجمعهم عن فرقهم . وتوجّهت وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا ، فدان له فارس بعد قدوم أبي عبيد .

(٢) الطبري ٢٢١٠/٤/١ (٣) الطبري ٢٠٥٤/٤/١

الساسانية لم تكن عاجزة ، بدليل من هذه المقاومة العنيفة التي استطاعت أن تجبه بها الجيوش الإسلامية ، ولم تكن هزيمة لأن أوشروان كان قبل عقود قليلة من السنين قد جدّد فتوتها وصقل عزمها ونفخ فيها من روح الحياة والشباب . وكان هناك هذا التوافق العجيب بين مولد الرسول صلوات الله عليه وحكم أوشروان كأنما هو الآية على أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لن تمضي في أرض سهلة ، وأن المقاومة قد جُنّدت لها منذ فتح صاحبها عليه الصلاة والسلام عينيه للضياء والنور ، ونحن نعرف أن إصلاحات أوشروان قد تناوت كل شيء : النظم المالية والنظم الإدارية والنظم العسكرية ، وأنها أتاحت للإمبراطورية فورة من النشاط لم يكن لها بها عهد من قبل .

٣ - مواقف خاصة : على أننا ونحن نحدّد موقف الفرس من الحركة الإسلامية ونحاول أن نبيّنه من وجوهها كلها ، لا نحب أن نغفل الإشارة إلى ما كان من موقف بعض الفرس أو بعض الدهاقين من موالاة . غير أن هذه الموالاة لم تكن كلها إخلاصاً ، كان بعضها مدارة ، كالذي فعل بعض الدهاقين في الأنبار حين أعانوا المثنى على أن يغير على سوق بغداد ونزلوا إليه فأتوه بالأغلاف والزاد وأتوه بالأدلاء^(١) . وكان موعده الإحسان إليهم إن استقام لهم من أمرهم ما يحبون^(٢) وكان بعضها اتقاء كالذي يدل عليه موقف أهل الحيرة في حديثهم مع رستم : « وأما أنا قويناهم بالأموال فإننا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا ، إذ لم تمنعونا مخافة أن نسبي وأن نحرب وتقتل مقاتلتنا ، وقد عجز منهم من لقيمهم منكم فكنا نحن أعجز ، ولعمري لأنتم أحب إلينا منهم وأحسن عندنا بلاء ، فامنعونا منهم نسكن لكم أعوانا ؛ فإنما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد من غلب^(٣) — وكان بعضها تجسّساً كالذي كان من أمر رجلين أترّا بالمثنى حين غزا السواد ، أحدهما أنباري والآخر حيري ، يدلّه كل واحد منهما على سوق ، فأما الأنباري فدله على الخنافس وأما الحيري فدله على بغداد^(٤) .

(٢) الطبري ٢٢٠٦/٤/١

(٤) الطبري ٢٢٠٣/٤/١

(١) الطبري ٢٢٠٣/٤/١

(٣) الطبري ٢٢٥٦/٥/١

وليس في كل هذه ما يُعتدُّ به ، فهي كلها نوع من الموالاة الحذرة التي لا تلبث أن تنقلب مع رياح النصر هنا أو هناك — وهي كلها كذلك ذات طابع فردى لا يمكن أن يتخذ دليلاً من روح الجماعة على كل روح الجماعة — وهي متفرقة موزعة في أيام الفتوح جميعاً فليست لها صفة الدلالة القوية . غير أن موقفاً واحداً يطالعنا به المؤرخون المسلمون ويدل على وجهات المستقبل الذي سيودي إليه الفرس ، موقف أشبه بالبذرة التي تحمل في جرمها الأصغر عالم الشجرة الأكبر بكل ظلالها وأغصانها وثمارها وندائها . . . ذلك موقف قلة قليلة من الفرس الذين استجابوا للدعوة : أسلموا وأسهموا في حركة الفتح في القادسية وكان لهم فضل إنقاذ الجيش من شر الفيلة ، فقد سألهم سعدٌ عن مقاتلتها فدلوها منها على المشافر والعيون وأنه لا ينتفع بها بعدها^(١) . . . وعلى أن هذا هو الموقف الوحيد الذي عرفنا في خلال أيام الفتح ، فنحن مدفوعون إلى أن نشير إليه ، حتى نكون على إحاطة واضحة بكل ما كان من قبل وما سيكون من أثر ذلك فيما بعد .

لقد كان موقف الفرس موقف مقاومة وكانت مقاومةً عنيدة لا تسلبها بعضُ الحوادث الفردية في إسلام بعض الفرس ومداراة بعض الدهاقين عن إخلاص أو نفاق — لو أنها وأثرها . . . والغلبة التي استطاع المسلمون أن يحققوها لم تستمد عناصرها من حياة الفرس الداخلية ، ولا من هوم الامبراطورية ، ولا من الخلاف حول تنصيب الملوك . . . وإنما استمدت عناصرها من حياة المسلمين الداخلية ، من قوة اندفاعهم وإيمانهم بالذي يحاربون من أجله وحرصهم على أن يشاركهم الناس نعمة هذا الإيمان الجديد واستيراثهم الأرض على أنهم عباد الله الصالحون . أما الأرض الفارسية فقد أمدت المسلمين بالصعوبات الصعبة ، وأما الحكومات الفارسية فقد وضعت في طريقهم الجيوش والعُدد والأسلحة التي لم يكن لهم بها عهد ، والفيلة التي أرهبتهم حتى تمسكوا منها ، والثورات التي أوقدوا نارها في السواد ، في عديد من المرات ، وتآليب العرب عليهم والاستعانة بهم في صدِّهم .

٣ - موقف السكان الأصليين : أهل السواد

تمهيد :

يمتاز موقف أهل السواد ، خلال حوادث الفتح ، عن موقف العرب أو الفرس ، وتبدوله بعض الطوائع التي يُعرف بها سواء في موقف هؤلاء السكان من حركة الفتح نفسها أو موقف أصحاب هذه الحركة منهم ورعايتهم لهم .

على أن الروايات التي نستطيع أن نتكئ عليها في التعرف إلى موقف هؤلاء السكان تقودنا إلى التفريق بين طبقتين اثنتين : الطبقة الأولى طبقة الفلاحين الذين ينتشرون على الأرض : يعملون فيها و يعيشون منها ، لا يبالون ماعدا ذلك من شئون الحياة ومن أمور السلم والحرب إلا بالقدر الذي يضمن لهم صلتهم بالأرض وحياتهم فوقها . . والطبقة الثانية طبقة الملاك أصحاب الإقطاعات الكبرى والدهاقين الذين يتولون في العراق وفارس عملاً إدارياً يقرب أن يكون الإشراف على الأرض ، وتطبيق نظم الدولة الإدارية والمالية ، وقد كان أغلب هؤلاء الدهاقين من كبار الملاك في القرية ، فلنقسم إذن هذه الطبقة ، بشيء من التجاوز والاصطلاح ، طبقة الدهاقين ولنحاول أن نتعرف كيف كان موقف كلٍّ من هاتين الطبقتين من الفتح الإسلامي ، أكانت نظرتهم إليه نظرة رضا أم نظرة سخط ، أم لم يكن هناك رضا ولا سخط ، وإنما هي المقادير تجري بالذي تهوى فلا يكون منهم إلا الإذعان ؟ ماذا كانوا يرون في المسلمين وهل أصغوا إليهم ومالوا نحوهم ، أم كان لهم ولاء لم ينحرفوا عنه ، وعهد لم يحاولوا التحلل منه ؟ . .

١ - طبقة الفلاحين : في حديث رستم مع أهل الحيرة أنهم قالوا له حين عاتبهم على موقفهم من الفتح بعد أن ثار السواد بالمسلمين : ولعمري لأنتم أحب إلينا منهم وأحسن عندنا بلاء فامنعونا منهم نكن لكم أعواناً فإنما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد لمن غلب ^(١) .

عبيد من غلب . . لعل هذه الجملة أن تكون أقرب ما قيل في تمثيل صلة هذه الطبقة بالأرض . فهذه الصلة العميقة التي تفوق كل صلات القرابة والنسب ، لأنها هي التي تصوغ القرابة والنسب ، جعلت منهم ومن الأرض جزءاً واحداً فهم لا يكادون ينفكون عنها ولا يحبون أن يغادروها . . وتمرّ من أرضهم هذه الجيوش ويخترقها الغزاة كما تمر السحابة في أرجاء السماء ، قد تحجب الشمس ولكنها لا تلبث أن تضيع ، وقد تمطر ولكنها لا تلبث أن تنقشع ، وقد تبعث السقيا والرحمة أو العذاب والأذى ولكنها على كل حال لا تدوم . . كذلك هؤلاء الفاتحون والغزاة من كل لون ، يمرون بهذه الأرض فيملأونها عدلاً أو جوراً ، ثم يذهبون وتبقى هذه الأرواح المتصلة التي تسع هذه الأرض بقلبها : تفيض عليها الأرض الحياة وتفيض هي على الأرض الحياة ، فتكون الحياة فيهما معاً نسجاً مشتركاً تختلط فيه اللحمة بالسدى ويمتزج فيه الخيط بالخيط في انسجام رائع ممكن .

هؤلاء الفلاحون لم يكن يعينهم من غلب على الأرض . . إن حبهم للأرض بلغ مبلغ العبودية لها ، ولذلك فهم يدارون هؤلاء الذين يملكون الأرض من فوقهم ما دامت الأرض ذاتها ، تربتها وخيرها ، في أيديهم . . فليس يعينهم أن يشوروا أو يرضوا ، أن يبتسموا أو يزوروا . . فإذا ابتسموا أو ازوروا فإنما ذلك بقدر : بقدر ما يكون هذا الامتزاج بالأرض والصلة بها قوة وضعفاً ، قرباً أو بعداً . .

ولذلك امتاز موقف هؤلاء الفلاحين في خلال حركات الفتح بما نسميه الحياد . . قد يكون شارك بعضهم في الدفاع أو انضم إلى الجند ، ولكنه لا يفعل ذلك مالكا للأرض أو فلاحاً عليها ، وإنما يفعله جندياً مرتزقاً أو مساقاً . . أما كثرتهم الكثيرة فقد كان اعتصامها بأرضها هو موقفها ، كانت مسألة قناعة ، واستطاعت أن تجد في سيرة العرب بالأرض أسس هذه المسألة والقناعة .

ولقد ظهر موقف الفلاحين بما امتاز به من الصلة بالأرض في بعض حوادث الفتح . كانوا إذا غار عليهم المسلمون نقبوا عليهم نقيباً منهم فوجهوا إلى خالد

أو المثنى أو غير خالد والمثنى من القواد ليصالح عنهم ويضمن السلامة لهم ويعتقد على الجزية منهم^(١). وفعلوه حين غلب العرب على العرب ، وحين غلب العرب على الفرس ورفعوا الراية البيضاء لهؤلاء وهؤلاء فالأمر عندهم سواء .

٢ — طبقة الدهاقين : في طبقة الدهاقين هذه ينطوى كل أصحاب السيطرة والنفوذ على اختلاف ألوان هذا النفوذ : سواء في ذلك النفوذ الإدارى الذى يستبد به الدهقان ، والنفوذ الإقطاعى الذى يستبد به كبار الملاك ، والنفوذ العسكرى الذى تمثله طبقات المقاتلة من أبناء البلاد .

وقد كانت هذه الطبقة هى التى تولت مقاومة الحركة الإسلامية ، ولعل هذا النفوذ الذى كانت تستمتع به أن يفسر لنا كل هدوئها وحركتها ، إقبالها وإدبارها ، وجهتها هنا أو وجهتها هناك . فقد حارب الدهاقين المسلمين فلما أقرهم المسلمون على بعض عملهم^(٢) ارتضوا حكمهم وتعاونوا معهم . وترك المسلمون الملاك الأرض أرضهم فأسلموا لهم قيادهم ، فلما أثارهم الفرس قبل القادسية وأطمعهم بالامارة وقالوا من سبق إلى الثورة فهو أمير ، ثاروا وانتقضوا^(٣) . إنهم كانوا يدورون مع الحفاظ على نفوذهم حركة وسكوناً ، مداراة بالصدقة أو مجاهرة بالعداوة ، وهم هم الذين كانوا ينفذون العهود وينقضونها ويؤكدون الموائيق ويفسدونها ، وهم الذين ثاروا على المثنى بعد خالد ، وعلى سعد بعد المثنى ، وعوقوا — مع العرب النصارى — حركة الفتح هذا التعويق واضطروا المسلمين إلى هذه المعارك الكبرى قبل أن يغلبوا على السواد . من هذه الطبقة كانت طبقة المقاتلة ، هذه التى كانت تؤلف ركناً من أركان

(١) الطبرى ٢٠٥١/٤/١ فى كتاب خالد لزايد بن بهيش وصوليا بن نسطونا . وأتم ضامنون لمن نقيم من أهل البهقياذ الأسفل والأوسط . أو وأتم ضامنون حرب من نقيم عليه .

(٢) الطبرى

(٣) الطبرى ٢١٦٧/٤/١ ولت حربها فارس رسم عشر سنين وملسكوه . . فكانت أهل السواد ودى إليهم الرؤساء فثاروا بالمسلمين وكان عهد إلى القوم أن الأمير عليكم أول من ثار . فثار جباب في فرات بادقلى وثار الناس بعده وأررز المسلمون إلى المثنى بالخير .

الجيش الفارسي المقاوم ، ولا يخرج دفاع هذه الطبقة المقاتلة عن أن يكون عملاً مأجوراً ، وقد كان موقف المسلمين منها موقف المحارب من المحارب إذ يغلبه على أمره ، يستأسره ويسبي ذراريه . . لم تقف موقف الفلاحين المسالم ولم يكن في وسعها أن تدور مع نفوذها ومصالحها استعقالاتاً واستسلاماً كما كان موقف الدهاقين وكبار الملاك ، ذلك لأنه لن يكون لها مكان في المجتمع الإسلامي الجديد : يبقى الفلاحون في أرضهم ويقر المسلمون بعض الدهاقين على بعض عملهم ، ويخْلَوْنَ بين كبار الملاك وأملاكهم . ولكنهم لا يستطيعون أن يستخدموا هذه الطبقة المقاتلة في جيشهم إذ لا يقوم الجيش عندهم على الأجر ولا ينضم إليه غير الذين يشاركونه إيمانه وعقيدته . . ومن هنا كان تفرد طبقة المقاتلة من بين كل السكان الأصليين بهذا الموقف ، ومن هنا كان حرجهم . . فهم بين الإسلام والجزية ، ولن يجدوا مكاناً في الحياة الإسلامية الجديدة يلتئم مع ما كان لهم أو يعوضهم عما كانوا فيه . . أفلا يفسر ذلك إصرارهم واستبسالهم ؟ .

* * *

ذلك هو موقف الطبقات الثلاث التي كانت تؤلف مجتمع العراق العربي والفارسي : طبقة العرب وطبقة الفرس وطبقة أهل السواد . . كان لكل طبقة موقفها الذي تمليه عليها ظروفها وحاجاتها ، وتطلعاتها واعتقاداتها ، ومطامحها وأهواؤها ، واطمئنانها وقلقها . . لم يكن هناك مصدر واحد تصدر عنه ، ولا عقيدة مشتركة تجمع شتاتها ، ولا مُثُلٌ موحدة ترجع إليها . . كان هناك هذا التنافر في كل ألوان الحياة وطرائق العيش واتجاهات العقيدة ومناهج التفكير ، وكان هناك هذا التباين في اللغة والمذهب والدين والوجهة . . ولذلك لم يستطع أصحابه أن يدافعوا عنه وأن يصمدوا في الدفاع على شدة الجهد الذي بذلوا والحشد الذي حشدوا . . كان أمام هذا المجتمع المتخلكل مجتمعٌ جديدٌ : يفزوه ، موحد الرأي ، موحد العقيدة ، شجاع القلب ، تستهويه غاية واحدة ويؤلف بينه نظام واحد . . ولذلك قدر لهذا المجتمع الجديد أن تسكون له الغلبة والفوز وأن يتفشى في المجتمع القديم وأن يطويه .

الفصل الثالث

فتوح مصر وبرقة وطرابلس الغرب وبلاد النوبة

القسم الأول

البواعث والأهداف

١ - الباعث النفسى : حين خرجت الجماعة الإسلامية من الجزيرة خرجت داعيةً يملؤها هذا الحماس الذى يوج فى صدور الدعاة ويتدفق فى أعماقهم ، ويزدهيها أن تشاركها الأمم من حولها عقيدتها أو تحقق سلطانها عليها . . وتمكّن لها هذه الدعوة من أن تستشرف أفقاً بعد أفق وتجاوز قطراً إلى قطر . . فهى لا تكاد تلامس الشام فى مؤنة وتبوك حتى تتجه إلى العراق ، فإذا انتشرت فى العراق العربى عادت إلى الشام تجوز سهوله وحزونه وتضرب فى شماله وجنوبه ، حتى إذا وجدت أنها استوفت حدّ الجزيرة الرابع الذى تضره أنهارُ الهلال الخصيب فى الشمال الشرقى والشمال الغربى ، وأنها ضربت فيما وراء ذلك - اندفعت وراء هدف آخر قد يبدو جديداً ولكنه لا يعدو فى الواقع أن يكون صلةً متصلةً لما فى نفس الجماعة ولما فى حركتها : لما فى نفسها من حق الدعوة من نحو ، ولما فى حركتها ، وقد أضحت حركة امتداد عريضة ، من اتجاه وتطلع .

٢ - الباعث الواقعى : وكذلك كان طبيعياً أن تتجه الموجة الإسلامية نحو مصر ، فقد مُسكّن لها من الشام ، ومن جنوب الشام بوجه خاص ، والتاريخ يعلمنا أن الصلات بين مصر وبين هذه المناطق صلات لا نعرف الانقطاع ، وأنه لا تكاد تقوم دولة قوية هنا أو هناك حتى تبادر فتنتشر ظلالها وتبسط سلطانها على القطر الآخر . . فمنة دائماً هذا التجاوب المتصل بين هاتين الشقّتين من الأرض ، بل إن تاريخ هذا الجانب كله من البحر الأبيض المتوسط يوشك أن يكون عرضاً لتبادل هذا التأثير وتعاور هذه السيطرة . . ومنذ أدهار طويلة سلك المكسوس ، هؤلاء الأسوياء بين الغرباء ، صحراء سيناء فتمثلوا فى تاريخ مصر الأسرة الخامسة عشرة

والسادسة عشرة . حتى إذا كانت الأسرة الثامنة عشرة بعد ذلك قويةً نضرة ، كان أول ما فعلته أنها اتجهت نحو فتح سورية ، فلم يجاوز عملها أن يكون تعبيراً عن رد الفعل لحركة المكسوس ، واستطاعت مصر أن تبلغ هذا الفتح وأن تجعل منه درعاً الذي يقبها شر الغزوات الآسيوية مرة أخرى . . بل أن تحتبس الأول مضي يسبع هذه الدروع ضافية الذيل حتى بلغ شاطئ الفرات وجهر أن هذا الشاطئ هو الحد الشرقي لمصر ، وسجل ذلك فيما سجل من نقوش جدران معبد الكرنك ، وأقام نصباً لذلك على إحدى ضفتي الفرات كأنه الحارس المسلح .

ونستطيع أن نتبع هذه الصلات التي أظلت مصر والشام في مراحل التاريخ كلها حتى نصل بها إلى حركة محمد علي في العصر الحديث . . ولما تنقته بعد . . ولكن حسبنا هنا أن اتجاه الحركة الإسلامية نحو مصر لم يكن بدعاً من الأمر : كانت أصوله النفسية في حياة الجماعة ، وكانت أصوله الواقعية في حياة هذه الرقعة من الأرض ، ولذلك لن نعجب أن يكون أول ما فعل عمرو بعد أن فُضت المقاومة في فلسطين باستسلام القدس أن يتحدث إلى الخليفة الثاني هذا الحديث المتطلع نحو الحدود الجنوبية عبر صحراء سيناء .

٣ — الصلات بين مصر وبلاد العرب : ليس هذا فحسب ، ليس الأمر هذا المتطلع النفسى الذى يثيره حق الدعوة في نفوس أصحابها ، ولا هذه الصلات الواقعية بين مصر والشام . . وإنما هناك ما هو أبعد من ذلك ، هناك هذه الصلات بين مصر وبلاد العرب نفسها : شمالها وجنوبها . . فلم تسكن هذه البلاد غريبة عن المصريين مجهولة منهم ، ولم تسكن مصر غريبة عن عرب الحجاز أو عرب اليمن ولا بعيدة منهم كانت دائماً هذه الصلات القائمة والمتبادلة ، ومن الخداع أن تتوهم أن صحراء مصر الشرقية أو البحر الأحمر أحاطا مصر بهذه العزلة القاسية وحالا بينها وبين جيرانها . فقد كان هناك هذان الجسران العريضان المهددان اللذان حققا لمصر وبلاد العرب ألواناً من المشاركة والانصال : الجسر البرى ممثلاً في صحراء سيناء ، والجسر البحرى ممثلاً في البحر الأحمر والطرق التي تلاقى ما بينه وبين النيل .

١ — فأما عن الصلات البرية فقد كان تقدم الهكسوس نحو مصر من قبل وتمدد المصريين إلى حدود الفرات من بعد تعبيراً عنها ، واسكن هل كان هذا اللون من التوسع الحربى أبعد هذه الصلات إيفالاً فى الزمن ؟ من المؤكد أننا نستطيع الجواب بالنفى ، وأننا نملك القول بأنه قد سبقه دور سلمى تبادل فيه المصريون والعرب ألواناً من التأثير قبل أن تتفتح فى نفوسهم شهوة الغزو ، واشتبكت بينهم وشائج وعلائق ربما كانت التجارة أوضح مظاهرها . ويجب أن لا ننسى بعد أن المصريين تغلغلوا فى سيناء منذ حين يهدفون إلى استغلال مناجم النحاس فيها وأن سيناء أصبحت بعد ذلك المصدر الرئيسى الأول الذى يمد مصر بالنحاس ، هذا المعدن الذى كان ذا أهمية كبرى لها ، وأقدم النقوش التى تدل على علاقة مصر وسيناء فى استثمار مناجم النحاس لتعود إلى الأسرة التاسعة عشرة ، وما من شك فى أن البحث عن النحاس فى سيناء يستدعى حتماً أشد الصلات وأقواها بالبلاد العربية ، فسكان سيناء عرب ساميون من نحو ، والطرق التى تمتد فى سيناء تنتهى دائماً فى صميم البلاد العربية ، تنتهى إلى الحجاز فى الشمال وإلى بلاد اليمن فى الجنوب ، وقد كان من مهمة هذه الطرق أن تحمل عوامل التأثير والتأثير . فإذا ذكرنا هذه الطرق ونحن نتحدث عن تدفق الموجة الإسلامية فى مصر عبر سيناء مرة أخرى ، كان إدراكنا لهذه الحركة الأخيرة أكثر وضوحاً وأقوى تمسكنا

ب — وإذا كانت سيناء ، هذا الجسر البرى ، قد حققت الصلات بين مصر وبلاد العرب الشمالية بوجه خاص فإن البحر الأحمر قد حقق هذه الصلات بين مصر وبلاد العرب الجنوبية ، وقد اقتضرت هذه الصلات هنا على أن تكون صلات سلمية لا تتجاوز التجارة إلى شىء عداها ، فالبضائع التى كانت ترد من آسيا وتجتاز البحر الأحمر كانت تجدد فى النيل قيمة طريقها إلى البحر ، وكان النقل النيلى أكثر ازدهاراً مما يبدو لنا اليوم ، وكان الطريق بين القصير على البحر الأحمر وبين قفط ، حيث يبلغ النيل أقصى انحناءاته إلى الشرق ، يزخر بالحركة والنشاط وينثال فيه جزء كبير من التجارة العالمية البحرية التى تجوز هذه المرحلة من البحر فى يسر واطمئنان

على أن هذه الصلات تتمثل أشد ما يكون التمثل من بين عروض التجارة كلها بالبخور. فمن الواضح أن بلاد العرب الجنوبية كانت هي مصدر البخور مدة طويلة أول الأمر ، وكانت طريقه حين يأتي من الهند وغيرها بعد ذلك . ومن الواضح أيضاً أن البخور كان مادة أساسية في الحياة المصرية ، لأن هذه الحياة كانت حياة دينية كأشد ما تكون صلة الحياة بشعائر الدين ، وكانت المراسم في الحفلات والأعياد ، والعادات في الجنائز والتحنيط ، والطقوس في الصلوات والمعابد — تعتمد على البخور اعتماداً كبيراً ، حتى ليقول « أوليري »^(١) : « إن استعمال البخور في الشعائر الدينية كان سمة بارزة جداً من سمات الحضارة المصرية حتى إنك لا تجد هذا الاستعمال شائعاً في أى بلد آخر وفي أى زمن من الأزمان إلا ويمكنك أن تردّه في أصله إلى مصر ردّاً مباشراً أو غير مباشر » .

وإذن فإن لنا أن نقطع بقيام هذه الصلات بين مصر وجنوبي بلاد العرب ، وأن نتجاوز ذلك فنصف هذه الصلات بأنها قوية مكينة . . ومن يدرى فلعل من وثاقها أن يكون المصريون ، أو أن يكون سكان الرافدين ، هم الذين تولوا منشآت الرى في اليمن ، لأن هذه المنشآت تعود بطبيعتها إلى الحضارات في أحواض الأنهار . . ومن يدرى أيضاً فلعل من ذلك أن نفسّر لم كانت كثرة من القبائل التي استقرت في مصر عقب الفتح من القبائل العربية الجنوبية .

ح — ولم يفت المؤرخين أن يلمحوا هذه الصلات بين مصر وبلاد العرب بوجه عام . فيحدثنا سترابون عن مدينة قفط أنها مدينة نصف عربية ، ويحدثنا المؤرخون الإسلاميون عن طائفة من رجالات العرب كالمغيرة بن شعبة وعثمان بن عفان^(٢) زاروا مصر للتجارة في الجاهلية ... ولكنهم عبّروا عن ذلك في هذا الشكل القصصى الذي نلمحه في رواية ابن عبد الحكم عن معرفة عمرو بن العاص بمصر في الجاهلية وعن رحلته إلى الإسكندرية مع أحد الشامسة الذين لقيهم في القدس وكان أنقذه

(١) أوليري — بلاد العرب قبل الإسلام .

(٢) السكندى ٦ - ٧

من العطش مرة ومن حية عظيمة مرة أخرى ، فأراد أن يكافأه فدلّه على مصر وقاده إلى الإسكندرية ، وشهد فيها عمرو عيداً عظيماً من أعيادها « يجتمع فيه ملوكهم وأشرافيهم ولهم أكرّة من ذهب مكلّلة يتراعى بها ملوكهم وهم يلقونها بأكمامهم ، وفيما اختبروا من تلك الأكرّة ، على ما وصفها من مضيّ منهم ، أنها من وقعت الأكرّة في كفه واستقرّت فيه لم يمّت حتى يملكهم .. فلما جالس عمرو مع الناس في ذلك المجلس أقبلت السكر تهوى حتى وقعت في كم عمرو^(١) .
ومهما يكن من شيء فإن اتجاه المسلمين إلى مصر لم يكن ظاهرة جديدة مجردة عن أصولها في أعماق الماضي القريب والبعيد .

٤ — الضرورات الحربية : وقد حثّت الضرورات الحربية كذلك أن يتقدم المسلمون نحو مصر . ذلك أن الحركة الإسلامية تشبه أن تكون قد نفذت في هيكل الدولة البيزنطية كما ينفذ الإسفين الضخم .. جاءتها من رواء ، من الصحراء فشطرتها حين استولت على سورية إلى شطرين : الامبراطورية الأمّ في آسيا الصغرى وما وراءها — والولايات التابعة لها : مصر وما وراءها في إفريقيا . ولم يعد هناك ما يصل بين أجزاء هذه الامبراطورية إلّا البحر ، وسيلعب هذا البحر دوراً هاماً بعد في محاولة استنقاذ الإمبراطورية فيما فعل البيزنطيون ، وفي محاولة تصفية هذه الامبراطورية فيما فعل المسلمون . فكلّ الفريقين ركب البحر ليعلو خصمه ، وليس هنا أو أن تفصيل القول في هذه الناحية . وإنما أردت الإشارة إلى أن الدولة الإسلامية كان يجب لها ، بعد أن بلغت الحدود الجبلية في طوروس في الشمال وهي تطارد البيزنطيين ، أن تحاول القضاء عليهم في هذه الولايات الجنوبية . وليست هذه الولايات الجنوبية ذات أهمية ثانوية حتى يدعها المسلمون تذوى وحدها ، ولم تكن مستعمرات نخسب ، وليكنها كانت أجزاء من جسم الامبراطورية ، وكان فيها حاميات وجاليات ، ومسالح ومراكز ، وكان كثير من المدن فيها قد اصططبغ بالصبغة

(١) ابن عبد الحكم « ماسبه » ٤٩ — ٥٠ .

الهيكلية واندماج في مظاهر حياتها . بل إن هذه الولايات لعبت في استنقاذ الإمبراطورية من براثن الغزو الفارسي دوراً كبيراً . ولعلنا لا ننسى هنا أن حركة هرقل ، وقد كانت ازدهاراً لبيزنطة وبقظة من يقظاتها ، بدأت في إفريقية وأن الجيوش سارت من هنا فتجاوزت مصر ، بعضها مساحلة وبعضها مبحرة حتى بلغت القسطنطينية . فإذا أولى المسلمون مصرَ هذا الاهتمام منذ أن كتبوا عقد الصلح لأهل بيت المقدس ، وإذا كان عمرو قد استأذن عمرَ بالانسياح فيها ، فإن ذلك اتجاهٌ تقتضيه طبيعة الحركة الإسلامية منذ آل الأمر بينها وبين البلاد التي ذهبت تدعو فيها — إلى حروب ومواقع . ولمصر في هذه المواقع دور رئيسي بما هي متصلة بالشام من نحو ، ومطلّة على الحجاز من نحو آخر ، وبما هي مفتاح لما وراءها من إفريقية الشمالية من نحو ثالث .. وقد يرتدّ الروم على سورية وقد يهاجمون الحجاز نفسه من مصر يثدّون الحركة العربية في منابعها الأولى ، وسيفيدون دون ما شك من الإسكندرية ، هذه العمارة البحرية الهائلة ، ومن الطرق النيلية ، فلاغنى للمسلمين أن يحرموا أعداءهم من كل هذه المميزات وأن يستمتعوا هم بها حتى تكون لهم المبادأة والغلبة .

لقد كان ترك مصر ، هذه الولاية البيزنطية التي كانت تمد بيزنطة بالميرة والخير ، ومن ورائها هذه الولايات الأخرى التي كانت تمد بيزنطة بالجيوش والجند — خطراً على حياة الدولة الإسلامية الناشئة . وكان تنبه عمرو إلى ذلك والقفاته إليه ، في جملة أو في تفصيله ، عبقرية رائعة ، فهذه الدولة مضطرة أن تتجنب هذا الخطر وكان لا يسعها أن تتجنبه إلا أن تواجهه . فاذا ذكرنا تسلسل حوادث الفتح في الشام ، وأدركنا أن جموع الروم الذين هزمتهم المعارك أو حتمهم عقود الصلح لجأت كثيرتهم الكثيرة إلى مصر ، سواء بعد معركة وادي عربة أو بعد صلح بيت المقدس ، كما كانت قد لجأت من قبل في حوادث الفتح الفارسي ، مؤملة أن تنقذ هذه المرة كما أنقذت من قبل ، وأن المؤرخين ينصّون على أن ارطوبون « اربطيون » قائد حامية

بيت المقدس قد لجأ^(١) إلى مصر وأنه كان سيسعى للانقضاض لاشك . . إذا ذكرنا هذا كله أدر كنا أن تدفق المسلمين عبر العريش في طريق الحرب هذه « التي سار فيها قميز وأنطيوخس أبيقانس والإسكندر الأكبر^(٢) » لم يكن شيئاً إداً، وإنما كان تكملةً لما فعل المسلمون إذ بسطوا ظلالهم على بلاد الشام .

٥ — خيرات مصر: ولم يغيب عن بال المسلمين ما كانت تنعم به مصر من غنى . فقد كانت أحد أقطار الدنيا الأليقة ، وكانت في صدر هذا العالم القديم كالدرّة المضيئة ، وما من شك في أن العرب كانوا يتحدثون عنها حين تخلو بهم أسماهم ، أو تصفو لهم مجالسهم ، وكانوا يعرفون ما تغل أرضها من الثروة ، وما تستمتع به من خصب ، وأنها كانت أهراء القسطنطينية ومصدر كثير من تموينها وامدادها . . ولذلك ليس بعيداً أن تكون قد التعت أطراف ضاحكة من هذه الدنيا السحرية في ضماثرهم ، وداعتهم من عوالمها الخيرة صور ، وتمثلت لهم هذه الأرض ، وقد دانت بمثل ما يدينون به وانقادت لهم ، فوجدوا في انقيادها ما يتقوون به على غاياتهم التي كانت تنسج أمامهم يوماً بعد يوم ، وقطراً بعد قطر . . ولذلك كان من تحريض عمرو بن العاص عمر على فتحها قوله : « إن فتحها كانت قوة المسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً^(٣) » .

وكذلك نرى أن جملة كبيرة من البواعث كانت تسكن وراء انطلاق المسلمين إلى مصر وتخليقهم الشام وراء ظهورهم : كان هناك هذا الباعث النفسى فيما عمر قلوبهم من عقيدة — وهذا الباعث الواقعى من صلة ما بين مصر والشام — وهذه الصلات فيما بين الجزيرة ومصر — وكان وراء ذلك هذه الضرورات الحربية التي تريد أن تحمى

(١) الطبرى ١/٥/٢٤٠٤ « ذلك أن أرطوبون والتذارق لحقا بمصر مقدم عمر الجالية »

(٢) بتلر فتح العرب لمصر ٦٣

(٣) ابن عبد الحكم « ماسبه » ٥١

ظهور المسلمين ، وتعقب فلول الإمبراطورية — وهذه الصورة الضاحكة التي كانت تكسو معالم مصر وتجعل منها جنة من ^(١)^(٢) جنان الدنيا .

القسم الثاني

حركة الفتوح

لم تترك لنا الروايات التاريخية من الحديث عن فتح مصر كثرة من التفاصيل كالتي تركت لنا من الحديث عن تحرير العراق والشام . ولعل سهولة الفتح سهولة نسبية أثراً في ذلك ، غير أن القدر الذي بين أيدينا يشارك أقدار الأقطار الأخرى في اضطرابه وتعقده ، وفي تشابكه وتداخله حيناً ، وتضاربه وانقسامه حيناً آخر ، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نوجز تقدم الجيوش الإسلامية في المراحل التالية :

١ — العريش : يختلف المؤرخون بين أن يكون عمر بن الخطاب هو الذي أمر عمرًا بالمسير إلى مصر وانتداب الناس إلى هذا الوجه ، وبين أن يكون عمرو هو الذي حَبَّب هذا الوجه إلى عمر وحرَّضه عليه — ثم يختلفون بين أن يكون عمرو بن العاص

(١) ابن عبد الحكم ص ٤ : من حديث عمرو بن العاص : « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتثمر ثمارها » .
(٢) يجعل بعض المؤلفين المحدثين (فيليب حتى ص ٢١٥) من بواعث الاندفاع نحو مصر باعثاً شخصياً عند عمرو بن العاص وأنه أراد أن يباري زميله خالد في تدويع الأمصار ، وأنه كان قد دخل مصر في الجاهلية وعرف مدنها وقراها ... ولكن الارتداد بهذه الحركة الحربية البارعة إلى الباعث الشخصي في المباراة يبدو تنبهاً تنقصه الدقة ، وتعوّره الحقيقة معاً ... هذا إلى أن فتح مصر كان في خلافة عمر ومن البداهة الأولى أن أول ما فعل عمر أن عزل خالد بن الوليد عن قيادة جند الشام وولى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، وكان ذلك نهاية مجد خالد الحربي وآخر صفحات انتصاراته المعجزة ، إذ غادر الميادين ليوت على فراشه والألم ينهشه ... فما من سبيل إلى أن تقوم المباراة بين قائد اعتزل حياته العملية وبين قائد آخر يخوض الحياة ويمارس مهماتها ... والروايات التي نعرفها عن الحركة الإسلامية لاتدلنا على نوع من الخصومة بين خالد وبين عمرو ، لا في الجاهلية ولا في الإسلام ... صحيح إن هنالك هذا الخلاف بين خالد وبين عمر في النهج ، أما بين خالد وعمرو فلا .. والمؤرخ الذي ينظر نظرة جادة جدير أن يضع الأمور في مواضعها ، وأن يستنبطها من مظانها التي تكون فيها ، فلا يبتدع البواعث ابتداءً ولا يجعل من شيء مفقود شيئاً موجوداً ، ولا يردّ حركة خطيرة تتعاون عليها عشرات البواعث إلى باعث شخصي صغير ليس له أصل ممكن .

استأذن عمر قبل أن يتقدم أو بعد تقدمه — ويمضون يختلفون في ردّ عمر بين أن يكون تردّد وتخوّف أو جزم وأذن^(١) أو أحال عمراً إلى كتاب سريع سيأتيه منه بعد ، وهي إحالة غريبة سيكون فيها : « إن أدركك كتابي أمرك بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستمعن بالله واستنصره . . » وان الكتاب « أدرك عمراً برّفح فتخوّف إن هو فتحه أن يجد فيه الانصراف ، فدافع الرسول حتى نزل قرية بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل إنها من أرض مصر . فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، فقال عمرو لمن معه : أستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ، قالوا : بلى . قال فإن أمير المؤمنين عهد إلى وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر . . فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه^(٢) . »

وقد سار عمرو في خطواته الأولى إلى العريش فاحتلها أواخر سنة ٦٣٩ ، في ديسمبر « كانون الأول » ، (١٩ هـ) . ثم مضى في هذه الطريق التي كانت لاتزال آثار أقدام الفرس في غزاتهم لمصر سنة ٦١٦ عالقة بها ، والتي كانت تحمل من قبل كل آثار الفاتحين والمهاجرين ، والتجار والحجاج ، وكتائب الجند وقوافل العرّوض ، والتي شهدت مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقبيل وأسرة المسيح^(٣) .

٢ — الفرما : واتجه عمرو من العريش إلى الفرما^(٤) ، في طريق لا يخالف في كثير عن هذه الطريق التي يعرفها العرب في بلادهم فهو « قطعة من الصحراء تتخللها قرى وعيون^(٥) » حتى إذا بلغها لقي مقاومة الروم ، وامتدت المقاصمة شهراً

(١) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥١ (٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥١ - ٥٢

(٣) بتلر فتح العرب لمصر ١٨٥

(٤) الفرما (بلوزم في اليونانية وپرمون في القبطية) على نهد من الأرض على نحو ميل ونصف من البحر الأبيض المتوسط ، شرق بور سعيد ، كان يصب قربها فرع النيل البلوزي ، قوية الحصون كثيرة الآثار عديدة السكتائس والأديرة بتلر ١٨٦ كاشف ١١

(٥) بتلر ١٨٥

أو شهرين فقد كان الجند يعتصمون بمحصونهم ، ويبدو كأن العرب قد سبقوهم إلى هذه الحصون ذات مرة فتمّ لهم احتلال المدينة في أواسط يناير من سنة ٦٤٠ م (١٩ هـ) . وباحتلال الفرما وضع المسلمون يدهم على رصّد مصر ، فقد كانت هذه المدينة مفتاح مصر من الشرق ومدخلها ، كما استطاعوا أن يضمّنوا لأنفسهم القاعدة التي يتقدمون منها إن أتيح لهم التقدم ، ويتراجعون إليها لو أكرهوا على التراجع ، ويتلقون الأمداد عن طريقها حين يمدّم الخليفة .

٣ — بلييس : واتجه المسلمون إلى بلييس في الشمال الشرقي من القاهرة ، وأحست القوات المدافعة أنها ليست أمام غارة كهذه الغارات البدوية التي لا تلبث أن ترتد بعد أن تغير ، وإنما هي أمام جيش منظم وحركة لها وراءها جذور بعيدة في الشام والحجاز . فأدار القتال أربطيون — كما يظن بتلر^(١) — الذي كان حاكم القدس وتمت للمسلمين الغلبة على المدينة .

٤ — بابلينون : وكانت الخطوة التالية التقدّم نحو حصن بابلينون حيث تعتصم قوات الروم بقيادة ثيودورس ورئاسة المقوقس ، الذي وكلت إليه بيزنطة منذ استرجعت مصر من الفرس أمر ولاية مصر كلها ، وجمعت له السلطة الدينية والمدينة معاً ، فكان بطريقاً على الإسكندرية ورأساً للإدارة المدنية .

وقد عسكر المسلمون في هليوبوليس «عين شمس» وتلقّوا هنا أمداد الخليفة بقيادة الزبير بن العوّام ، والمقداد بن عمرو ، وعُباد بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد وقال آخرون بل خارجة بن خذافة الرابع — لا يعدون مسلمة^(٢) » وتضاعف جيشهم^(٣) ولكنهم لم يكن في وسعهم أن يهاجموا الحصن نفسه ، كان منيعاً وكانت تنقصهم أدوات الحصار فاكثفوا أن يسدوا عليه المنافذ ويحكموا الأخذ بخناقه .. « غير أن مركز الحصن لم يكن ليساعد العرب على الحركة السريعة فقد كان في وسع الروم أن يهبطوا

(٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥٦

(١) بتلر ١٩١

(٣) في عدد الجيش خلاف وقد سرد ابن عبد الحكم في ٥٦ بعض الروايات . والذي يبدو أن الخلاف يرجع إلى جمع الآلاف الأربعة الأولى إلى الأمداد .

إليهم فيناوشوهم أى وقت شاءوا ثم يعودون إلى حصنهم آمنين وراء أسواره العظيمة^(١)»
ولذلك لقي المسلمون هذه المشقة التى عبر عنها ابن عبد الحكم بقوله : « فقاتلوه بها
قتالا شديداً وأبطأ عليهم الفتح^(٢) .. » حتى إذا كان القتال ذات مرة وقد استدرج
عمرو جيش الروم إلى هذه المسافة التى تفصل بين الحصن وبين هلبو بوليس ، كانت
للمسلمين الغلبة ، وهرب القائد ثيودورس فلاذ بالإسكندرية ، واحتوى المقوقس ثمانية
بالحصن فربط العرب حوله سبعة أشهر دارت فيها مفاوضات لم تنته إلى عقد^(٣) . وانتهى
الحصار بعد إلى أن وهب الزبير نفسه لله^(٤) فتسور الحصن فيمن انتدب معه فافتحمه
أو أوشك من جانب ، وصالح أهله من جانب آخر ، وشمل الصلح الحصن كله ، فى
السادس من نيسان « إبريل » سنة ٦٤١ وكتب لهم عمرو كتاب الصلح ، الذى يسميه
المؤرخون صلح بابليون ، على « الجزية للقبض والخيار للروم . فمن أحب منهم أن يقيم على
مثل هذا أقام على ذلك لازماً له ومفترضاً عليه ، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم
خرج ، وعلى أن المقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه
ما فعل ، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه^(٥) » .
٥ — اليوم : وفى خلال مدة الحصار الطويلة التى استمرت سبعة أشهر ، يذكر

الأستاذ بتلر أن عمرو بن العاص غزا إقليم الفيوم على الجانب الغربى من النيل على
بعد خمسين ميلاً من جنوب القاهرة ، وأنه لذلك استولى على « أم دنين^(٦) » قبل أن
يمضى فى هذا الغزو . . ولما كان أحد من مؤرخى العرب لم يذكر ذلك فإن بتلر
يعتمد على « حنا النقيديسى » فى هذا ويؤكد أن هذه الغزوة حدثت فى « الوقت
الذى وصفناه وعلى الصورة التى أوردناها^(٧) » . . وإن كان يذكر بعد ذلك أن هذا
الغزو « كان مشغلةً للجند وأن الروم عادوا إلى مسلحة « أم دنين » فتملكوها^(٨) »

(٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥٤

(١) بتلر ١٩٢

(٣) اقرأ تفاصيل الرسل والوفود والمفاوضات فى ابن عبد الحكم من ٥٩ — ٦٤

(٤) نفس المصدر ٥٨

(٥) نفس المصدر ٦٤

(٧) اقرأ عن أم دنين ابن عبد الحكم ٥٩

(٦) بتلر ١٩٤

(٨) بتلر ١٩٨

فَكَانَ الْأَمْرُ إِذْنٌ لَا يَعْدُو هَذِهِ الْغَارَاتِ الَّتِي تَتَقَدَّمُ حَرَكَاتُ الْجُنْدِ . وَلَعَلَّ هَذَا سِرَّ إِهْمَالِ الْمُؤَرِّخِينَ الْمُسْلِمِينَ لَهَا إِنْ صَحَّتْ رَوَايَةُ حَنَا النِّقْيُوسِيِّ عَنْهَا .

٦ - مصر السفلى : وَمَسْكَنُ سَقُوطِ الْحِصْنِ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَجْتَزُّوا . ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مِفْتَاحَ مِصْرَ السُّفْلَى وَالْعُلْيَا عَلَى السَّوَاءِ ، وَكَانَ عَلَى نَجْمِ النَّهْرِينِ ، وَكَانَتْ لَهُ قِيَمَتُهُ الْمَعْنَوِيَّةُ إِذْ كَانَ قَدِيمًا مَكَانَ الْعَاصِمَةِ الْأُولَى مَمْفِيسَ . . . وَلِذَلِكَ نَرَى أَنَّهُمْ يَنْسَاحُونَ فِي رِيفِ مِصْرَ السُّفْلَى فِي حَرَكَةٍ مُتَّصِلَةٍ ، وَإِنْ كَانَ يَحْدُثُ مِنْ اتِّصَالِهَا وَسُرْعَتِهَا أَنَّ الْأَرْضَ تَمْلُؤُهَا الْفَنَوَاتُ وَتَكْثُرُ فِيهَا الْقُرْعُ ، وَيَعْلُو فِيهَا مَاءُ الْفَيْلِ فَتَرَاتُ مِنْ كُلِّ عَامٍ وَمَا كَثُرَ مَا يَفِيضُ الْمَاءُ عَلَى جَانِبَيْهَا وَمَا كَثُرَ مَا تَعَوَّقُ اسْتِفَاضَةُ الْمَاءِ حَرَكَةَ الْجَيْشِ ، وَلِهَذَا لَمْ تَنْتَهَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ إِلَّا مَعَ فَتْحِ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَلِهَذَا أَيْضًا اضْطُرَّ الْعَرَبُ أَنْ يَطْلُبُوا مُسَاعَدَةَ سُكَّانِ الْبِلَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَرَاتِ . . . وَيَحْدِثُنَا الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ السُّكَّانَ اسْتَجَابُوا لَهُمْ . . . وَمِنْ هَذِهِ الِاسْتِجَابَةِ وَمِنْ عَوْنِ الْأَقْبَاطِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي مِثْلِ « إِصْلَاحِ الطَّرِيقِ وَإِقَامَةِ الْجُسُورِ وَالْأَسْوَاقِ »^(١) نَشَأَتْ أَحَادِيثُ طَوِيلَةٌ عَنْ مَوْقِفِ الْقِبْطِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَنَتَحَدَّثُ عَنْهَا فِي مَكَانِهَا مِنْ هَذَا الْبَحْثِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَدَّى تَتَابُعُ فَوْزِ الْمُسْلِمِينَ فِي مِصْرَ السُّفْلَى وَاسْتِيلَاؤِهِمْ عَلَى الْمَرَائِزِ وَالْأَرْيَافِ إِلَى هِجْرَةِ عَرِيضَةٍ كَانَتْ تَلْتَجِئُ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ وَتَحْتَمِي بِهَا ، فَقَدْ مَلَكَ الرَّعْبُ قُلُوبَ السُّكَّانِ وَالرُّومِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَلَمْ تَسْكُنْ هُنَاكَ قُوَى مُنْظِمَةٌ وَلَا مَقَاوِمٌ مُحْكَمَةٌ ، وَانْتَشَرَ الْأَمْرُ عَلَى الرُّومِ فِي مِصْرَ الْعُلْيَا وَفِي مِصْرَ السُّفْلَى فَلَمْ يَجِدُوا مِنْ عَاصِمٍ إِلَّا الإسْكَندَرِيَّةَ تَحْمِيهِمْ مِنْ تَقَدُّمِ الْجَيْشِ . . . وَلِلْإِسْكَندَرِيَّةِ أُسْوَارُهَا الرَّفِيعَةُ وَحُصُونُهَا الْمُنِيعَةُ ، وَالْبَحْرُ مِنْ وَرَائِهَا قَدْ يَكُونُ سَبِيلًا لِلْهَرَبِ أَوْ طَرِيقًا لِلْإِمْدَادِ . . . وَلِهَذَا رَافَقَ انْتِشَارَ الْمُسْلِمِينَ فِي مِصْرَ السُّفْلَى هَذِهِ الْهِجْرَةُ الْمُتَّصِلَةُ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ حَيْثُ تَدُورُ بَعْدُ الْمَوْقِعَةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي نَصَفَّى الْحِسَابَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْعَرَبِ وَتَرَدَّدَ لِهَذَا الْقَطْرِ مَكَانَتُهُ فِي نِطاقِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ .

(١) عِنْدَ ابْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ ٧٢ (تُورِي) : وَيَقِيمُوا لَهُمُ الْإِنْزَالَ وَالضِّيَافَةَ وَالْأَسْوَاقَ وَالْجُسُورَ مَا بَيْنَ الْقَسَمَاطِ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ . . . وَصَارَتْ لَهُمُ الْقِبْطُ أَعْوَانًا . وَفِي ص ٧٤ رُؤَسَاءُ الْقِبْطِ يَدُونُهُمْ بِمَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَالْعُلُوفَةِ .

٧ — نحو الإسكندرية : وخلف عمرو حصن بابلين وجعل فيه فرقة من

المسلمين . وانطلق على رأس جيشه نحو الاسكندرية ، فجاز نقيوس — وكانت لها مكائنها الحربية في حفظ الطريق بين حصن بابلين والاسكندرية — في ١٣ مايو سنة ٦٤١ ، ثم عبر النيل إلى الغرب حتى بلغ ترنوط ، فلقى بها فيما يحدثنا ابن عبد الحكم طائفة من الروم فقاتلوه قتالا خفيفاً فهزمهم الله تعالى ^(١) . وفي ترنوط أرسل عمرو شريك بن سُمي في حملة ، فلقى الروم عند السكوم الذي يقال له كُوم شريك ، فاقتتلوا به ثلاثة أيام ثم فتح الله على المسلمين وولى الروم أكتافهم ^(٢) .

وتابع عمرو تقدمه فالتقى بالروم عند سنطيس ^(٣) فاقتتلوا بها قتالا شديداً ثم هزمهم الله . . « والنقام مرة أخرى بالسكريون » ^(٤) فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً اضطر معه عمرو أن يصلي صلاة الخوف ، وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة ، ووردان مولى عمرو حامل اللواء ، ثم فتح الله للمسلمين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وانبعهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكانت عليهم حصون لا ترام ، حصن دون حصن .

٨ — استسلام الاسكندرية : وطالعت المسلمين معالم الاسكندرية الرائعة

ولكنهم حين اقتربوا منها كانت مجانيق الروم ترميهم من عل ، ولم يكن في وسعهم أن يضيقوا عليها الحصار فقد كان البحر يحميها من الشمال وكانت التربة وبحيرة مربوط تحميانها من الجنوب ، وكان إلى غربها ترعة الثعبان ، فلم يبق إلا شرقها

(١) ابن عبد الحكم « ماسية » ٦٦ (٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن عبد الحكم ٦٧ سلطيس وكذلك المقرئ .

(٤) كانت السكريون آخر سلسلة من الحصون بين بابلين والإسكندرية وهي تشرف على التربة التي عليها جل اعتماد الإسكندرية في طعامها وشرابها . . ويقول عنها ابن حوقل لأنها كانت في أيامه مدينة عظيمة جميلة على ضفتي ترعة الإسكندرية وكان التجار يركبون منها القوارب إلى القسائط في وقت الصيف إذا علا النيل ، وفي المدينة حاكم تحت إمرته مسلحة من الفرسان والمشاة . ٢٥١ . قلت : وإشارة ابن حوقل (والنص الأصلي ص ٩١ ولها عامل عليها ، ومعه خيل ورجل) إلى المسلحة تضيف دليلاً جديداً على أهمية السكريون الحربية .

وجنوبها الشرق . . ولعل هذا هو الموضع الذى يذكره ابن عبد الحكم حيث يقول « إن المسلمين نزلوا ما بين حُلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ^(١) » .

وحين استطال الحصار خلف عمرو عدداً من أصحابه حول المدينة وعاد أدراجه إلى حصن بابليون الذى كان لا يزال محاصراً . . وأغلب الظن أنه كان يُنفذ حينذاك جرائد الخيل هنا وهناك فى مصر السفلى أو فى مصر العليا ، ولعل أرض الصعيد قد دانت له فى هذه الفترة على يديه بما بعث من سرايا تولّاها هو أو قواده .

ومهما يكن من شيء فقد كان العرب مضطرين إلى أن يطاولوا حصار الإسكندرية لأنهم لا يملكون من القوة أو من العدة ما يهدّون به هذه الأسوار الضخمة التى كانت حصناً من دون حصن كما يقول ابن عبد الحكم ، وكان البحر من وراء الروم كفيلاً أن يوفر لهم أمدادهم المتصلة « فكان رسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية فى المراكب بمادة الروم ^(٢) » .

ولعبت الظروف الخارجية هنا دوراً كبيراً ، فقد رأينا أن المقوقس كان فاوض عمراً فى حصار بابليون وحمل شروط الصلح إلى القسطنطينية ، غير أن الامبراطور هرقل رفضها ورأى فى سلوك المقوقس ما يساعده على أن يتهمه بالخيانة ، فعزله عن عمله واستبقاه فى القسطنطينية أوغناه لاندري . . غير أن هرقل مات فى فبراير « شباط » من سنة ٦٤١ وخلفه ابنه قسطنطين الثانى وهو حَدَث ، وتولت الوصاية عليه أمّه وطائفة من التواد ، فساعدت هذه الظروف السياسية الجديدة المقوقس على أن يستردّ مكانته ورضى عنه المشركون على الدولة وأعادوه إلى الإسكندرية ، مغوّضين له السعى إلى الصالح فقد « كانوا مضطرين أن يتركوا أحداث الشرق تجرى فى سبيل مظلم لحاجتهم إلى الجيش فى العاصمة نفسها للقضاء على الثورات ولأنهم كانوا فى حروب ضد اللومباردين فى إيطاليا ^(٣) » .

(١) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٧ (٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٨ - ٦٩

(٣) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١١٩/٢ - ١٢٠

ووصل المقوقس إلى الإسكندرية ومن حولها جنود المسلمين يحاصرونها قدّر ما يتيح لهم عديدهم وعدّتهم وموقع الإسكندرية من قوة على الحصار ، وكان من سياسته منذ حلّ العرب في البلاد ، أن يصالحهم وأن يمالئهم ، وأن يتنقذ البلاد من سلطانهم المباشر بما يرضى معهم من عقد أو جزية « ولعله كان يطمح أن يدير شؤون البلاد تحت رعاية المسلمين ^(١) » . ولذلك فقد أسرع منذ عاد وعادت معه ولايته على مصر ، فشق طريقه إلى حصن بابلليون حيث كان عمرو بن العاص يدير حركات بعوثه في أطراف مصر — ليفاوضه في الصالح .

وانتهى الأمر بين المقوقس وعمرو في بابلليون إلى هذه المعاهدة التي اصطاح المحدثون على تسميتها بمعاهدة الإسكندرية « ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ » لأن أكثر شروطها يتصل بالإسكندرية من نحو ولأن هذه التسمية تميزها عن معاهدة بابلليون الأولى من نحو آخر ^(٢) .

وكان أبرز البنود في معاهدة الاسكندرية هذه ، الجزية للذين يؤثرون البقاء في ظلال المسلمين ، والأمن للذين يريدون الالتحاق بالروم ، والهدنة أحد عشر شهراً « تنتهى في سبتمبر ٦٤٢ م وأخر ٥٢١ هـ » يرجع فيها المسلمون عن الإسكندرية فلا يدخلونها عامهم هذا ويقمحون لجيش الروم أن يرتحل عن مصر إلى بلاده الأصلية .

وكذلك شهد المسلمون وبخاصة الصحابة الذين كانوا هنا ، ما كانوا شهدوا في الحديبية منذ أربعة عشر عاماً « ٦ هـ ٦٢٧ م » حين سار النبي صلى الله عليه وسلم في صحابته إلى مكة ليعتمر ، ثم ارتضى مع أهل مكة صلحاً أن يرجع عنهم عامهم هذا ، غير أن الرسول لقي في الحديبية معارضة عنيفة ولقي من عمر بوجه خاص ثورة قاسية كان يهدر فيها بقوله « كيف نرضى الدنية في ديننا » ، أما هنا فلم يلق عمرو مقاومة المسلمين ولا ثورة عمر . . . كانت التربية الإسلامية قد آتت أكلها ، في مدى هذه الأعوام .

(١) بتل فتح العرب لمصر ٢١٩

(٢) سيدة إسماعيل كاشف مصر في فجر الإسلام ١٤

أضحى في وسعنا أن نقول إذن إن الإسكندرية قد استسلمت دون كبير قتال^(١) وإن المسلمين وضعوا يدهم على العاصمة الأولى لمصر ، والعاصمة الثانية للإمبراطورية البيزنطية ، هذه المدينة النادرة التي يحدثنا عنها الرحالة الذين مروا بها في تلك العصور أعجب الأحاديث ، ويقصون من أمر أبنيتها ومدارسها ومكاتبها وفلسفتها الشيء الكثير^(٢) .. وسيرث المسلمون ذلك كله وسيصلون به عن قرب .. كانوا يستمعون إليه من خلال أحاديث التجار أو الرحالة ، أما اليوم فهم يواجهون هذا التراث البليد .. سيواجهون صوراً رائعة من البناء في القباب والمسلات والقصور ، ومظاهر جميلة من الدين في المعابد والكنائس والأديرة ، ومواد مجموعة من الثقافة في المكتبات العامة والخاصة .. وسيرون ميناء الإسكندرية بممارته العجيبة « الفاروس » وهذه المראה العظيمة التي تعكس في النهار أشعة الشمس ، وتعكس في الليل أشعة النيران المتقدة لتهدى بها السفن .. وسيأترون بذلك كله وسيفيدون منه علماء وافتباساً ، تجربة وتقليداً ، ولعلمهم أن يبنوا مآذن الفسطاط ومساجده وقصوره على مثال ما رأوا وما شهدوا .

٩ - ردة : وكذلك يبدو أن الأمر قد استقاد المسلمين في مصر ، وأنهم بدءوا يمارسون حياتهم السلمية ، ينشئون الفسطاط ويحفرون القناة التي تصل بين النيل والبحر « قناة تراجان » لتقرب بينهم وبين أصولهم الأولى في الجزيرة ومُنطَلَقِهِم الأول في المدينة بوجه خاص .. ولكننا لا نكاد نقطع سنوات ثلاثاً حتى نجد موجة من الارتداد على مثال هذه الموجات التي جابهت المسلمين في الجزيرة والشام والعراق على السواء ، وتبدأ هذه الموجة هديرها من الإسكندرية فتنتفض المدينة وتنسكت ما بينها وبين المسلمين من عهد في سنة ٦٤٥ ، ويلتقي أهلها مع الإمبراطور قسطنطين على مؤامرة واسعة غرضها الثورة بالمسلمين واستنقاذ مصر منهم ، ويصل

(١) اقرأ في ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٨ قتالا بكنيسة الذهب قُتل فيه من المسلمين اثنا عشر رجلاً .
(٢) اقرأ في بتلر ٣١٩ فصلاً عنوانه : وصف الإسكندرية عند الفتح .

إلى الإسكندرية أسطول بيزنطى عظيم ضخم بقيادة « منويل » الخصى الأرمنى ، فيحتلها وينسكل بحاميتها المسلمة ، ويمضى بعد في صميم الأرض المصرية .

وكان عمرو بن العاص قد غزل من مصر ، عزله عثمان وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مكانه ، غير أن حرج الموقف اضطر الخليفة إلى أن يستعين بالقائد القديم الحنك فقد « سأل أهل مصر عثمان أن يقرّ عمرًا حتى يفرغ من قتال الروم لأن له معرفة بالحرب وهيبة فى أنفـس العدو » ففعل^(١) وعاد عمرو يستأنف عمله العظيم ، والتقى الروم فى نقيوس ، ودارت من جديد فى هذه المدينة معركة ضخمة عُقر فيها فرس عمرو من تحته ، فقاتل راجلاً ، وانتهت بانتصار المسلمين ومطاردتهم الروم واستيلائهم على الإسكندرية ثانية فى ٦٤٦ ، أوائل السنة الخامسة والعشرين للهجرة . وأما فى هذه المرة فلم يدع عمرو أسوارها كما فعل فى المرة السابقة ، وإنما سواها بالتراب حتى يؤنس الروم من عودة جديدة .

ومع ذلك فإن الروم لم تؤنسهم هزيمتهم ؛ فقد حاولوا بعد تسع سنوات فى عهد الإمبراطور قسطنز أن يعاودوا هجماتهم البحرية وأعدوا لذلك ، كما أعدوا من قبل ، أسطولاً جديداً^(٢) ، غير أن المسلمين كانوا قد ركبوا البحر وعرفوه وحدقوه . فأوقعوا بالأسطول البيزنطى ، ولقيت فلوله المشتتة عاصفة هوجاء أتت عليها ، واستتب الأمر للمسلمين ، إلا ما كان من غارات صغيرة غادرة يقوم بها البحارة القرصان على مدن الساحل ثم يرتدون .

١٠ — النوبة : وحين استعاد المسلمين إقليم مصر كله ، ما بين الإسكندرية وأسوان ، انجحت بعض بعوث الجيش ، تأمينا للحدود أو طلبا للتوسع ، نحو الجنوب إلى بلاد النوبة حيث كانت تضرب القبائل فى أرض بينها وبين أرض الجزيرة شبه من نحو ، وصلات تجارية من نحو آخر .. فأما الشبه فى هذه الحياة القبلية فى أرض تغلب عليها الصحراء ، وأما الصلات فى الذى كان من تسرب التجار العرب فى الجاهلية إلى مصر والسودان معا . .

ولعلّ هذه الصلات وما كان من غلبة المسلمين على مصر ومتاخمتهم لأرض النوبة هي التي أغرتهم بهذه البعوث ، ولعل الشبه في طبيعة الحياة والأرض هو الذي جعل فتح هذه المناطق قاسياً عسيراً ، ويحدثنا المؤرخون أن جيش المسلمين بقيادة عقبة بن نافع — فيما يروى البلاذري^(١) — اضطر أن يعود بعد معركة قاسية نسميها « موقعة الحَدَق » إذ أصابت فيها سهامُ أهل النوبة أحداقَ المسلمين « فقفلوا بالجراحات وذهابِ الحَدَقِ من جودة الرمي ، وُسِّمى أهل النوبة رَمَاةَ الحَدَقِ^(٢) » ، وظل القتال ينشب بعد ذلك حتى انتهى إلى صالح في خلافة عثمان وولاية عبد الله ابن سعد بن أبي سرح على : « هدية عدة رؤس منهم يؤدونهم إلى المسلمين في كل سنة ، ويهدى إليهم المسلمون في كل سنة طعاماً مسمى وكسوة من نحو ذلك^(٣) » . وهو صالح يبدو بصورته هذه المرة الأولى في تاريخ الفتوح الإسلامية ، وقد أمضاه عثمان وَمَنْ بعده من الولاة والأمراء وأقرّه عمر بن عبد العزيز « نظراً منه للمسلمين وإبقاء عليهم^(٣) » .

ويبدو من هذا النص الذي ذُيِّل به الطبري هذا الحديث أن السودان قد استعصى على الفتح وأنه كان عسيراً على المسلمين ، حتى ليضطّر الخليفة إلى إقرار هذا الصالح إبقاءً منه عليهم .. ولعل المسلمين لم يجدوا في اقتحام هذه البلاد ما يغريهم فتركوا أمر الدعوة فيها ، يحملها التجار أو الدعاة المتطوعون . ولعل التماسك الديني في هذه القبائل البدوية لم يَمَكِّنْ لهم من أن يُنفِذُوا الفتح ، ولعلهم كذلك لم يشاءوا أن يقاربوا الحبشة تقديراً لما كان من صنيعها في إيواء أصحاب الهجرة الأولى ، أو حذراً من إثارة ما بينها وبين جنوب بلاد العرب من ثارات ، وتفادياً لما يكون من إشرافها على اليمن كما يشرف السيف المسلط .. ولهذا السبب أو ذاك مضى المسلمون يحجبون البلاد في غربي مصر ويجهزون على ما تبقى من ولايات الإمبراطورية البيزنطية في هذا الصقع من الأرض .

(١) البلاذري ٢٣٦ - ٢٣٧ وقد سكت الطبري عن ذكر القائد

(٢) الطبري ١/٥١٩٣

١١ - برقة وطرابلس : والأسباب التي حدثت بالمسلمين أن يتقدموا من الشام إلى مصر توشك أن تكون هي الأسباب التي حدثت بهم بعد ذلك أن يتقدموا من مصر إلى ليبيا ، وأن يضرّبوا بعد ذلك فيما وراءها . . فسلامة الإسكندرية تقتضى حماية ما يليها من أرض برقة ، والحدود بين برقة ومصر لا يمكن أن توصف في أى مكان منها أنها حدود فاصلة ، بل لقد كان من صنيع جوستينيان أن يعوّض حاكم إقليم ليبيا عن فقر إقليمه بأن يضم إليه إقليم مربوط غربى الإسكندرية وهو إقليم مصرى خالص^(١) . ولم تكن الطرق بين هذين المصرين طرقاً شائكة ولا عوائق قائمة ولا صحراء مجذبة كما زارها اليوم ، وإنما هي سبيل مطروقة طرقها الفرس حين ساروا إلى برقة فافتتحوها ، وطرقها نيفتاس حين شارك هرقل في الثورة على فوكاس فمضى من برقة إلى الإسكندرية مساحلاً كما يقول الأستاذ بتلر ، وإنما هي كذلك سبيل تعمرها المدن ، وتتكاثر فيها بساتين النخل وتزدهر فيها الخصبوبة ، ولذلك « لم يلق المسلمون في فتح برقة كبير كيد ، والسيوطى يذكر أنه لم يذهب إلى الفتح إلا الخليل^(٢) » وهذه السهولة في الفتح جعلت الروايات عنه مقتضبة مختصرة ، فلم تكن هناك دماء ومعارك تفتح لنا بعض التفاصيل ، وتتيح لنا هذه التفاصيل بدورها أن نكشف عن الوجه الاجتماعى لحركة الفتح . وكل ما ذكره الطبرى أن عمرأ سار إلى انطابلس ، وهى برقة ، فافتتحها وصالح أهل برقة على ثلاثة عشر ألف دينار وأن يبيعوا من أبنائهم ما أحبوا في جزيّتهم ..^(٣) وأنه بعث عقبة بن نافع الفهري فافتتح زويلة بصلح ، وما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين^(٤) .

ولم يكتف عمرو ببرقة وإنما سار إلى طرابلس وكانت مسلحة للروم ، فحاصرها أسابيع ، وصبرت على الحصار لعلها تلقى مدداً من الروم ، ثم استسلمت له بعد ذلك وخضعت هذه المنطقة للمسلمين ، ودانت لهم قبائل اللواتي ، وامقدّ المسلمون بعد ذلك

(٢) بتلر ٣٧٢

(١) بتلر ١٠

(٤) الطبرى ١/٥/٢٦٤٦ والبلاذري ٢٢٤

(٣) الطبرى ١/٥/٢٦٤٥

في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي مروح في سرايا صغيرة إلى إفريقية واحتلوا البلاد التي عاصمتها قرطاجنة وأخذوا منها الخراج . . وسرى ذلك بعد إن شاء الله في الفصل المقبل إذ نتحدث عن فتح ولاية إفريقية .

آية هذا كله أن المسلمين تقدموا نحو مصر تحت ضغط طائفة من البوارج التي تحدثنا عنها فافتتحوها وساقطهم هذه البوارج نحو الغرب ، فمضوا يغيرون على برقة وطرابلس وبصالحون أهلها ، ثم اضطرتهم حدودهم الجنوبية أن يخوضوا معارك مع النوبة انتهت إلى عقيد بينهم وبينهم — وأن افتتح مصر كان قفزةً بالمسلمين نحو القارة الجديدة ، نحو إفريقية التي ستلعب في تاريخهم بعد دوراً ملحوظاً والتي ستسوقهم بدورها إلى أوروبا . . كانوا يحاربون حتى الآن في آسيا ، أما بعد فقد ربطت مصر بينهم وبين القارة الجديدة ، ووسعت من مطالعتهم على البحر الأبيض ودفعتهم وراء إيالات الإمبراطورية البيزنطية المتفككة — ولم تكف مصر بذلك ولكنها استقادت للإسلام والعربية ونزلت لها عن كل ماضيها الثقافي ، وأضحت فيما بعد قلب العالم الإسلامي وذخيرته التي يلجأ إليها في النوائب والملمات . وفي هذا القرن الذي نتحدث عنه لقنت مصر العرب درساً لن ينسوا أثره وفصله ، إنها نقلتهم نقلة رائعة من الحياة البرية إلى الحياة البحرية ، وقتلت هذا الوم الذي يحدثنا الرواة ، ما حيين ، أنه كان يملأ نفوسهم خوفاً من البحر ، وربما تعاونت معهم الشام — في خطئ ضئيل أو جليل — على صياغة البحرية الإسلامية التي سيكون لها شأنها فيما تستقبل الدولة الإسلامية من أحداث . . ولكن مصر ، بحكم أنها كانت القاعدة البحرية الأولى ، هي التي لقنت المسلمين أبجدية هذا الدرس ، ولعل الشام أن تكون أمدته بمواده الأولى بحكم ما في جبالها من أحراج ، وما في أحراجها من أخشاب ، وما في بعض سواحلها من مرا كز بحرية .

وقد كان المسلمون أو قادتهم بخاصة ، على قدر كبير من الزكاة والفتنة ، إذ تنهبوا إلى ذلك وأفادوا منه ، وأقبلوا عليه ، وأدركوا أن غلبة بيزنطة لن تكون غلبة حاسمة إن لم يتهيا لهم أن يقابلوا أسطولها بأسطول مثله ، وإلا فهي لن تتأخر

عن مناجزتهم القتال ، وإن تجنب أن تهاجم سواهم ، وأن تكون مصدر إزعاج دائم لهم ، وأن تحول بينهم وبين حريتهم في التجارة ، وبين أمنهم في الساحل والداخل ، وبينهم وبين أن تنقاد لهم هذه الرعايا التي عاشت تحت حكم البيزنطيين قروناً طويلاً .

وكان هذا هو أكبر الفروق بين فتح الفرس لمصر ، وبين فتح العرب لمصر . . فقد غفل الفرس عن هذه الثقافة البحرية ، فلم يجاوزوا حدود الحركات البرية ، ولم يدركوا أن انتقالهم إلى ممارسة البحر ، كان يمكن أن يحجب غلبة البيزنطيين لهم ومعاونتهم السكرة عليهم أو يؤخرها ، ولذلك لم يقدرُوا هذه الثروة التي وقعت لهم ، على حين أدرك المسلمون ذلك كله . . فلما حاول الإمبراطور قسطنطين معاودة الهجوم على الإسكندرية ، سرعان ما قابله أسطولهم الصغير فردّه وحمل الإسكندرية منه . وإن يستطيع بيان مهمات أوتي من قدرة ، أن يفي ما كان من تحرير مصر وغلبة المسلمين عليها من أثر بالغ في التاريخ الإسلامي ، ولعل الأحاديث الكثيرة التي قدّم بها ابن عبد الحكم كتابه عن فضائل مصر ، وعن وصية الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يغني بإغفاءة الموت ، ويصحو صحوة اليقظة الأخيرة ، كانت بعض الانعكاس في ضمير الجماعة الإسلامية لهذا الأثر .

وسيتقدم المسلمون بعد مصر وطرابلس وبرقة إلى الغرب حتى يباغوا المحيط . وسنتابع في الفصل المقبل بحول من الله وقوة هذه الحركة الجديدة .

القسم الثالث

موقف السكان من حركة الفتح

نستطيع أن نتبين موقف مصر من حركة الفتح إذا نحن تعرفنا إلى موقف الطبقات التي كان يتألف منها المجتمع المصري غداة انتشرت في أرضه الدعوة الإسلامية . . فما هي العناصر التي كانت تصوغ هذا المجتمع ، وكيف كان تألفه ؟ .

١ - المجتمع المصري (طبقتان متمايزتان) :

كانت مصر ولاية من ولايات الدولة البيزنطية ولكنها ولاية ممتازة ، وكان غناها وموقعها في قلب القارات الثلاث ، وتلاقى الطرق التجارية العالمية في أرضها وجودها في مقدمة الولايات البيزنطية الأخرى في شمال إفريقيا ، كل ذلك اضطرها أن تكون مثابة لكثير من الروم يلجأون إليها يقصدون التجارة العريضة أو الحياة الواسعة ويعيشون في أرضها يتفاسلون ويتكاثرون ، تشجعهم الدولة أو تحميهم ، ويمكن لهم خصب الأرض ، ويغريهم ويساعد على تكاثرهم صناعة الحكم أو وظائف الإدارة أو مرافق التجارة أو قاعدة الأسطول في الإسكندرية أو ما إلى ذلك من أمور كثيرة حببت بهذه الأرض الطيبة كل الجماعات التي كانت لها بها صلة ، أو كان بينها وبينها من سبيل .

ولهذا لم يكن كل من في مصر آنذاك من المصريين أنفسهم ، وإنما كانت هناك كثرة كثيرة من البيزنطيين الذين استقر بهم المقام في السواحل أو في الأرياف ، في المراكز الكبرى وعلى ضفاف الفروع الكبيرة للنيل ، وكانت هذه الكثرة توشك أن تحجب وجه مصر الأصيل في بعض المدن كالإسكندرية مثلاً ، وكانت تعيش إلى جانب السكان في بعض المدن الأخرى ، وكانت تأخذ سبيلها على كل حال إلى الاندماج في هذا المجتمع المصري والانصياح له على تدرج في هذا الاندماج وبطء . غير أن عاملاً خطيراً في الحياة آنذاك لم يكن ليسهل هذا الاندماج . . كان يجعل بين المصريين وبين الروم حاجزاً مكيناً يحول بينهم وبين أن ينصهروا في كتلة واحدة ، بل كان كثيراً ما يثير بينهم الإحن ، ويبعث الخصومات ، ويوجب الروح القومية أن تنخب أو تذبل ، وذلك هو العقيدة الدينية .

وقد كانت هذه العقيدة الدينية دائماً مثاراً للخصومات بين المصريين والروم . . كانت كذلك في الماضي القريب حين انتهى البيزنطيون في جمع خلقهم وبنيتهم « ٤٥١ م » إلى القول بالطبيعتين ، على حين أنف المصريون أن يعدلوا عن مذهبهم بالطبيعة الواحدة « المونوفيسيتية » . . وكانت كذلك في الحاضر الذي رافق الحركة

الإسلامية حين عمد هرقل أن يصرف الناس عن الخوض في الطبيعة والطبيعتين إلى بدعة القول بأن للمسيح مشيئة واحدة « مونوثلية » وهي البدعة التي أوجدها له سرجيوس بطريرك القسطنطينية ، يريد أن يتبع نصره السياسي ، في استنقاذ الامبراطورية من الفرس وجمع أطرافها ، نصرأ دينيا آخر يؤلف به بين الناس ويجمعهم على مذهب واحد ، حتى يدم به العالم قوة لا تناقض فيها ولا تعارض بين وجهاتها السياسية والدينية . . ولكن لم يفد من ذلك شيئا إلا أنه شقق الخلاف وأضاف إلى البدع الموجودة من قبل بدعة جديدة . . ولكنه ، كذلك ، إنما خسر كثيراً فقد عجز المقوقس « قيرس » الذي وكل إليه تنفيذ هذه السياسة في مصر وجمع له السلطة الدينية والمدنية أن يوفق في ذلك عن سوء سياسة منه أو عن عناد من المصريين أو عن الأمرين جميعا ، فلم يزد عمله على أن يكون تأريثاً للخصومات وتمسكينا لها في القلوب .

وقد كانت هذه الخصومة الدينية كذلك بعيدة الجذور ترجع إلى الماضي البعيد، فنحن نعلم أن مصر من أولى الأقطار التي أقبلت عليها المسيحية فاستقبلتها وأحسنّت استقبالها ، وأفسحت لها في ضمايرها وبلادها ، في صدرها وأرضها ، تقيم الكنائس وتبنى الأديرة وتضم إليها الناس . . ونحن نعلم كذلك أن هذه المسيحية حوربت حربا عنيفة : حاربتها روما طوال القرون الثلاثة الأولى وحاربت كل الذين التفوا حولها من رعايا الامبراطورية وأصلتهم ناراً من الاضطهاد والعسف . . وظل الأمر كذلك في هذا العداء القوي وما يؤرث هذا العداء من كره وأحقاد حتى كان عهد الامبراطور قسطنطين الأول « ٣٢٣ - ٣٣٧ » حيث بدا في سياسة روما بعض التسامح ، واعتبرت الديانة المسيحية إحدى الديانات التي اعترفت بها الامبراطورية . . فلما كان عهد تيودوسيوس الأول « ٣٧٩ - ٣٩٥ » كانت هذه النقطة الواسعة ، إذ اعتُبرت المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية جميعاً . . غير أن هذه الوحدة التي أضفتها الدولة على ما بينها وبين رعاياها لم يقدّر لها أن تعيش طويلا ، فقد فهمت المسيحية في بعض الأقطار على غير ما فهمت في بعض الأقطار الأخرى ، واتخذت بعض الأمم التي

كانت تخضع للإمبراطورية من أسلوبها في الدين وطريقتها في العقيدة مجالاً تنفس فيه تنفسها القوي ، فلم تسمح للدولة أن تمد عليها ظلالاً من مذهبها الخاص . فكان من ذلك هذه الفروق بين المذهب الرسمي المملوكاني أو الخلقدوني وبين المذهب المونوفيسي أو الأرثوذكسي أو اليعقوبي في مصر والشام .

وكذلك يبدو أن المجتمع المصري كان مؤلفاً من طبقتين متباعدتين ، باعدت بينهما الفروق الجنسية ، ثم لم يستطع الدين الواحد أن يغطي هذه الفروق ، وأن يملأ هذا البعد ، وإنما زاد التعصب الديني والخصومات الفكرية وما يستتر وراء ذلك من عوامل قومية — هذا البعد اتساعاً وهذه الفروق وضوحاً . . فإذا العرب في مصر يواجهون طبقتين من الناس ، طبقة الروم وطبقة القبط . . طبقة الشعب ، وطبقة الحكام . . طبقة القائلين بالطبيعة الواحدة أو المشيئة الواحدة وطبقة القائلين بالطبعتين . . طبقة تنتمي إلى جنس من الناس : وطبقة تنتمي إلى جنس آخر . . طبقة تتحدث لغة ، وطبقة تتحدث لغة أخرى . . كان هنالك كل هذه الفروق الصارخة ، غير أن ازدهار الإمبراطورية وضحامة سلطانها كان يُسكِتُ في هذه الفروق صراحتها وصرختها ، وكان يسبق على ألوانها الواضحة المتميزة لوناً واحداً من النظام الإداري ومن الوحدة السياسية ، يلفها ويغطيها . . فهل كشفت هجرة الإسلام عن هذه الألوان ؟ وهل كان انتشاره مثاراً لهذه الفروق أن تظهر وأن تفتتح ؟ . هل وجد السكان الأصليون فيه مُتَنَفِّسَهُمْ ، أم كانت قسوة التجارب الماضية قد علمتهم الحذر ، وأوحت إليهم بالتربص ؟ .

٢ - الروم :

١ - المقامون : من الطبيعي أن يقف الروم في مصر من الموجه الإسلامية الدافقة موقفاً معارضاً فهذا ما توحى به طبيعة الأشياء . فالعرب إنما ينازعون الروم سلطانهم على هذه الأرض ، ويلزمونهم الجزية إن أبوا الإسلام ، ويأخذونهم مأخذ التابع بعد أن كان موقفهم موقف الأصيل ، ويهشمون أطراف مملكتهم في الشمال والجنوب ، يحلونهم عن سورية وينفونهم عن مصر ويحاولون أن يغلبوهم على كل بقعة

من الأرض لهم فيها ظل . . ولذلك لن يمتاز موقفهم بغير المقاومة القوية ، والعنف الشديد ، ولذلك أيضاً تولّوا هم أمر هذه المقاومة في كل المواقع التي دارت في مصر ؛ فلما انهارت هذه المقاومة بالاستيلاء على الإسكندرية وانتهى الأمر إلى هدنة وصلاح عاودوا ، كرة أخرى ، الثورة بالمسلمين ، فنقضوا ما بينهم من عهد ، واستمدوا القسطنطينية فأمدتهم بأسطول « منويل » وانقضوا يوغلون حتى أوشكوا أن يبلغوا القسطنطية ، لولا أن ردهم المسلمون ثانياً إلى ما وراء أسوار الإسكندرية .

ب — المسلمون : على أنه يبدو أننا نستطيع أن نميز في موقف الروم موقف جماعة كانت قد اطمأنت إلى الحياة في مصر واستقر أمرها فيها . . ليست هي هذه الطبقة التي بيدها أمر الجيش أو أمر الإدارة ، وليست هي هذه الطبقة التي تمارس السلطان وتقوم بالحكم ، وإنما هي طبقة خلصت إلى صميم الحياة المصرية : آلفتها وامتزجت بها ، وطبعتها وتلقط طوابعها ، وأنسيت ما كان بينها وبين مواطنها الأولى ، أي كانت هذه المواطن في أرمينية أو آسيا الصغرى أو القسطنطينية ، وعادت جزءاً من الأرض التي تعيش عليها والوطن الذي تتقلب فيه . . هذه الطبقة لم تقف من الحركة الإسلامية موقف أكثر الروم ، وإنما هي انساقت فيما انساقت فيه قبض مصر من حذر مرة ، ومن لين مرة أخرى ، وربما استجاب بعضها للإسلام رغبةً أو زُلفاً ، فأمنت به أو ساعدت أهله ، وكانت له في موقف المناصر الودود . . وسنرى حين نرصد انتشار الإسلام^(١) أمثلة تنبئ عن هذه الجماعة وتدل عليها .

ج — الطامعون : وجماعة ثالثة من الروم تتميز كذلك خلال حركة الفتح بموقف خاص غير موقف المقاومة وغير موقف المسالمة . . وتلك هي الجماعة التي خالطها الإيمان بأن الإمبراطورية البيزنطية لن تستطيع أن تقف طويلاً أمام هذه الدفقة المتدفقة من الجزيرة العربية . . أو هي على الأقل لن تستطيع أن تبقى على صلاتها بمصر منذ أن استطاع المسلمون أن يقطعوا ما بينها وبينها حين استولوا على سورية ففصلوا رأس الإمبراطورية عن أطرافها . . ولذلك لن تستطيع هذه الأطراف على ذلك صبراً ، ولن يستطيع البحر أن يجمع شملها . فسيجتريء العرب على البحر ، وسيقبلون عليه

وسيجولون بينه وبين أن يكون طريقا للإمبراطورية ، وسيفصمون كل العرى بين الإسكندرية والقسطنطينية .. وليس في وسع مصر وحدها أن تقاوم كذلك ، وليس في وسعها أن تنحاز إلى هذا الدين الجديد .. فليس هناك إلا أن تدارى هذه الجماعة الإسلامية بالجزية ، وأن تدرأ عنها الحرب بالصلح ، فالصلح وحده كفيل أن يحفظ عليها بقاءها وأنفسها وأموالها وذراريها .

هذه الطبقة الثالثة الطامعة كانت قلة كذلك ، ولعل خير من يمثلها المقوقس . فقد كانت سياسته مع المسلمين تشعر المتتبع لها أنه قد نفذ يديه من بيزنطة ، وأنه خير له أن يملأ يديه من هذه الدولة المقبلة وأن يدور في فلكها . . ولعل خير ما يمثل هذه السياسة كذلك هذا الحديث الذي رَوَوْا أنه دار بين المقوقس وأصحابه حين كانوا يتشاورون في شروط المسلمين : « أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم تجيبوهم إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين . . فقالوا : وأي خصلة نجيب إليها ؟ قال إذن أخبركم : أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فانا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ، وإن تصبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة . . قالوا فنكون لهم عبيدا أبداً ؟ قال نعم تكونون عبيداً مساطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم ، وتكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبداً أتم وأهلكم وذراريكم ^(١) . » وكذلك يبدو أن موقف الروم كان موقف مقاومة لا شك في ذلك . . ولكن إلى جانب هذه الكثرة المقاومة ، قلة مسالمة من نحو ، وقلة طامعة من نحو آخر . . وما من شك في أن هذه القلة التي كانت تحيط بالكثرة المقاومة من يمين أو يسار ، لن تعلم أن تترك أثرها ، تافهاً أو باهتاً ، في استلاب المقاومة بعض روحها واندفاعها .

٣ — القبط :

ماذا كان موقف القبط من الحركة الإسلامية ؟
في فتوح العراق والشام رأينا أن المحدثين من المؤرخين كانوا يتحدثون

هذه المساعدة بأنها فردية مرة — وأنها اضطرابية « ليست مساعدة الراغب المختار بل عمل المجبر المضطر^(١) » مرة أخرى — وأنها « ضئيلة لا تعدو بعض الأمور^(٢) » حيناً — وأنها من بعض من أسلم من القبط حيناً آخر — ثم هو يفسرها في غير هذه الصفحات بأنها محدودة ومعينة لغرض خاص ولم تكن مساعدة عامة^(٣) .. وأخيراً يلجأ ، حين لا يجد أن ذلك التفسير كله ينهض بالحقيقة ويقف لها ، إلى تحديد تاريخ هذه المساعدة فيجعلها تبدأ بعد فتح حصن بابلين^(٤) .. وقد رأينا أن استسلام حصن بابلين كان في إبريل من سنة ٦٤١ ، أعنى أواخر حركة الفتح ، لأن الإسكندرية استسلمت في ١٠ نوفمبر من هذا العام نفسه .. فكأنما يجعل هذه المساعدة أمراً اضطرت إليه الظروف وأجأت إليه الحاجة ، حين أضحت وليس في وسع القبط إلا أن يشاركوا المسلمين الحياة على هذه الأرض التي يملكونها .

وقد اضطرب الأستاذ بتلر في سبيل ذلك كله إلى أن ينفي أو يؤول كثرة كثيرة من روايات المؤرخين المسلمين والمؤرخين الأقباط على السواء^(٥) . ومن الواضح أنه ليس وراء عمل المؤرخين الإسلاميين حين يشيرون إلى مساعدة الأقباط من غرض أو باعث ، بل لو كان في هذه الروايات مجالاً للبواعث الخاصة لسكان الفخر يقتضيهم أن يسكتوا عن هذه المساعدات وأن يكتموا أمرها .. ومن الواضح أيضاً أن حنا النقيوسى الذى يعتمد عليه بتلر في تاريخ هذه الفترة يشير إلى هذه المساعدة إشارة صريحة واضحة لا يخرجها عن صراحته ووضوحها إلا تأويل الأستاذ بتلر لها وتصريفها في غير وجهتها أو نضيق مداها أو تحويل تاريخها . ولم يكن حنا النقيوسى ليدارى المسلمين في ذلك ولم يكن ليتملقهم في هذا الحديث ، بل كان على العكس من ذلك ، في فصوله

(١) فتح العرب لمصر ٢٠٧ (٢) فتح العرب لمصر ١٨٧

(٣) نفس المصدر ٢٠٧ هامش (٤) نفس المصدر ١٨٧

(٥) من ذلك مثلاً أن حنا النقيوسى قال : إن القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها ص ١٨٧ وقد فسر هذه الغزوة أنها كانت في أشهر الحصار الأولى ١٩٤ ولكنه هنا عقب على مقالة حنا النقيوسى بقوله : ولا ندرى في أى وقت كان هذا على التحقيق ولكن من الجلى أنه لم يكن إلا بعد فتح حصن بابلين .

الأخرى ، شديد القسوة عليهم شديد التعريض بولائهم^(١) .

فالمؤرخون الإسلاميون والأقباط وفريق من المحدثين الذين يشير إليهم الأستاذ بتلر كالأستاذ ويل Weil يجمعون على هذه المساعدة ويتحدثون عنها في النماذج التالية

١ — يسوق ابن عبد الحكم في كتابه طائفة من الروايات عن مساعدة القبط في مراحل مختلفة من مراحل الفتح وعن طرق مختلفات من طرق الرواة : فهو يتحدث عن هذه المساعدة في الفرما : « فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا^(٢) » — وهو يتحدث عنها بعد حصار بابلليون : « وصارت لهم القبط أعوانا^(٣) » — ثم هو يتحدث عنها حين خرج عمرو بضرب في ريف مصر ويتجه إلى الإسكندرية « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجسور والأسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم^(٤) » — وهو يتحدث عنها أخيراً في حصار الإسكندرية بعد السكريون : « فنزل المسلمون .. ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة^(٥) » إن ابن عبد الحكم وهو أقدم من كتب تاريخ فتوح مصر يتحدث إذن عن مساعدات القبط حديثاً واضحاً وهو يرجع بهذه المساعدات ، بنوع من الحذر دأت عليه صيغة المجهول ، إلى أيام الفرما ولسكنه يؤكدها في حصار بابلليون ، ثم هو يحدد كذلك نوعها بأنها إصلاح الطرق وإقامة للجسور والأسواق ومدد الجيش بما يحتاج إليه من طعام وعلوفة .

ب — ولا يبعد غير ابن عبد الحكم من المؤرخين الإسلاميين عن هذا النطاق . غير أن المقرئ وأبا الحسن يذكran ما يفيد أن مساعدة القبط بدأت منذ بدأ المسلمون يدقون أبواب مصر في الفرما وأن قبط الفرما قد ساعدوا العرب أثناء الحصار .

(١) يقول بتلر ٣٨٦ عن حنا النقيوسي : إنه لا يتورع أن يصف الإسلام بأشنع الأوصاف ويتم من دخلوا فيه بأشد النهم .

(٢) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٥٤ (٣) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٥
(٤) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٦ (٥) ابن عبد الحكم « ماسيه » ٦٧

ج — أما المؤرخ حنا النقيوسى فيقول فى الصفحة ٥٥٩ من الفصل ٦٣^(١) « وأخذ الناس يساعدون المسلمين » لكنه لا يحدد نوع المساعدة وإن كان يجعل تاريخها بعد الاستيلاء على إقليم القرما .

د — أما الأستاذ ويل فينقل هذا الخبر عن حنا النقيوسى ويرى فيه قرينة ضد القبط .

غير أن الأستاذ بتلر يحاول أن ينقض ذلك كله فى تتبع دقيق ويحاول أن يوجهه فى هذه التفسيرات التى أشرت إليها ، فى صبر دائب وجهد متصل ، ويبلغ أن ينتقص من أقدار المؤلفين كما فعل إذ قال عن ويل إنه ليس بالباحث أو الناقد فى تاريخ ذلك العصر وأنه لم ير كتاب حنا النقيوسى الذى نقل عنه^(٢) . . . غير أنه لا يستطيع أن ينتزع من نفوسنا هذا الأثر الواضح الذى تتركه أخبار الفتح عن مساعدة ما ، مهما يكن من تاريخها وطبيعتها ، قدمها الأقباط للمسلمين . . بل إن الفصول البارة التى كتبها بتلر عن اضطهاد البيزنطيين للأقباط وعن السنوات العشر التى قضاها المقوقس على رأس الإدارة المدنية والدينية يُكرِّه المصريين على مالا يودّون ، ويذيقهم ألواناً من العسف والاضطهاد . . هذه الفصول تبدو وكأنما هى تتناقض فى أعماقها مع حرصه على أن ينفى مساعدة القبط . . فما من شك أن الاضطهاد يدفع الأقباط أن يستشرفوا فى حركة الفتح العربى نوعاً من الإنقاذ ، وما من شك أيضاً فى أنهم استمعوا إلى أنباء هذه الحرية الدينية التى يتيحها المسلمون للناس وأنهم تلقّوا ما ينعم به نصارى الشام من طمأنينة وقرءوا عن عهد عمر لأهل بيت المقدس الذى خلّى بينهم وبين عقائدهم وكنائسهم . . فلم لا ينجون بأنفسهم من حكم بيزنطة القاسى ، وهم يدركون لاشك أن بيزنطة كالبرج المائل الذى تهدمت أسسه فهو لا يلبث أن ينهار ، وأن الأسباب بينها وبين مصر قد تقطعت أو كادت ؟ .

قد يكون لاختلاف الدين أثره فى مثل هذه الأحوال ، غير أن أحداً لم يزعم

(١) عن بتلر ٢٠٧

(٢) بتلر ١٨٧ هامش .

أن الأقباط جُنّدوا في الحركة الإسلامية . . إنهم ، أو جماعة منهم ، قدموا هذه المساعدات التي يَسَّرت عمالية الفتح من مثل ميرة الجيش وإقامة الجسور ، وإنهم قد يكونون قدّموها في وقت مبكر ، ولو لم يَرِدْ عن هذه المساعدات أى خبر أو رواية لكان من الجائز أن نفترض وقوعها طوعاً أو كرهاً لأننا لم نشهد مقاومة القبط من نحو ، ولأن المسلمين هنا ، من نحو آخر ، يواجهون أرضاً من طبيعة أخرى كثيرة القنوات والترع تملؤها الجسور والقناطر التي لم يعالجوا مثلها إلا في العراق ، وقد تولى الدهاقين في العراق ما تولى القبط في مصر ، ورأينا كيف أن ابن صلوبا عقد الجسر للفرقيين المتحاربين^(١) . . وأن الدهاقين في موقعة الجسر أقاموا الجسر الذي قطعه أحد النقيضين المندفعين^(٢) .

مهما يكن من شيء فالذي لا شك فيه أن طبيعة العلاقات السياسية والدينية بين بيزنطة ومصر وبخاصة في السنوات العشر الأخيرة التي حدثنا عنها الأستاذ بتلر حديثه المستفيض — وطبيعة الدعوة الإسلامية بما كانت تفيض من تسامح ديني — وطبيعة النفوس البشرية بما فطرت عليه من تطلع إلى الإنقاذ واستشراف إلى الخلاص ، كل ذلك يحول بيننا وبين أن نفكر أو نتأول هذه الروايات الإسلامية أو القبطية والمبكرة منها بوجه خاص ، والتي كانت جدّ دقيقة في الحديث عن نوع المساعدات المقدّمة .

آية هذا أن المجتمع المصري كان ، من حيث موقفه من الفتوح ، طبقتين : فأما الروم فقد وقفوا موقف المقاومة وكانت منهم قلة مسالمة اعتصمت بالهدوء ، وطبقة طامعة أيدت المسلمين ، وأما القبط — وهم أكثر الطبقتين عدداً — فقد وقفوا موقفاً مشرباً بالعطف ، ونظروا إلى المسلمين على أنهم منقذين ، ووجدوا فيهم مُتَنَفِّساً لمذاهبهم الدينية المكبوتة ، وقد عبّروا عن مشاعرهم هذه ببعض المساعدات للجيش المتقدم .

الفصل الرابع

فتح — روح المغرب

القسم الأول

قبل الفتح

١ — نظرة تاريخية : كان المغرب ولايةً من الولايات البيزنطية غلب عليها الفنيقيون ثم آلت إلى الرومان ، وانتشرت في أطرافها الساحلية بصورة خاصة مظاهر الحضارة اللاتينية ، وعاشت مع روما في صلات متصلة : أسهمت في تنويع بعض القياصرة أو عزلهم ، وكان مولودا فيها أو متزوجا منها بعض آخر . ثم انهارت روما فأل أمر هذه الولاية إلى الوندال . حتى إذا كان ازدهار الإمبراطورية البيزنطية في عهد جوستينيان ، استطاع أن يحتلها وأن يربط بينها وبين القسطنطينية ، وأن يبعث إليها بأحكامه وحكامه .

ويلخص القول في صلات هذه الولاية مع بيزنطة : أنه كان هناك حقدٌ مذهبي منشؤه ما بين المذهب الرسمي المملكاني والمذهب الشعبي اليعقوبي — ونفورٌ سياسي منشؤه خصومات وثورات متصلة — واضطهادٌ مالي يترد إلى أن بيزنطة كانت تبتزّ خيرات هذه الولاية وتثقل عليها في الضرائب .. وإفريقية ، في ذلك كله ، صورة مصغرة لما كانت عليه مصر ، على بعض ما كان يورث الخلاف الحضاري من فروق . فلما جاء الإسلام كان بين المغرب وبين بيزنطة هذا الانقطاع ، وكانت بيزنطة لا تزال تترنّح تحت وطأة الهزيمة التي حلت بها في سورية ومصر فعجزت عن الدفاع ، ولذلك تقدم المسلمون لا يجدون مقاومة من الجيش البيزنطي ، ولكنهم عوّضوا عن ذلك سعة واسعةً وطولاً طويلاً في هذه البلاد لم يُمكن لهم أن يثبتوا أقدامهم فيها .. ولكنهم عوّضوا عن ذلك أيضاً مقاومة عنيفة من السكان أنفسهم ومن البربر بوجه خاص على ما سنرى ذلك .

٢ — حدود إفريقية :

١ — عند البيزنطيين : لم تسكن ولاية إفريقية البيزنطية مستقرة الحدود ، فكانت من الشرق تشمل طرابلس وبرقة حيناً ، وكانت تتخلل عنها لتسكون فيما تشمل ولاية

مصر حينئذ آخر. وكانت تمتد إلى الغرب تبعاً لامتداد نفوذ البيزنطة والمدى الذي تستطيع أن تنشر فيه سلطانها وتبسط ظلها. وعلى الجملة كانت قرطاجنة وما حولها وجه هذه الولاية الباسم وأبرز أجزائها، وكان يغلب عليها أن تقتصر على السواحل وعلى الأراضي المتصلة بالسواحل بين برقة وطنجة. فلم تكن لتمتد في الضرب إلى الجنوب فيما وراء السهول الساحلية بل كانت تترك هذه الأقسام الداخلية إلى أبناء البلاد أنفسهم: تترك المدن والقرى إلى البربر الذين أصابوا نصيباً من التحضر، وتترك الواحات إلى القبائل التي لم تتأثر بالحياة المدنية البيزنطية. ونشأ عن ذلك أن أصبح في وسعنا أن نميز بين الأقسام الساحلية التي تبدو فيها كل المظاهر البيزنطية في الإدارة والسياسة، وفي اللغة والدين، وفي كل مجالات الحضارة الأخرى، وبين الأقسام الداخلية التي كانت تقف دائماً موقف النزاع والخصومة كما رأينا، فلا يتيح ذلك للتأثيرات الحضارية أن تأخذ سبيلها إلى النمو، إذ كانت تعصف بها الثورات، وتدفعها القلاقل، وتضع العدوات حداً بينها وبين أن تنتشر أو تمتد.

ب — عند العرب: واستعمل العرب لفظ إفريقية في مثل ما استعمله به البيزنطيون واختلفوا في مثل ما اختلفوا^(١)، وكان أكثر الذي أرادوا منه ما وراء برقة أو ما وراء طرابلس إلى الغرب. فالبسكري فيما ينقل عنه ياقوت يقول: « حد إفريقية طولها من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً، وعرضها من البحر إلى الرمال التي في أول بلاد السودان^(٢) ». ويحدثنا ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب: « إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل^(٣) ». ومن الواضح أن مفهوم إفريقية في خطاب عمرو هذا يوشك أن يكون متطابقاً مع مفهوم ولاية إفريقية البيزنطية الذي أشرنا إليه، بل إن عبد الحكم يفرد الحديث عن فتح برقة^(٤) وطرابلس^(٥) ثم ينتقل فيتحدث عن فتح إفريقية في عنوان خاص^(٦).

(١) المؤنس ١٥ وأما أهل السير فيجعلونه (إفريقية) إقليمياً مستقلاً وله حدود ولهم فيها اختلاف.

(٢) ياقوت مادة إفريقية ٣٢٤/١ والمؤنس ص ١٦ (٣) ابن عبد الحكم ١٧٣

(٤) المصدر نفسه ١٠٧ (٥) المصدر نفسه ١٧١ (٦) المصدر نفسه ١٨٣

ولقد جعل المؤرخون العرب كذلك من قرطاجنة مركز هذه الولاية ، فهم يقولون : « إنه كان مُسْتَقَرَّ سلطان إفريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه ما بين طرابلس إلى طنججة^(١) » ولكن العرب لم يستعملوا لفظ إفريقية وحده وإنما أضافوا إليه لفظ المغرب وقصدوا به إلى كل مايقابل المشرق . ولذلك كان له عند كل واحد من المؤرخين أو الجغرافيين شمول خاص فكان يدخل فيه الأندلس حيناً ، وكان يستقر عند سواحل الأطلس حيناً ، وكان يبتدىء بالنيل مرة أو بطرابلس مرة أخرى ، وينقل ياقوت عن أبي الريحان البيروني « إن أهل مصر يسمون ما عن أيمنهم إذا استقبلوا الجنوب بلاد المغرب ولذلك سميت بلاد إفريقية وما وراءها بلاد المغرب يعني أنها فرقت بين مصر والمغرب^(٢) » .

ومهما يكن من شيء فقد غلب لفظ المغرب في الفرون المتأخرة على لفظ إفريقية وتقهقرت هذه اللفظة لتفسح مجالا لسلطان اللفظة الأخرى ، وأضحت ولا تكاد تجاوز في القرن السابع تونس الحالية إذ ينقل ياقوت : « وحد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية إلى بجاية وقبل إلى مليانة^(٣) » ويستقر ذلك عند أهل العلم فيقول ابن أبي دينار : « وعند أهل العلم إن أطلق اسم إفريقية فإنما يعنون بلد القيروان^(٤) » أعنى أن إفريقية أضحت تعنى القسم الشرقى من إفريقية الشمالية بينما تعنى كلمة المغرب القسم الغربى منها^(٥) . ولكننا في القرن الأول الهجرى ، فليس من شأننا أن نعرض لما كان بعد . ولذلك فسنستعمل لفظ المغرب أو إفريقية على السواء ، وسنعنى بذلك امتداد الفتوح بين طرابلس وسواحل المحيط الأطلسي .

٣ — مظاهر الحضارة فيها : بقى أن نلقى ضوءاً على حقيقة هذه البلاد التي سنعرض لها وأن نجاول عنها هذه الظلال السوداء التي تعودنا أن نلقاها بها . ويوشك

(١) ابن عبد الحكم ١٨٣ وقرأ نصاً مشابهاً في المؤنس ١٨

(٢) ياقوت مادة إفريقية ٣٢٤/١ - ٣٢٥ (٣) المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ص ١٤

(٤) فيليب حتى تاريخ العرب ٢٧٨/١

أن يكون مستقراً في أذهان الكثرة الكثيرة منا أن هذه البلاد كانت على حال متأخرة من الحضارة وأنها كانت تحيا حياة أقرب إلى البدائية . والواقع أننا ، إذ يساورنا هذا الفهم ، نفعل عن كثير من أحداث التاريخ وظواهره وتقدمه بالحياة الإنسانية : نفعل عن ذكر دور الحضارة الفينيقية التي جالت في إفريقية جولتها القوية والتي نازعت روما سلطانها في عنفوان هذا السلطان ، ونفعل كذلك عن ذكر دور الحضارة الرومانية في هذا الصقع من الأرض ، وما كان من انتشار البيزنطيين بعدهم ، وعن تلاقى هذه الحضارات الفينيقية والرومانية والبيزنطية ، وما ينتج هذا التلاقى من آثار وطوايع . والواقع أيضاً أن هذه الولاية مارست ألوانا من الحضارة في مختلف الحقب المتعاقبة ، وازدهرت في فترات متصلة ، وقد تكون أيام الوندال التي تلت حكم الرومان وسبقت حكم بيزنطة أياماً مظلمة ، ولكنهم تلبث أن تفتحت بعد ذلك حين استردها جوستينيان في القرن السادس ، فجددت صلاتها بهذا العالم الحضارى الذى كان آنذاك .

ومن غلبة الوهم أن نفكر أن هذه الولاية كانت دائماً بمثابة التابع من روما وبيزنطة ، على حين أنها كانت تمثل في كثير من المرات دور الشريك . وقد رأينا طائفة من أباطرة روما كانوا إفريقيين أو كانوا من إفريقية ولادةً أو زوجاً ، وأن إفريقية لعبت في حياة بيزنطة السياسية دوراً لا يمكن أن يوصف بأنه دور ضئيل ، وأن قدراً من الجيش البيزنطى أو من الحرس الإمبراطورى كان من سكان هذه الولاية ، وأنه أسهم في الحرب في إيطاليا ضد اللمبارديين ، وفي الحرب في البلقان ضد الآفاريين ، وفي الحرب ضد فارس في كثير من المواقع ، وأنه أسهم مساهمة قوية في إسقاط فوكس وتولية هرقل .

وكما كان الإفريقيون يغادرون بلادهم كان الرومان والبيزنطيون يأتون إفريقية ، وكانت تمتلئ بهم المدن الساحلية والثغور الحربية : يسيرون الإدارة ويمتهنون

التجارة ويستقرون في الأراضى مزارعين أو مواطنين ، وكانوا يحملون معهم أنماطاً من تراثهم وحضارتهم وأفكارهم ينثرونها فيما حولهم . ويحدثنا المؤرخون عن مظاهر انتشار اللاتينية وازدهارها فيما أقام الرومان من مدارس ، وعن أخذ المنقذين والسراة أنفسهم بها ، وعمّا كان من تأصل ذلك ، وظهور أثره في شعراء وكتاب نشأوا في إفريقية ونظموا وكتبوا باللاتينية . وأوشكت هذه المنطقة أن تسكون ملاذ الحضارة الرومانية حين عصفت بهاريم الموت كما كانت من قبل ملجأ الحضارة الفنيقية . ويحدثنا المؤرخون كذلك عن انتشار مظاهر الحضارة البيزنطية بعد ذلك ، وعن ازدهار فن العمار منها بنوع خاص فيما بنى البيزنطيون من قصور وحصون وكنائس وملاعب ، وما زينوها به من رسوم ونقوش ومن صور وألوان ، وما كان من غنى الآثار بالقاشاني ودقة الصنع فيه .

ويتصل بذلك ويسبقه أننا لا نكاد نجد صورة واضحة كذلك عن الحياة الزراعية الخصبة في الأجزاء الساحلية بوجه خاص من هذه الولاية ، ويغلب أن يكسوها في أذهاننا — تبعاً لما نتمثل من حياة البربر القبلية — ثوب صحراوي جاف ، وما من شيء يبعدها عن حقائق الأشياء كهذا التصور . فهذه الولاية تنعم بأرض خصبة وجو لطيف ، وتنتشر فيها السهول والمزارع ، وتترقق فيها الينابيع والجداول وتخضر حافاتها وأطرافها ، وتسكو جبالها الإحراج والأشجار ، ويفطى أرضها الزرع والنبات ، وتحيا حياة خصبة مترعة بالخير ، مكنت لها أن تُمَدَّ القسطنطينية دائماً بالسفن الموسوقة بالقمح والقوافل الحملة بالغلل .

لم تسكن هذه البلاد إذن في مثل فقر الصحارى وصفرتها ولكنها كانت خضراء مترفة ، ولم تسكن قليلة الحظ من الحضارة ولكنها كانت تتلقى التأثيرات الحضارية في مراحل الزمن المتعاقبة ، ولم يكن أهلها في معزل عن الحياة في العهدين الروماني والبيزنطي ، ولكنهم كانوا على صلة ما بهذه الحياة : مارسوا الحرب وخاضوها مع بيزنطة وضد بيزنطة ، مارسوا الإدارة في حدود ما أتاح لهم البيزنطيون

ذلك أيام كانت تصفو بينهم وبينهم العلاتق « فافرّ سلامون انطالاس على رأس قبائل الولاية الداخلية ، ويابداس على القبائل التي تسكن هضبة الأوراس يعاونه رئيسان صغيران ، وأقر ماسونا ماستيجاس على مرطانية بأقسامها^(١) ، وعاشوا صناعاتاً وزراعاً وتجاراً . وكان ذلك أشد ما يكون وضوحاً في المدن وفي المناطق الساحلية . وكلما كان التقدم نحو الداخل كان خفوت هذه المظاهر جميعاً وذبولها . فكان المجتمع هنا يشبه أن يكون المجتمع في الجزيرة العربية وفيما حولها من عرب الضواحي في العراق والشام ... كانت الأطراف الساحلية تمثل هذه الضواحي ، وكانت الأجزاء الداخلية تقارب أن تشبه الجزيرة ، لولا أن الجزيرة كانت أشدّ تعرضاً لتغيرات الحضارة وإحساساً بسير الحياة العالمية بحكم ما كان من مركزها الجغرافي في سرّة العالم وعلى ملتقى طرقه التجارية وقوافله ... ولكن هناك هذه المشاركة ، في حياة القبائل البدوية وفي حياة السكان المستقرين ، في حياة المدن وفي حياة الواحات ، في تعاقب مظاهر البداوة وفي تعاقب مظاهر الحضارة . ولعل ذلك أن يكون بعض ماسهل على العرب فتوحهم ، وممكن لهم من نشر الإسلام ، وأضاف إليهم هذا الدم الجديد الذي وصلهم بجنس آخر غير جنسهم ، وأمدّهم بنفحات من العزم قدّرت لهم أن يمتدوا بعد ذلك في أطراف أوروبا .

تلك هي الخطوط الكبرى لهذه الولاية الإفريقية في حدودها وتاريخها ومظاهر الحضارة فيها ، وما كان من شأنها في الفترة التي سبقت تطلّع المسلمين إليها وانسياحهم فيها ، ومدى ما كان يربطها ببيئة ويفصلها عنها . وهي خطوط لا بدّ منها في استجلاء الفتح العربي وفي التعرف إلى ما كان وراء هذا الفتح من انتشار الإسلام وغلبة العربية ، وتبادل هذا التأثير بين المهاجرين الوافدين عليها والمقيمين المستقرين بها . فلنحاول أن نُجمل فيما يلي تطور الفتح في خطوطه الكبرى متخلّين عن التفاصيل .

(١) حسين مؤنس فتح العرب للمغرب ٢٢ عن Caudel .

القسم الثاني — حركة الفتح

المرحلة الأولى

١ — كان فتح برقة وطرابلس أشبه بالمقدمة للانسياح في إفريقية ، وكان نجاح المسلمين في ذلك مُعْزِياً لهم على التقدم . وقد تمثل هذا النجاح في استعادة هذين البلدين استعادةً يحدثنا عنها ابن عبد الحكم بقوله : « ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها ^(١) » كما يحدثنا عنها البلاذري بقوله : « إن أهل برقة كانوا يبعثون بخراجهم إلى وإلى مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مُسْتَحِثٌّ فكانوا أخصب قوم في المغرب ولم تدخلها فتنة ^(٢) » . والروايات التاريخية تحدثنا أن عمرو بن العاص استأذن عُمرَ بن الخطاب في ذلك فكتب إليه : « إن الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل ^(٣) » ... ولكن عمر لم يأذن له ولعله رأى ، بعد هذا التمدد العريض ، حاجة المسلمين إلى فترة من الهدوء يثبتون فيها أقدامهم ، فاستقر بهم الأرض ، وتدين لهم الأطراف ، ويكونون على ثقة مما يستدبرون إذا أقدموا .

ب — وقد بدأ التهديد لافتتاح إفريقية بالاستيلاء على المناطق الداخلية في برقة وطرابلس ، وتأمين أن يكون من نحوها كَوْنٌ أو تحدث غارة . فاستولى المسلمون على وِدَّان وفَزَّان ، تولى عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري ابن خالة عمرو بن العاص أمرَ فَزَّان ، وتولى بُسر بن أبي أرطاة أمر وِدَّان أوائل سنة ٢٣ ، وتقدم المسلمون غربى طرابلس إلى صبره ^(٤) أو سبرت ، فكانت سبرت كما يقول التيجاني في رحلته

(١) ابن عبد الحكم ١٧٠ (٢) البلاذري فتوح البلدان ٢٢٤ (٣) ابن عبد الحكم ١٧٣

(٤) رواية ابن عبد الحكم عن فتح صبرة ١٧٢ « وكان من سبرت متحصنين ، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس وأنه لم يضع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم ، آمنوا . فلما ظفر عمرو بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير ، فصبغت خيله مدينة سبرت وقد غفلوا .. فدخلوها فلم ينج منهم أحد

« فائحة دخول إفريقية »^(١) . وأخذ اسم عقبة يتلألاً في هذه المناطق تمهيداً لما يكون بعد ذلك من إعجازه حين تستحيل هذه الغزوات الضاربة في الصحراء إلى فتح عريض .

ج — وفي مثل هذه المناطق المتسعة المجهولة لا تبدأ الحرب بسير عظم الجيش ، وإنما يحتاج الأمر أن تتقدمه الطلائع ، وأن ترود له البعوث الصغيرة الأرض وتعيجم المقاومة . وكذلك كان الأمر هنا . ويحدثنا ابن عبد الحكم أن عمرأ « كان يبعث الجريدة من الخليل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون »^(٢) ، وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يتابعه في ذلك فكان : « يبعث المسلمين في جرائد الخليل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون »^(٣) .

د — وقد استأذن ابن أبي سرح ، وكان ولي إفريقية في سنة ٢٥ ، عثمان في فتح إفريقية كما استأذن عمرو الخليفة عُمر من قبله ، « وأخبره بقربهم من حرز المسلمين »^(٤) . فأما عثمان فقد أذن « بعد المشورة في ذلك وانتدب الناس وأمر عليهم الحارث بن الحكم إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد ، مصر ، فيسكون له الأمر »^(٥) . ويحدثنا المالكي^(٦) في تفصيلات هذه المشورة وأنه فكر وأطال التفكير في ذلك ، وأنه جمع إليه وجوه المسلمين وقادة الرأي واستشارهم حتى انتهى بعد إلى الإذن .

هـ — وتقدم ابن أبي سرح من مصر فيمن عنده من جند وفيما بعث إليه عثمان من مدد في جيش يبلغ عشرين ألفاً ، ومضى يضرب في ولاية إفريقية . ويلخص ابن عبد الحكم هذه الحملة بقوله : « فلقية جرجير فقاتلة فقتله الله ، وكان الذي ولي قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير ، وهرب جيش جرجير ، فبعث عبد الله بن سعد السرايا وفرقها فأصابوا غنائم كثيرة ، فلما رأى ذلك رؤسائه أهل إفريقية طلبوا

(١) رحلة التيجاني ٩٢ عن فتح العرب للمغرب ٦٤ (٢) ابن عبد الحكم ١٧٣

(٣) نفس المصدر ١٨٣ (٤) رياض النفوس ٨ — ٩

إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ، ورجع إلى مصر ولم يولّ عليهم أحداً ، ولم يتخذ بها قيرواناً^(١) .

ولا تخرج التفصيلات التي يتحدث بها المؤرخون عن هذا الأصل ، يوسعون جوانب هذه الرواية بما يذكرون من قصص ، ويضيفون طائفة من الحوادث ، ويختلفون فيمن قتل جرجير أهو عبد الله بن الزبير حقاً أم غيره ، ويقصّون بعض الأساطير عن ابنة جرجير ، ويفصّلون في دور ابن الزبير في طريقة القتال ، ويتخذون ذلك سبيلاً إلى خلاف ما بينه وبين ابن أبي سرح ، ويتباينون تبايناً كبيراً في تقدير المال الذي صالح عليه عبد الله ، ولكنهم لا يخرجون عن أن ابن أبي سرح سار إلى برقة فانضم إليه عقبة ، ثم مضى فحاصر طرابلس وانصرف عنها « وكذلك فعل عند قابس^(٢) كأنه كان يقصد إلى قرطاجنة العاصمة مؤمناً أن الغلبة عليها ستفرط مقاومة الروم جميعاً ، وستؤدي إلى تساقط المعاقل والحصون » ، فلا خير في أن تستنزف قواه في حصار هذه المدن وإثارتها . ولذلك مضى حتى التقى بجرجير قرب سبيطة ، حيث دارت أكبر معارك هذه الحملة بعد مفاوضات غير مجدية لم ينزل فيها جرجير على الجزية أو الإسلام . فلما انتهت المعركة بالنصر كان ابن أبي سرح يبعث بالسرايا تضرب في هذه المنطقة أو تلك مما حول سبيطة ، حتى كانت العودة .

ولا تمتاز هذه الحملة بشيء كثير إلا بما كان من وفرة غنائمها . ويحدثنا ابن عبد الحكم : « أن منهم الفارس بعد إخراج الخمس بلغ ثلاثة آلاف دينار ؛ للفارس ألفا دينار ، ولفارسه ألف دينار ، وللراجل ألف دينار^(٣) » ، وأنه « كان يوضع بين يدي عبد الله بن أبي سرح السكّون من الورق^(٤) » . وفيما عدا هذه الغنائم كان رجوع سعد — ولم يولّ أحداً ولم يتخذ قيرواناً على حدّ تعبير ابن عبد الحكم — يبعث المؤرخ على أن يكثر من النساؤل .. ويبدو أن غنّيه عن الفسطاط خمسة عشر

(٢) حسين مؤنس ٨٤
(٤) ابن عبد الحكم ١٨٥

(١) ابن عبد الحكم ١٨٣
(٣) ابن عبد الحكم ١٨٤

شهرًا ، ووفرة ما حازه ، وخوفه أن يرتد الروم عن طريق البحر ، وقلة ما بين يديه من جند ، كل ذلك حمله على أن يجعل من هذه الحملة حملة كشف وريادة وأن يعود يؤمل أن يستأنف غزاته في عام مقبل . ولكن الأحداث لا تسمح له بذلك ، وتلح الفتنة على عثمان في المدينة ، وينصرف المسلمون أعوامًا عن الفتح ، ويقع الخلاف بين علي ومعاوية وتفتت حرارة الجند في الأطراف ، وتذهب عزيماتهم فيما كان من قصص القتال في العراق والفتنة في المدينة والترقب والحذر في الشام ، حتى إذا انتهى الأمر عام الجماعة إلى معاوية وولي مصر له معاوية بن حُديج بعد عمرو بن العاص ، بدأ المسلمون يتحركون نحو إفريقية مرة ثانية ليجددوا ، على آثار عبد الله بن سعد ، فتوحاتهم وليكملوا ما لم يوفقوا إلى إكماله من قبل .

آية هذا أن الخطوة الأولى في فتوح إفريقية كانت في خلافة عثمان ، وولاية عبد الله بن سعد ، واستمرت خمسة عشر شهرًا ، ولم تكن فيها معركة فاصلة ، وكل الذي كان فيها هذه الصلة بالأرض والتعرف لها والاستفادة مما كان قبل فيها سيكون بعد .

المرحلة الثانية

وحين استقر أمر المسلمين على معاوية استأنفت أطراف الدولة نشاطها الحربي ، واستأنف ولاية مصر فتوحاتهم في إفريقية ، وأبلى في ذلك معاوية بن حُديج السَّكُونِي بلاء كبيرًا ، وكان جاء واليًا لمصر في أعقاب ولاية عمرو بن العاص الثانية ، وابنه عبد الله ، وعقبة بن عامر الجهني الذي ظل حتى عام ٤٧ هـ . ويحدثنا ابن عبد الحكم « أنه غزا إفريقية ثلاث غزوات ، أما الأولى فسنة ٣٤ قبل قتل عثمان ، وأعطى عثمان مروان الخمس في تلك الغزوة ، وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس ، والثانية سنة ٤٠ — والثالثة سنة ٥٠^(١) .

(١) ابن عبد الحكم ١٩٤

وليس هنالك ما يؤكد أن هذه الغزوات ثلاث حقاً^(١)، ومهما يكن من شأنها فإنها لم تزد على أن حققت للمسلمين الغنائم من نحو، والتمرس بقتال هؤلاء الناس من نحو آخر، وأنها جددت صلتهم بهذه البلاد بعد انقطاع ثلاث عشرة سنة من نحو ثالث، غير أنها لم تحقق نصراً فاصلاً.. وكل ما كان فيها أن سار معاوية على رأس عشرة آلاف «بينهم جماعة من الأنصار والمهاجرين»^(٢)، فدخل ولاية إفريقية «واتخذ قيرواناً عند القرن»^(٣)، و«بعث عبد الملك بن مروان إلى مدينة يقال لها جلولاء»^(٤) في ألف رجل فحاصرها، ثم فتحت على يد عبد الملك أو على يد معاوية نفسه، وبعث ابن الزبير ففتح سوسة^(٥) ومضى هو إلى الشمال إلى بنزرت^(٥) فافتتحها. ولعل أبرز الظواهر في هذه الغزاة أن معاوية فكر في اتخاذ القيروان أو بدأ باتخاذها «فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر»^(٦). وذلك يعني دون شك أن المسلمين تنهبوا إلى حقيقة كبرى كانت هي العلة في بقاء فتوحاتهم في إفريقية، أعني هذا البعد بين مراكز الجيش في الفسطاط وبين الأرض التي يضرب فيها، فكان لا بد من نقطة ارتكاز جديدة يجعل منها المسلمون منطلقهم وموتنهم، أما أن يفصلوا من المدينة أو من الفسطاط، وهو على هذا البعد البعيد، فقد كان يذهب بقواهم ويستنفد جزءاً كبيراً من جهودهم.

ولعل مما يتصل من هذا بسبب أن معاوية في الشام أدرك ما يكون في بقاء مصر وإفريقية ولاية واحدة من أثر في شل عزائم القواد والاطمئنان إلى أن لهم خير

(١) ناقش الدكتور حسين مؤنس في كتابه فتح العرب للمغرب أمر هذه الغزوات وحدد عددها ومداها «١١٥ - ١١٩».

(٢) ابن عبد الحكم ١٩٣ نفس المصدر والصفحة ٠ وجلولاء قريبة من القيروان الحالية على ٢٤ ميلاً منها. وقرأ ما كتب عنها الدكتور مؤنس في ١٢٣ «هامش».

(٣) حسين مؤنس ١٢١ (٤) حسين مؤنس ١٢٣

(٦) ابن عبد الحكم ١٩٣. وقد حاول بعض المحدثين من المؤرخين أن يشك في اتخاذ معاوية للقيروان ويظهر أنه بنى شكه على أن الروايات كلها في ذلك روايات متأخرة كالباجي وابن الناجي والاسكي في رياض النفوس فقال الدكتور مؤنس ١٢٤: «يذهب نفر من المؤرخين إلى أن معاوية طال مكثه بناحية القرن غفر بها آباراً لاتزال تسمى آبار حديج، وأنه ابنتى بها دوراً سماها قيرواناً =

مصر إن لم يحققوا النصر في إفريقية ، وركزهم إلى ذلك وحرصهم عليه ، ففصل بين الولايتين ، وكان معنى ذلك أنه فصل بين الأمانة في مصر والقيادة في إفريقية ، فكان ذلك مما يضمن له أن يلهب عزمات هذه القيادة لأن خيرها الدينوي لن يكون فيما خلقت وراءها في مصر ، وإنما فيما تحقق أمامها في إفريقية من نصر .

آية هذا أن الخطوة الثانية في فتوح إفريقية كانت في خلافة معاوية ، وعلى يد معاوية بن حُديج ، وأغلب الظن أنها كانت في سنة ٤٥ أو ٤٦ ، وأن أبرز ما فيها اتخاذ القيروان أو البدء باتخاذها . وسيفيد الجيش الإسلامي من هذه البداية بعد ، وسيقيم في القيروان لا يغادرها إلى مصر ، وستكون القيروان مركز الغزوات المقبلة ومنطلقها .

المرحلة الثالثة

ويحدثنا ابن عبد الحكم في فصل عقده عن « ذكر من كان يخرج على غزو المغرب بعد عمرو بن العاص وفتوحه ^(١) » فيذكر بعد معاوية بن حديج ، عقبة بن نافع بن عبد القيس القهري « وخروجه سنة ٤٦ ^(٢) » ومعه بُسر بن أبي أرطاة وشريك ابن سمي المرادي فأقبل حتى نزل بمغمداش من سُرْت ^(٣) .

١ — ولقد لقينا عقبة قبل اليوم على رأس السرية التي بعث بها عمرو بن العاص

== في موضع القيروان قبل أن يأتي عقبة . ولكن ذلك كله مشكوك فيه ، ويجوز أنه ابتنى بعض المساكن للجنود واحتفر آباراً لسقيهم ، أما أن يكون قد فكر في ابتناء المدينة فغير صحيح ولا وجود له في المراجع الأصلية الأولى كابن عبد الحكم والبكري والبلاذري وابن الأثير . والواقع أن ابن عبد الحكم تحدث عن ذلك في إشارة واضحة ، على عادته في تركيز أخباره فقال ١٩٣ : « واتخذ قيرواناً عند القرن فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر » . ويبدو أن الدكتور مؤنس قد سها عن هذا النص .

(١) ابن عبد الحكم ١٩٢

(٢) يصحح الدكتور مؤنس هذا التاريخ ويرجح أن يكون سنة ٤٩ . ويرى في هذا الترجيح استقامة الحوادث السابقة واللاحقة . أنظر ١٢٧ فتح العرب للمغرب .

(٣) ابن عبد الحكم ١٩٤

إلى فزان^(١) ومدى ما أصابه من نجاح ، ولقيناه كذلك يستقبل في برقة عبد الله بن سعد بن أبي سرح حين فصل من مصر^(٢) وكان أميراً على ما فتح من إفريقية ، ولا ندرى هل شاركه في غزاته أم ظلّ يربط حيث هو في برقة . وخلاصة ما كان من أمر عقبة هنا ، أنه سار حتى نزل بمغمداش من سُرّت ، فترك فيها بعض جيشه مستخلفاً عليه عمر بن عليّ القرشي وزهير بن قيس البلّويّ ، ومضى هو يخضع بعض المناطق الداخلية مثل ودان التي نقضت عهدها مع بُسُر وبعض مناطق فزان فاستولى على حصونها وقصورها . ويقص علينا ابن عبد الحكم عن هذا الاتجاه في سير عقبة حديثاً مفصلاً^(٣) .

ب — فإذا استقادت له هذه المناطق الداخلية « ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جمّت خيولهم وظهورهم ، فسار متوجهاً إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض مَزَاتة فافتتح كل قصر بها ثم مضى إلى . . فافتتح قلاعها وقصورها ثم بعث خيلاً إلى غدامس فافتتحت غدامس ، فلما انصرفت إليه خياله سار إلى قفصة فافتتحها وافتتح قسطنطينية ثم انصرف إلى القيروان^(٤) » .

ح — ولم يمارس عقبة في القيروان حرباً ، ويبدو أن القسطنطينية لم تكن تستطيع أن تمد إفريقية بشيء لأنها كانت آنذاك هدفاً لحصار معاوية لها « ٤٩ — ٥١ هـ » ، ولم يكن في وسع الروم أن ينقذوا بلادهم ، وكان عقبة يدرك أهمية الخطوة التي بدأها معاوية بن حُديج في تأسيس القيروان حتى يكون ملاذاً للمسلمين ومستقراً لهم ، فلا يكون كل شأنهم في حروب إفريقية الانتصار عليها والارتداد عنها . ولهذا نجد أنه ينصرف عن الحرب إلى السلم ، وعن تخريب الحصون إلى بناء الحصون ، وعن هدم المدن إلى بناء المدن ، « ولم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حُديج بنائه قبله ولذلك يركب والناس معه حتى يأتي موضع القيروان اليوم ، وكان وادياً كثير

(١) اقرأ المراحل السابقة الأولى والثانية (٢) ابن عبد الحكم الصفحات ١٩٤ - ١٩٦

(٣) ابن عبد الحكم ١٩٦

الشجر كثير القطف^(١)» فيخطط هذه المدينة ويضع بذلك أسس إفريقية الإسلامية . .
أترى كان يحول في ذهن عقبة آنذاك وهو يرکز رجه يخطط المسجد ودار الأمانة
أنه إنما يفتح أمام الإسلام أفقاً واسعاً جديداً من آفاق النفوذ العالمى سيصل به بعد
إلى مجاز أوربا ، وسيطوى هذا الحجاز ليتوقف عند « الپيرنيه » ثم يطوى « الپيرنيه »
لتكون « پواتيه » آخر الأرض التى يبلغها ؟ .

مهما يكن من شئ فقد قضى عقبة السنوات التالية فى تخطيط القيروان ، وكان
هذا أبرز اعماله ، ولكنه كان لا يفتأ يبعث بالسرايا فى الغزوات هنا وهناك ، لا يلقى
كبير كيد ولا يلقى كذلك كبير غنم .

فى وسعنا أن نقول إن هذه المرحلة من فتح إفريقية كانت تخالف عن المراحل
السابقة عليها من نحو عسكري ومن نحو إدارى . . فأما من النحو العسكري فهى قد
تشبه الخطوات السابقة فى أنها لم تكن إلا انسياحاً ليس فيه هذه المعركة الفاصلة
التي تثبت إقدام المسلمين فى هذه الولاية ، ولكنها تختلف عنها فى أن عقبة لم يعض
فى الطريق الساحلى الذى مضى فيه ابنُ سرح ومعاوية من قبله ، وإنما أخضع
الأجزاء الداخلية أولاً ، التي كان أخضعها هو وبُسْر من قبل ، والتي انتقضت فى
هذه الفترة . . ثم عاد إلى جيشه فجانب به الطريق الأعظم ، على حد تعبير ابن
عبدالحكم ، وأخضع بعض المدن فى طريقه إلى القيروان .

وأما من النحو الإدارى فقد كان عمل عقبة العظيم تأسيسه للقيروان ، أعنى
تأسيسه لولاية إفريقية الإسلامية التي ستقطع ما بين الجند وبين مصر ، والتي ستثير
الجند أن يندفعوا فى فتوحاتهم حتى يكون لهم ما لإخوانهم فى الإقطار الأخرى من
مدن وولايات يغلب عليها الإسلام .

المرحلة الرابعة

فإذا انتهى ابن عبد الحكم من حديث عقبة بدأ حديث أبي المهاجر دينار . . وهو يُجَمِّلُ ذلك ، فيما عدا حديثه عن إساءته لعقبة ، بالجلل التالية : « . . فلما قدم أبو المهاجر إفريقية كره أن ينزل في الوضع الذي اختطه عقبة بن نافع ومضى حتى خلفه بميلين فابتنى ونزل . وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون إفريقية ثم يقفلون منها إلى القسطنطين . وأول من أقام بها حين غزاها ، أبو المهاجر مولى الأنصار ، أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلاً^(١) » .

فابن عبد الحكم لا يحدثنا عن غزوات دينار وإنما يكتفى بأن يلاحظ هذه الظاهرة الواضحة في غزواته ، وهي إقامته بالمسلمين في إفريقية واتخاذها منزلاً لا يبادرونه إلى القسطنطين . وذلك ، لاشك ، تعبيراً عن اتجاههم إلى إخضاعها وعزمهم عليه . . ويكون دينار قد حقق حلقة جديدة في سلسلة هذا التطور الذي بدأه معاوية بن حُذَيْج ، ثم أنفذه عقبة وكان أكبرهم ، ثم جاء دينار فمضى في إثرهما وإن كان قد أهمل قيروان وعقبة وابتنى قريباً منه فيما حدثنا به ابن عبد الحكم . والخلاف في أعمال دينار الحربية وتحديد مداها وتاريخها وتتابعها شديد بين المؤرخين الشرقيين والمغربيين والمستشرقين ، والذي نستطيع استخلاصه من هذا الركام المتداخل أنه كان هناك غزوتان لدينار :

الغزوة الأولى .. التي بلغ فيها تلمسان في المغرب الأوسط ولقي فيها البربر بقيادة كسيلة ، وكان آل إليه ملك البربر ، فهزمهم وانتهى الأمر بكسيلة إلى الإسلام . ودينار في هذه الغزوة يبلغ المغرب الأوسط أو أقاصيه ، ويضرب في أرض هي أبعد مما ضرب من قبله ، ويفتح أمام المسلمين أرضاً جديدة ويضم إلى الإسلام كثيراً من القبائل التي نفترض أنها تابعت كسيلة في إسلامه .

والغزوة الثانية ... هي التي توجه بها إلى قرطاجنة فحارب أهلها حرباً كثر فيها

القتلى بين الفريقين ثم صالحهم على أن يُخلّوا له الجزيرة^(١) . . . ويبدو دينار في هذا الصالح قائداً بعيد النظر لا تلفته الغنيمة قدّر ما يلفته الاستيلاء على الأرض والتمسكين للمسلمين منها ، وهى بعد أرض لها في مجال العمل الحربى أثر كبير لأنها تبرز من أمام ، كنتوء كبير في البحر ، يستطيع أن يحمى ما وراءه من أقطار ، ويردّ غارات الروم البحرية المفاجئة .

المرحلة الخامسة

وينتهى دور أبى المهاجر دينار لبدء دور عقبة بن نافع من جديد ، فقد ردّه يزيد بن معاوية إلى ولاية حرب إفريقية بعد أن مات مسلمة بن مخلد الذى كان جمع له معاوية مصر والمغرب وعزل عقبة . . . ويستأنف عقبة عمله من حيث عزل عنه فقد تابع بناء القيروان من نحو ومضى فى غزواته من نحو آخر ، ويبدأ فى تاريخ فتوح المغرب عهداً جديداً يمتاز بالغزوات الكبرى من جهة كما يمتاز بمقاومة البربر العنيفة من جهة أخرى ، ويواكبه فى حياة بيزنطة نوع من التساهل الدينى كان صاحبه قسطنطين الرابع « ٦٦٨ - ٦٨٥ م » وبهذا التسامح ، الذى أورث لونا من التعاون بين البربر والبيزنطيين ، يفسّر بعض المؤرخين وجهاً من وجوه مقاومة البربر واستعصاء أمرهم واعتراضهم كل خطوة يخطوها المسلمون وتغلّبهم بعد ذلك على عقبة وارتداد المسلمين إلى برقة .

ويبدو أن عقبة لم يقدّر من عمل دينار ولم يتابع خطاه . وقد رأينا أن ديناراً وفق إلى أن يضمن ولاء البربر بما كان من إسلام كسيلة ، أو بما كان من حلفه له على الأقل ، إن لم نصدّق رواية إسلامه ، وأن يفرغ للروم فينزلون له عن جزيرة شريك أما عقبة فقد فصل من القيروان وخلف عليها زهير بن قيس البلوى ومضى ، ومعه أبو المهاجر فى وثاق من حديد^(٢) ومعه كسيلة فى مثل هذا الوثاق ، كأنما كان يخشى

(١) الجزيرة هى ما يسمونه جزيرة ابن شريك وهى هذا التوء الأرضى الذى يمتد فى البحر كاللسان العريض ويؤلف شبه جزيرة ويكون مفتحاً قرطاجنة وما وراءها من ولاية إفريقية . ويقول عنها صاحب المؤنس ٢٦ هى الجزيرة المعلومة فى زماننا هذا وكانت عامرة فى ذلك الوقت وبها مدن وقصور كثيرة وخيرات ومزارع حسنة ، وهى بين مدينة سوسة ومدينة تونس . وسميت جزيرة شريك نسبة إلى شريك العيسى الذى كان والياً عليها . (٢) ابن عبد الحسك ١٩٨ والمالكى ٢٢

من كسيلة أن يثير قبائل البربر انتقاماً لصديقه أو لحليفه أبي المهاجر ، أو كأنما كان يريد أن يستهين بالقبائل البربرية التي تعنوا له . ولم يأبه لنصيحة دينار إذ قال له : « ما هذا الذي صنعت ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي وعُيَيْنَةَ بن حصن ، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومك في دار عزّه ، قريب عهد بالكفر ، فتفسد قلبه ؟ تَوَقَّ من الرجل فأني أخاف فتكك^(١) . وما من شك في أن تحدّي البربر هذا سيثير في طريق عقبة كثيراً من الصعوبات ، وسينتهي به إلى موقعة تهودة ، حيث يُسْتَشْهَد بكل من معه من المسلمين . ومهما يكن من شأن التفاصيل الكثيرة فإن عقبة بلغ في غزاته هذه طنجة ودخل السوس الأدنى » وجوّل لا يعرض له أحد ولا يقاتله^(٢) . . . » وأوطأ فرسه الماء حتى بلغ الماء صدره وقال قولته المشهورة : « اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يُعْبَدَ أحدٌ من دونك^(٣) » .

« .. ثم انصرف إلى إفريقية — يقصد القيروان — فلما دنا من ثغرها أمر أصحابه فافترقوا عنه ، وأذن لهم حتى بقي في قلة ، فأخذ على مكان يقال له تهودة^(٤) » وفي خلال هذه الغزوة الطويلة كان عقبة ، كما يظهر ، قد أهمل أمر كسيلة ، وكان كسيلة يتغافل عقبة ليراسل أهله^(٥) ، ولعلّه أن يكون قد هرب بعد ذلك لأن الروايات التاريخية — على ما بينها من خلاف في المقدمة في سير عقبة إلى طنجة ورجوعه إلى إفريقية — تتفق على أنه « حين أخذ على مكان يقال له تهودة^(٦) عرض له كسيلة في جمع كثير من الروم والبربر ، وقد كان بلغه افتراق الناس عنه ، فاقتتلوا

(١) المالكي في رياض النفوس ٢٦ (٢) ابن عبد الحكم ١٩٨

(٣) المالكي رياض النفوس ٢٥ (٤) ابن عبد الحكم ١٩٨

(٥) يستنتج الدكتور مؤنس ذلك من قول ابن خلدون ١٨٦/٤ فاتهن فيه الفرصة وارسل للبربر فاعترضوا عليه في تهودة . حسين مؤنس ١٩٦ « هامش »

(٦) تهودة في المنطقة التي تسمى اليوم سيدي عقبة جنوبي بسكرة في الجزائر حيث يقوم مسجد يضم ضريح عقبة الذي أضحي مزاراً وطنياً . واقرأ ما كتب عنها ابن عذاري ١٧/١ .

قتالا شديداً فقتل عقبة ومن كان معه وقتل أبو المهاجر وهو موثق بالحديد . ثم سار كسيلة بن أمزَم ومن معه حتى نزلوا الموضع الذي كان عقبة اختطه فأقام به وقهر من قُرب منه من باب قابِس وما يليه وجعل يبعث أصحابه في كل وجه ^(١) .

واستثمر كسيلة نصره « فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية ، وقصد إفريقية وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم ، ودخل القيروان واستولى على إفريقية وأقام بها إلى أن قُوى أمر عبد الملك ^(٢) » . ولم ينفع زهيراً بن قيس البلوى — وقد كان خلف عقبة على القيروان حين فصل — أن يحاول المقاومة ، فقد فت استشهاده عقبة في عزم الجند ، واجتمع عليهم الأسى والخلاف ، وأصر جيش « أو حنش » الصنعاني على أن يعود بمن معه متخلياً عن تراث مهاجر في جزيرة شريك ، وكان معه أكثر الناس ، فاضطر زهير أن يعود معهم ، فمضى إلى برقة حيث رابط فيها . وسرى أنه سيظل في برقة « حتى يقوى أمر عبد الملك بن مروان فيستعمله على إفريقية ^(٣) » .

لم يعد هنالك إذن بعد هذه الهزيمة العاتية مكان للجيوش الإسلامية في إفريقية وعاد الأمر كما بدأ أيام عمرو . . كان هنالك مسلمون من البربر آمنهم كسيلة كما يبدو من نص ابن الأثير المتقدم ، ولكن الموقف الحربي انقلب رأساً على عقب . والنصر الذي حققه المسلمون في خلال هذه السنوات منذ كانت جرائد الخيل التي كان يبعثها عمرو ، والانسياح الذي مضوا فيه حتى أوطأ عقبة فرسه من شاطئ المحيط ، آل إلى هذه الهزيمة الأليمة . . فغلب البربر والروم على هذه الأرض التي سقاها المسلمون بدمائهم « ودخل كسيلة القيروان واستولى على إفريقية وأقام بها ^(٢) » . وكانت مأساة تهوذة هي أقسى ما لقي المسلمون في فتوح المغرب وقد تسكون أقسى ما لقوا في الفتوح الأخرى ، فلم نشهد إلا مرة واحدة ^(٣) أن الجيش قد فنى

(٢) ابن الأثير ٩١/٤

(١) ابن عبد الحسك ١٩٨

(٣) كان ذلك في فتوح طبرستان إذ هلك جيش مصقلة فضرب الناس به المثل فقالوا : « حتى

يرجع مصقلة من طبرستان » البلاذري ٣٣٥

كله ، ولم نشهد مرةً أن حركة ارتداد شملت الأفطار المفتوحة بمثل هذه السعة الواسعة من طنجة إلى القيروان أو برقة .

لقد خرجت إفريقية من يد الجيش الإسلامي ولسكنها لم تخرج من يد المسلمين ... فقد كانت أسلمت قبائل من البربر ، وكانت بقية الجيش الباقية في برقة تنتظر ساعة الثأر ، وكان لابد من جولة جديدة بقيادة رجل حازم وفي عهد خليفة حصيف تدين له الأمور حتى يُولى فتح إفريقية اهتمامه . . هذه الجولة كانت هي المرحلة التالية للفتوح وكانت بقيادة قيس بن زهير البلوى وفي عهد عبد الملك بن مروان .

المرحلة السادسة

وينقل ابن عبد الحكم من حديث عقبة إلى حديث حسان بن النعمان ، لا يفرد قيس بن زهير ، وإنما هو يحمله مع ما أجمل من حديث عقبة فيقول : « ويقال إن عبد العزيز بن مروان لما ولى مصر كتب إلى زهير بن قيس ، وزهير يومئذ ببرقة ، يأمره بغزو إفريقية ، فخرج في جمع كثير فلما دنا من قونية ، وبها عسكر كسيلة بن لمزم ، عبأ زهير لقتاله ، وخرج إليه فاقتتلا ، فقتل كسيلة ومن معه ، ثم انصرف زهير قافلاً إلى برقة^(١) » . فعزوة زهير لم تكن إذن إلاقلاً لكسيلة وهزيمة له وعودة إلى برقة . . ولكن لم يكن عبد العزيز بن مروان هو الذى ابتعثها وإنما كان ذلك عبد الملك وقد شقّ عليه ما آل إليه أمر المسلمين في إفريقية « واجتمع أكابر المسلمين عليه يسألونه تخليصها ومن بها من المسلمين من يد كسيلة اللعين^(٢) » فندب الناس إليها على شدة حاجته إلى الجند في تهدئة الثورات التى كانت تقوم بين يديه ومن خلفه في الشام والعراق والمدينة « وأمدّ زهيراً بالخيال والرجال والأموال وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه إلى إفريقية^(٢) » . وإنما اختار عبد الملك زهيراً لقيادة هذا البعث لأنه كان « مثله ديناً وعقلاً^(٢) » ولأنه كان من رؤساء العابدين

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ١٨ - ١٩

(١) ابن عبد الحكم ٢٠٠

وأشراف المجاهدين^(١) . وقد عرفنا بحجة زهير لعقبة إذ خلفه على القيروان حين سار في غزاته الطويلة إلى طنجة^(٢) .

وسار زهير فيمن معه من العرب وفيمن انضم إليه من البربر ، واتخذ الطريق الساحلي الذي سلكه القواد من قبله حتى انتهى إلى القيروان فعسكر بجوارها ، وكان كسيلة قد نذر به ، فتخلى عن القيروان وتحصن في ممش قريباً منها إلى المغرب ، فانطلق إليه زهير ، وكانت بينهما معركة عنيفة « نزل فيها الضرّ وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة . فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل . ومضى الناس في طلب البربر والروم فلاحقوا كثيراً منهم وقتلوه ، وجدّوا في طلبهم إلى وادي ملوية بالمغرب . ففي تلك الواقعة ذهب رجال الروم والمشركون ، وقتل ملوكهم وأشرافهم وفرسانهم . ثم انصرف زهير إلى القيروان فأوطنها^(٣) » . وكذلك انتقم المسلمون لاستشهاد عقبة ومقتلة جيشه بمعركة ممش هذه ، وكان لها من الأثر الكبير في نفوس البربر الذين كانوا يقاومون المسلمين ، مثل الذي كان لمعركة تهودة في نفوس المسلمين من أثر قبل ، فتكا في العضد وإثارة للارعب . وعاد زهير أدراجه إلى برقة مكثفياً بما حقق من نصر ، ولقي في برقة وجهه ربه مستشهداً في معركة مع الروم الذين كانوا نزلوا برقة مستغفدين من غيابه عنها ، على ما يحدثنا ابن الأثير : « وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة فاغتنموا خلوها فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبياً كثيراً وقتلوا ونهبوا ... ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة ، فأخبر الخبر ، فأمر العسكر بالسرعة والجدّ في قتالهم^(٤) »

وهكذا يبدو أن زهيراً استطاع أن يردّ إلى الإسلام في إفريقية شيئاً مما فقدته بمقتل عقبة . . وكان استشهاد عقبة في برقة سبباً جديداً في استئثار المسلمين كما كان استشهاد عقبة من قبل . وسنلاحظ فيما يلي أن الدولة الأموية ستدرك ما كان لنزول

(٢) اقرأ المرحلة السابقة الخامسة

(٤) ابن الأثير ٩٢/٤

(١) المالكي في رياض النفوس ٢٩

(٣) ابن عذاري المراكشي ٦٠

الروم في برقة من معنى ضخم يتهدد حياة الدولة الإسلامية وما يكون لمقتل زهير من اجترائهم وتقدمهم ، ولذلك ستولى هذا الوجه ههنا ، وستولى على المغرب واليا هو حسان بن النعمان ، يتم خطى زهير ويثبت للمسلمين أقدامهم في هذه البلاد التي نزلوا عنها ، ويحاول القضاء على كل مقاومة للروم فيها .

المرحلة السابعة

نستطيع أن نلخص عمل حسان في فترتين اثنتين :

في الفترة الأولى — دخل القيروان وسقطت بين يديه قرطاجنة^(١) وهرب أهلها وعاود هو الكرة عليها وألحق بها أذى شديداً « حتى صارت كأمس الغابر »^(٢) وحقق للمسلمين نصراً كبيراً . فلما سار يطلب الكاهنة بعد كل هذه المواقع التي خاضتها ، استطاعت الكاهنة أن تلحق به هزيمة شديدة في معركة على نهر « نيني » وأن تتبع فلالة حتى اضطر أن يترد إلى طرابلس خارجاً عن إفريقية كلها مخلفاً عليها أبا صالح مولاه ، وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم : « ثم قدم حسان بن النعمان واليا على المغرب ، أمره عليها عبد الملك بن مروان في سنة ثلاث وسبعين ، ومضى في جيش كبير حتى نزل طرابلس واجتمع إليه بها من كان خرج من إفريقية وطرابلس ، فوجه على مقدمته محمد بن أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي وزهير بن قيس ، ففتح البلاد وأصاب غنائم كبيرة وخرج إلى مدينة قرطاجنة وفيها الروم ، فلم يصب فيها إلا قليلا من ضعفاءهم فانصرف ، وغزا الكاهنة وهي إذ ذاك ملكة البربر ، وقد غلبت على جل إفريقية فلقبها على نهر يسمى اليوم نهر البلاء ، فافتتلوا قتالاً شديداً فنهزمته وقتلت من أصحابه وأسرت منهم ثمانية رجال ، وأفلت حسان ونفذ من مكانه إلى إنطابلس فبرزل قصوراً من حيز برقة فسميت قصور حسان واستخلف على إفريقية أباصالح^(٣) . »

(١) يقول ابن عذارى ٢٣ ويسميا أهل تونس اليوم المعلقة . . وهي من مدينة تونس على اثني عشر ميلا وكان بينهما قرى متصلة عامرة . ويقول عنها صاحب المؤنس ص ٣١ : مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها وبينها وبين تونس ١٢ ميلا وبين تونس والقيروان مائة ميل .

(٢) ابن عذارى ٢٤

(٣) ابن عبد الحكم ٢٠٠

وأضحى موقف المسلمين حرجاً شديداً الحرج : وإلى المغرب وقائدُ الجند يقيم في برقة ، وقلةٌ من ضعفاء المسلمين في القيروان كان في وسع الكاهنة أن تقضى عليهم ساعة تشاء ، ولكن الكاهنة لم تستثمر نصرها في مهاجمة القيروان ، وإنما جاء القيروان الخطرُ من البحر في هذه المرة أيضاً ، فقد شقَّ على الروم أن تسقط قرطاجنة بين يدي حسان ، فأعدّوا أسطولاً كبيراً على رأسه البطريق يوحنا . . « وظهر هذا الأسطول في قرطاجنة سنة ٦٩٧ م ٧٨ هـ ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة في يسر ، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها ، وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة ، حتى انه كان ليقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانس ونقفور^(١) » .

وهكذا يبدو أن المسلمين خسروا كل شيء في إفريقية : تعاوَنَ البربر والروم على تجريدهم من كل الأراضي التي نزلوها ، واحتلَّ البربر الأقسام الجنوبية الصحراوية ، وعادت الروم هذه الأقسام الشمالية الساحلية ؛ غير أن طبيعة الحرب في إفريقية لا تساعد على اليأس ، فما أكثر ما دخل المسلمون هذه البلاد وما أكثر ما خرجوا عنها ، ولكنهم كانوا في كل مرة يزدادون جرأةً عليها وتمكناً منها . . وسنرى أن الفترة الثانية في عمل حسان ستمكّن له من ذلك ، وسترد إليه النصر الذي افتقده في حركة يوحنا وفي حركة الكاهنة ، وسيكون لطائفة من الأسرى^(٢) الذين اختطفتهم الكاهنة وعلى رأسهم خالد بن يزيد دورٌ كبير في خدمة المسلمين وفي تمهيد الطريق لهم^(٣) ، كما سيكون لسيرة الكاهنة بالبربر وتخريبها للأرض^(٤) أثره في استقبال المسلمين استقبالا لا قسوة فيه .

(١) الدكتور مؤنس فتح العرب للمغرب ٢٥٤ عن ديبيل .

(٢) ابن عبد الحكم ٢٠٠ فأحسن الكاهنة إيسار من أسرته من أصحابه ، وأرسلته إلى أرجلا منهم من بني عبس يقال له خالد بن يزيد فتبنته وأقام معها . وقرأ ابن عذارى ٢٧ . وقد كان خالد هذا غنياً للعرب . (٣) اقرأ تفصيل ذلك عند ابن عبد الحكم ٢٠١ وابن عذارى ٢٨

(٤) ابن عذارى ٢٦ وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين . فلما رأَت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما =

الفترة الثانية — أقام حسان في برقة ، وكتب إلى عبد الملك يستمده ، فأمدّه في سنة ٨١ وأمره بالسير إلى إفريقية ، فسار بطوى الأرض حتى وصل قابس ، ويحدثنا النويري^(١) أنه « لما قرب حسان من البلاد ولقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون به من السكاهنة ، فسرّه ذلك ، وسار إلى قابس فلقية أهلها بالأموال والطاعة ، وكانو قبل ذلك يتحصنون من الأمراء » ، وهي رواية لا تعنى الروم أنفسهم ، ولكنها تدل على أن أهل البلاد أحسنوا استقبال العرب بعد الذي لقوا من السكاهنة ، ثم جاز حسان قابس ، والتقى بالسكاهنة فيزمها .

ويلخص ابن عبد الحكم ذلك ، بعد أن يبين عن دور أسرى المسلمين ، وخالد بن يزيد بخاصة ، في جيش السكاهنة فيقول : « فضى حسان ومن معه ولقي السكاهنة في أصل جبل ، فقتلت وعامة من معها ، وسميت بئر السكاهنة^(٢) » .

وكذلك خلصت لحسان هذه الأرض ، ونفى عنها مقاومة البربر ، ويبدو أنه استطاع كذلك أن ينفي الروم عن قرطاجنة فاستقادت له البلاد كلها .

وسيشهد المسلمون في إفريقية بعد مقتل السكاهنة وجلاء الروم أول فترات الاستقرار المتصلة .. لن يغادروا هذه الأرض بعد اليوم ، ولكنهم سينطلقون منها منها لإخضاع ما تبقى من المغرب الأوسط واسقصى ، وسينفذون من هناك إلى الأندلس ، وسيكون لهم في هذا الجزء من العالم تاريخ حتى .

وأحسن حسان أن الأمر قد صفا له ، وأنه لن يلقى مثل مصيره في الفترة الأولى ، ولن يلقى كذلك مثل مصير القادة الذين سبقوه ، ولن يقوم كسيلة آخر أو كاهنة جديدة ، فأولى الناحية الإدارية جُلّ اهتمامه ... ألقى عن كتفيه عدة الحرب

= نريد المزارع والمراعى فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى يبأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر . فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون .. غفرت السكاهنة ، لعنّها الله ، ذلك كله ، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير ، مستغيثين مما نزل بهم من السكاهنة ففرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية .

(١) نهاية الأرب الجزء الثاني والعشرون « غرناطة » (٢) ابن عبد الحكم ٢٠٠-٢٠١

ونفا عنه الدرع ولبس ثوب الولاية » . . فبنى مسجد الجماعة في القيروان ، ودون الدواوين ، ووضع الخراج على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر^(١) . . » وذلك يعني أن كثيرين من البربر دخلوا في الإسلام وأنهم انخرطوا في نطاق هذه الجماعة الجديدة .

ولم يكن هذا كل ما فعل حسان ، ولكنه خطا خطوة واسعة في إقرار الأمر للمسلمين فبنى مدينة تونس^(٢) إلى جنوب قرطاجنة القديمة^(٣) ، وأراد أن تقوم للمسلمين مقام قرطاجنة للروم : عيناً تحرس الشواطئ ، وداراً للصناعة تبني فيها السفن ، وميناءً تجارياً يصل بين الساحل والداخل^(٤) .

كان هنالك للمسلمين قبل حسان مدينة واحدة داخلية ، أما الآن فقد أضحي لهم مدينة أخرى جديدة تطل على البحر وتفتح أمامهم آفاقاً فسيحة سيخوضونها في المستقبل إلى صقلية وسردينية وإيطاليا .

المرحلة الثامنة

وتخلى حسان عن ولاية إفريقية وقفل إلى دمشق . ويدو أنه كان بينه وبين عبد العزيز بن مروان وإلى مصر جفاء ، وكان عبد العزيز يحكم مركزه المتوسط بين دمشق وإفريقية ، وقربته من الخليفة — قادراً أن ينال العمال بالأذى إن قصد إلى ذلك ، وكان بطمح أن تكون ولاية إفريقية ملحقة بمصر ، ولم يكن العمال اللذين يقودون كل هذه المعارك العاتية ليرضوا إمرة عبد العزيز واستعلاء عليهم ، ولذلك نجد في حوادث هذه الفترة كثرة من الحصومات بين وإلى مصر وبين قواد إفريقية : كان ذلك بين عبد العزيز وزهير بن قيس ، وكان كذلك بين عبد العزيز وبين حسان^(٥) . .

(١) ابن عبد الحكم ٢٠١ وابن عذاري ٢٩-٣٠ وفي المؤنس ٣٢ وكتب الخراج على النصارى وعلى من تمسك بدين النصارى من البربر (٢) المؤنس ١٣ في موضعين (٣) المؤنس ١٠ تونس من بلاد إفريقية بينها وبين القيروان أربع مراحل ، وهي مما بناه بنو أمية . والمدينة القديمة الرومية اسمها قرطاجنة . (٤) المؤنس ١٢ . (٥) ابن عذاري ٣١ وذكر ابن القطان أن عزل حسان وولاية موسى كان من قبل عبد العزيز ابن مهوان دون أمر أخيه عبد الملك ولا مشورته .

وانتهى الأمر إلى أن آل أمر إفريقية إلى رجل من أتباع عبد العزيز هو موسى ابن نصير .

وقد جاء موسى بن نصير إفريقية بعد هذه الحروب التي استمرت خمسين عاماً كانت خمدت فيها المعارك وخبت الثورات وملّ البربر والروم وسكان المدن هذه القصة التي لا تهدأ.. قصة الدماء والقتال والقلاع والحصون والخوف والجلاء . وكان أسلم كثير من البربر ، ولذلك بدأ موسى عمله يسيراً سهلاً . ويحدثنا ابن عبد الحكم أنه افتتح عامة المغرب ووتر فتوحه وشاركه جهوده أخوه وأبناؤه فلما استقاد له المغرب كان لابد له أن يتقدم نحو العدو الأخرى من الشاطئ ، نحو الأندلس .

تلك هي حركة الفتح الإسلامي في هذه المنطقة . . سلسلة متصلة مشتبكة من الغارات والغزوات ، ومقاومة عنيفة من البربر والروم — وإقبالٌ حتى ليوشك أن يشعر المرء أن أمر هذا المغرب قد آل كله إلى العرب — وإدبارٌ حتى ليبدو كأنما قطعت بين المسلمين وبين هذه الأرض الأسباب — واستسلامٌ تظن معه أن البربر أصبحوا في مثل وداعة الشاة وطاعتها — وتنكّرٌ حتى كأنهم غور مفترسة — وحركات هي مزيج عجيب من الغايات والوسائل ، غايات لا تدرى أهي نشر الدين أم حب السيطرة أم شهوة الفتح أم الحرص على الغنائم ، ووسائل فيها استعطاف وتحبيب ، وفيها إكراه وتعسف ، وفيها تحدّ وعناد — وعقود من السنين تبلغ نصف قرن في ساحة من الأرض لم تكن في حاجة إلى كل هذه السنين — وعناصر هي خليط متشابك من أقوام شتى ، من السكان الأصليين ومن الرومان ، ومن الوندال ومن البيزنطيين ، بينهم هذا التباين الذي نلحظه بين برابرة الساحل وبرابرة الداخل — وبيئاتٌ فيها المثقف الذي وصلته الحضارة بالرومان والبيزنطيين ، وفيها المتبدّي الذي لا يزال يعيش في أجوائه الخاصة وتقاليده القديمة — وتوحيدٌ تمثله النصرانية — ووثنياتٌ تنتشر بين القبائل الداخلية — وأرضٌ يتعاقب عليها السهل والجبل والبحر والبر ،

والمزارع والشطوط ، والهضاب والجبال الشاهقة والمنخفضات والوديان العميقة — وعالمٌ تتداخل فيه كل هذه المظاهر الطبيعية والحضارية والبشرية ثم يزيده المسلمون من العرب وغير العرب تداخلاً وتشابكاً ، ويعمل فيه الدين الذي يحملونه واللغة التي يتكلمونها عملها ، فتحاول أن تتمثله ، تستسيغ ما يسهلها أن تستسيغه وتغالب ما تستطيع أن تغالبه ، فتغلب بعضه وتغلب أمام بعضه ، وتنتشر هذه الجماعة المسلمة المهاجرة على هذه القطعة من الأرض كما تنتشر الخميرة الصغيرة في وعاء العجين الكبير تحمله إلى مثل طبيعتها .

وسنحاول أن نتبين في الفصول الخاصة بنشأة المجتمعات الإسلامية الجديدة حركة الفتح هذه من وجهتها الاجتماعية^(١) . . كيف دخل العرب هذه البلاد وكيف استقرّوا فيها وما مظاهر هذا الاستقرار ، كيف استعربت وكيف دانت بالإسلام ، ولسكننا في حاجة إلى أن نتبين هنا ، قبل ، موقف السكان من حركة الفتح الإسلامي .

القسم الثالث

موقف السكان من الفتح

مقدمة — تعريف وتوضيح : من هم سكان المغرب غداة الفتح العربي ؟ ما الطبقات التي كانت تنتظمهم وكيف كان لقاء هذه الطبقات للجماعات الوافدة عليها من المشرق .

كان في إفريقية كما يبدو ثلاث طبقات من الناس :

١ — الروم البيزنطيون وهم الذين غلبوا على البلاد وحكموها ، هاجروا إليها وسكنوها... كان منهم من اهتمن التجارة وانقطع لها ، ومنهم من اقتطع الأرض وانصرف إلى استثمارها ، ومنهم من اصطنع الإدارة أو الحكم أو أقام في المحارس أو في الأربطة على المواني والسواحل^(٢) . وعلى الجملة كان هؤلاء الناس هم الطبقة المسيطرة أو التي تتصل بالسيطرة بسبب ، تميمها وتدفع عنها وتمكّن لها مما تشتهي وتريد .

(١) اقرأ كتابنا المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ١٦٣ وما بعد ذلك .

(٢) المؤنس ١٩٥ : فتغلبت الروم على سواحل البلاد

ب — وإلى جانب الروم البيزنطيين كان الأفارقة أو سكان المدن . ونعني بالأفارقة هؤلاء الذين كانوا من أصحاب البلاد ، ولكنهم لا يرجعون في هذه البلاد إلى أصول بعيدة . إنهم ، بوجه عام ، سكان المدن والمراكز القريبة من المدن .. كانوا مزيجاً من السكان الأصليين ومن متحضرة البربر ومن بقايا المستعمرين الرومان ومما خلفت قرطاجنة من ناس صهرتهم في حكمها أيام الفينيقيين . فليس يجمع هذا الخليط أصول دموية واحدة ، ولا جداً أعلى تنحدر منه ، وإنما تجمعهم هذه الحياة المشتركة وهذا الاستقرار في الأرض ، وهذا الارتباط في المعيشة ، أعني تجمعهم حياة المدينة وما يتصل بالمدينة من أرباض ومزارع هي ، على الأغلب ، جزء منها .

ج — ووراء ذلك كان البربر ، السكان الأصليون لهذه المناطق . ولكن البربر لم يكونوا كما رأينا ، هؤلاء المتبذّين الذين يعيشون عيش الظعن ويحيون حياة القبيلة فحسب ، وإنما كانوا أشبه بالعرب في تباين نظمهم الاجتماعية واختلاف طبيعة الأرض التي يعيشون عليها ، وفي صلتهم بالحضارة ، قوة في هذه الصلة أو ضعفاً ، إحصافاً أو تخلخلاً . ولذلك كانوا يمتازون في فريقين : فريق البربر الذين عظم نصيبهم من الحياة الحضارية وتعددت بينهم وبين البيزنطيين الأسباب ، فاشتبكت لذلك بينهم وبين الحضارة البيزنطية الصلات ، قدر ما يكون من تقبل قوم حضارة غريبة عنهم . وكان أكثر هؤلاء يسكن قريباً من منازل البيزنطيين ويجاورهم ويعيش في سواحلهم .. وفريق البربر الآخر الذين كانوا يمارسون ألواناً من الحياة أقرب إلى البداوة وأدنى إلى القبلية ، ولكنهم لم يكونوا في عزلة مطلقة ، فقد كان يتسرب إليهم دون شك أقباس من الحضارة أو كانت تنعكس عليهم ألوان من التأثير قد تكون ضئيلة أو نحيلة ولكنها كائنة على كل حال .

ويبدو أن هذين الفريقين من البربر لم يكونا على وفاقٍ في العيش ولم يكن يلفّ علاقاتهم يُسرُّ أو إسماع .. وليس يهمن أن نصدق أو نكذب ما يقال في اختلاف الأب الذي يرجعون إليه أوفى اختلاف الدماء التي ينثالون منها ولا أن نصدق

أو تكذب ما يزعمه « جوتيه » من أن البربر الحضرة البرانس يرجعون إلى جنس يخالف الجنس الذي يرجع إليه البربر البدو والبرتر . فحسبنا أن اختلاف النظام الاجتماعي الذي كان يخضع له الفريكان ، وتباين أساليب الحياة ، وتغاير البيئة التي كانوا يتقالبون فيها — كان كفيلاً أن يوجد بينهما هذه الفجوة العميقة التي يرجع بها النسابة ، حقاً أو باطلاً ، إلى الآباء أو الأجناس .

وفي الوسم أن نقول إن انتشار هذه الطبقات الثلاث في أرض المغرب كلها كان ينسكب في علاقتين اثنتين : علاقة الامتداد من الشرق إلى الغرب ، وعلاقة الامتداد من الشمال إلى الجنوب . وفي كلتا العلاقتين يمكننا أن نقول إن كثرة الروم والأفارقة والبربر كانت تتناسب طردياً مع هذين الاتجاهين : كلما تضاءلت كثرة الروم تضاخت قلة البربر . وأنه مع الاتجاه من الشمال إلى الجنوب ، أعنى من الساحل إلى الداخل ، تحفت المعالم البيزنطية ومعالم الأفارقة لتبدو معالم الحياة البربرية ولتتضخم . وفي إطار من هاتين العلاقتين نستطيع أن نتبين كيف كان موقف هذه الطبقات من حركة الفتح العربي .

ولا بدّ بعدُ من هذه الملاحظة التالية : فقد رأينا أن ولاية إفريقية لم تكن ذات حدود ثابتة دائماً . كانت تمتد على الساحل على أكثر الأحيان وتتوغل في الداخل حيناً ، وكانت في إفريقية نفسها أكثر منها توغلاً في المغرب الأوسط وفي المغرب الأقصى . . . ولذلك فإن الحديث عن ألوان الناس في هذه المنطقة وموقفهم من الفتح لا يمكن إلا أن يكون محوطاً بكثير من الاحتراز وبكثير من النسبية . وما نقوله قد ينطبق أكثر الأحيان على تونس ولسكنه قد لا يطابق في كثير من التفاصيل الأجزاء الأخرى . . هذا فضلاً عن أن الفتح العربي في هذه المنطقة يختلف عن كل الفتوحات الأخرى فقد امتدّ خمسين سنة أو تزيد ، على حين امتد الفتح في سورية سبع سنوات ، ولم تحتج مصر إلى أكثر من سنتين اثنتين حتى يمسك المسلمون بزمامها ، فيما عدا ما كان من ثورة الروم في الإسكندرية . . أما هنا فنحن

أمام لون آخر من الفتوح له طبيعته التي تخالف كل طبائع الفتوح الأخرى سواء تلك التي سبقته في العراق والشام ومصر أو التي جاءت بعده في الأندلس . . وعن اختلاف هذه الطبيعة ، وعن هذا المدى المتطاوّل من السفين الذي استنفدت فيه ، وعن أشياء متسكّرة متعمّدة ، كان اختلاف موقف الروم والأفارقة والبربر على السواء . . في ساعات العسرة حين كانت تعصف ببيزنطة الشدائد ، سواء في ذلك على حدودها مع المسلمين أو على حدودها مع الأوربيين من الآفار واللومباردين والبلغاريين ، فينقطع كل أمل في قدرتها على مدّ القوم في إفريقية — كان الروم أنفسهم يرحبون بالعرب كما تطلعنا على ذلك هذه الرواية التي حدثنا بها النويري عن استقبال حسان ودعوته . . وحين كان الولاة يحسنون السيرة بالبربر ويأخذونهم باليسر كما فعل أبو المهاجر ، كان البربر يقبلون على الإسلام أو يقبلون على نصرة المسلمين . . فإذا آل الأمر إلى لون من التحدّي بين البربر والعرب كالذي حدث لعقبة وكسيلة ، غضب البربر لأنفسهم فدقّوا المسلمين دقات عنيفة تحرّمهم هناة العيش وتسلبهم ثمرات الفتوح الماضية . . فلم يكن هنالك إذن موقف واحد على مدار الفتوح . . وقد لعبت السياسة الخارجية — ككلٍّ من القسطنطينية ودمشق من نحو — والسياسة الداخلية للولاة والقواد من نحو آخر — وصلة هؤلاء القواد بوالى مصر وأعزّاهم له من نحو ثالث — وبعُدُ المغرب عن مركز الخلافة وامتداد أرضه من نحو أخير — لعبت هذه كلها أدواراً كبرى في تكوين مواقف السكان في هذه البلاد . . ومع ذلك فنحن نستطيع أن ننبين بوجه عام ما يلي :

١ — موقف الروم :

كان موقف الروم موقف مقاومة متصلة ، ظاهرٌ بعضها وخفىٌ أكثرها . كانوا كلّما توفرت لهم أمداد من الجند أو قطع من الأسطول ثاروا بالمسلمين وانتفضوا عليهم ، فإذا عاد إليهم المسلمون في الغزوات القوية استكانوا ليتغّلّوهم من جديد وليصلوا ما بينهم وبين بيزنطة من أسباب ، قدر ما تسعفهم بيزنطة وقدر ما يسعفهم سكوت العرب . ولذلك لم تهدأ مقاومة الروم كلّ

سنوات الفتح الطويلة ، وإنما استمرت منذ أوطأ المسلمون خيلهم هذه الأرض حتى كانت لهم الغلبة عليها في ولاية حسان بن النعمان وموسى من بعده . ولم تسكن محاولة حسان بناء تونس قريباً من قرطاجنة إلا تعبيراً عن قلق المسلمين من هذه المقاومة ومعالجتهم المثلّي لها . فقد وجدوا أن قرطاجنة - هذه النافذة العريضة التي تطل على البحر والتي تصل بين بيزنطة والروم - يجب أن يسكنها المسلمون أنفسهم حتى يأمنوا هذا البيات المتكرر والبغوات المتصلة .

ولسنا بعد في حاجة إلى أن أن نقف وقفات مفصلة عند موقف الروم من كل غزاة من غزوات العرب ، فقد تبيننا ذلك في خلال العرض لحركة الفتح في صورتها المادية وفي تعاقب الغزوات .

٢ - الأفارقة :

الحياة الاجتماعية لهؤلاء الناس ، زراعاً كانوا أو تجاراً أو أصحاب مهن ، توحى لهم بالمسألة والإخلاق ، فهم ليسوا أرباب الحكم ولا أصحاب السلطان ولذلك لن يسلبهم المسلمون شيئاً ، وسواء عليهم أكان الذين يشرفون على الأمر هؤلاء أو أولئك . . وصحيح أن الروم أحب إليهم لما يقوم بينهم وبينهم من روابط الدين . . فأما من غلب عليه الدين فقد كان إلماً للروم وعوناً لهم إن لم يمنعه من ذلك خلافه المذهبي . . وأما من غلبت عليه حياته نفسها ، في مجالها من الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، فقد كان لا يبالي ، لأنه لا ينافح كما ينافح الروم أنفسهم عن مادة حياتهم في السلطان والحكم ، وإنما ينافح عن ولائه للحياة التي يحياها ، فمقاومته إذن رهين بهذه الحياة : كلما تعرضت الحياة للخطر اشتدت المقاومة ، وكلما أحيطت بالضمانات خفت هذه المقاومة . . ولقد عرفنا المسلمين في فتوحاتهم يحيطون ، غالب الأمر ، حياة هذه المدن بالضمانات ، ولذلك فإن لنا أن نؤكد أن موقف هؤلاء الناس كان موقفاً تحدّ مصلحتهم ، مالم يقلب على هذه المصالح أمر الشعور الديني .

على أن هذا الدين لم يكن كذلك متّحد الأطراف بين سكان المدن وبين

البيزنطيين.. كان هنالك هذا الاختلاف المذهبي على مثل ما كان في الشام ومصر ؛ فالبيزنطيون ملكانيون ولسكن أكثر النصارى في إفريقية من أتباع المذهب الدوناتي ، ولهذا الخلاف دون ما شك آثاره في توهين العصبة الدينية توهيناً لا يذهب بها ، ولكنه يعرضها إلى شيء من التخلخل .. فإذا آل الخلاف أن يكون اضطهاداً أحياناً من بعض الحكام البيزنطيين ، فإن لنا أن نرى فيه سبباً جديداً يدعو سكان المدن هؤلاء إلى أن يقفوا موقف الحذر وأن يستبدلوا بالمعارضة المفاوضة وبالمقاومة المسالمة .

٣ - البربر :

أما موقف البربر فالذي يبدو أنه كان ، أول الأمر ، موقفاً مسالماً لا عنف فيه . كان هؤلاء البربر يدينون للبيزنطيين بالطاعة ، وكان هؤلاء البيزنطيون يقيمون بينهم وبين المدن الحارس والرباطات ، كانوا يخضعونهم لما يحبون أن يخضعوهم له وكانوا يفرضون عليهم ما شاءوا من ضرائب ومكوس حين يقدمون المدن أو يقاربونها .. ولم تكن بينهم وبينهم هذه الصلات ، لا من الدين ولا من الجنس ، ولم تستطع حياة الرومان الطويلة أو البيزنطيين من بعدهم أن تغطي هذه الفروق ولا أن تملأ هذه الفجوات الحضارية أو الدموية ، فلم يجاوزوا السواحل في كثير ولم يوغلوا بعيداً وراءها ، ولذلك كان في وسع الجماعة الإسلامية كجماعة عربية في أكثرها ، لا تزال للعثم البدوية الكريمة فيها رونقها ونضارتها ، أن تنزل من نفوس البربر منزلاً أقوى وأوثق من هذا الذي نزل البيزنطيون .

غير أن العلاقة بين هذين القبيلين من الناس لم تكن وفقاً على التماثل فحسب وإنما كانت تخضع لعشرات من العوامل الأخرى : كان هنالك إثارات الروم ، وكان هنالك نزق بعض القادة المسلمين وسوء سياستهم .. كان هنالك شعور القبائل البربرية بسيادتها كذلك وإحساسها بمصالحها . ولهذا لم يعد موقف البربر ذا لون واحد : أسلم بعضهم ، كما سنرى ذلك في نشأة المجتمع ، منذ الأيام الأولى وبقى على إسلامه ، وارتدّ بعضٌ عن هذا الإسلام ، وأسهم فريق في حركة الفتح وتأخر

فريق عنها ، وقاومها فريق ثالث ، وآلت بعض المدن إسلامية تزدود عن المسلمين وتحميمهم حروب البربر من قومهم ، وبقيت بعض المدن والمواقع على مثل طبيعتها الأولى . . وحفلت هذه السنوات بألوان من الأحداث والحوادث من الصعب أن يلفها إطار واحد دون أن تلتوى أطرافه أو تنكسر أو تتداخل . وشاهد ذلك كله في حركة الفتح التي مررنا بها جليلة لا محتاج أن نعيد القول فيها .

ومهما يكن من شيء فقد لقي المسلمون في فتح المغرب ما لم يلقوا في بلد آخر . لقوا ذلك من أنفسهم في فتنة الخلافة ، واضطرابات الأطراف ، وخصوصات القواد وتوزع الجهود التي كان الزمن يبتلعها . . ولقوا ذلك من أعدائهم ، روماً كانوا أم سكان مدن أم قبائل بربر . . وتناوب الإخلاص لهم والمسكر بهم هؤلاء جميعاً . . والذين أخلصوا لهم مرة انتقصوا عليهم مرة ، والذين استجابوا لهم حيناً ارتدوا عنهم حيناً ، وكانت يقظة بيزنطة أو غفلتها تبعث اليقظة أو الغفلة في موقف هذه الطبقات . ومن هنا كان تلون هذه المواقف واختلاف شياتها .

الفصل الخامس

الفتوحات في الجناح الشرقي من المملكة الإسلامية

الجناح الشرقي من الدولة الإسلامية

١ - الحيز الزماني للفتوح

كان بين سقوط المدائن سنة ٦٣٧ و بين تعيين قتيبة بن مسلم أميراً على خراسان سنة ٧٠٤ م ، أو بين سقوط المدائن وغزو محمد بن القاسم للسند سنة ٧١١ م سبعة عقود من السنين . وفي خلال هذه الفترة الطويلة حقق المسلمون كل هذا الاتساع المتسع : اقتحموا على الهنود معابد الأصنام ، وأفسدوا على الصين استغراقات التأمل^(١) ، ولكننا يجب أن نذكر أن هذه السنين لم تُستغرق كلها في عمل حربي مستمر ، فقد انعكست الحياة الداخلية للدولة الإسلامية على حياتها الخارجية وتأثرت حركة الفتوح بما كان من فتن واضطراب في المدينة أو في الشام . . فإذا استثنينا عهد عمر وأوائل عهد عثمان وجدنا أن كل ما كان بعدُ ، حتى عهد استقرار الحجاج في العراق وعبد الملك في الشام ، إنما كان فترة هدوء نسبي في هذه الجبهات الشرقية ؛ بل ربما كان في بعضها ارتداد النفر الذين صالحوا عمّا صالحوا عليه . ولقد كان لنا أن ننتظر في عهد معاوية خطوات واسعة في تقدم الفتوح واستقرارها ، وكان معاوية جديراً أن يستأنف النشاط الذي خبا بعد عهد عثمان ، ولكننا نجد أننا أمام سبب جديد من الأسباب التي أدت إلى الفتور النسبي في هذا الجناح الشرقي : ذلك أن معاوية أولى حروب الروم ، والحروب البحرية منها بخاصة ، عناية فائقة ، وكان عمله سلسلة رائعة متصلة من الهجمات البحرية حتى لا يكاد يخلو عام من الأعوام عند الطبري من الحديث عن غزوات البحر ، يُنهي بذلك حديث السنة التي يعرض لها أو يبدؤه ليقول : وفيها كان كذا . . ومما كان فيها انصراف فلان أو إقبال فلان .

(١) وجه الجراح ابن عبد الله الحسكي عامل خراسان لعمر بن عبدالعزيز ، عبد الله بن معمر اليشكري إلى ما وراء النهر فأوغل في بلاد العدو وهم بدخول الصين فأحاطت به الترك حتى اقتدى نفسه . البلاذري ٢٦٤

والذى يبدو أن المسلمين نظروا فوجدوا أن الروم يترصدون بهم وراء جبال طوروس أو في ولاية إفريقية ، وأن الفرس يترصدون بهم فيما وراء المدائن وجولاء في منطقة الجبال وما وراءها وفي منطقة فارس قبالة الشاطئ الغربي للعربي للخليج الفارسي ، وتوزعت هذه المناطق قواهم واستبدت بجهودهم تبعاً لما يكون من مقاومتها وأهميتها . وكانت عناية معاوية ويزيد من بعده بأمر الروم أكثر مما كانت عنايتهم بأمر الإمبراطورية الساسانية لسببين اثنين :

أولهما : أن العراق ، وهو مركز الحركات الحربية الشرقية ، لم ينفذ لمعاوية ولا ليزيد من بعده ، وإنما كان ناراً ملتهبة تخبو لتشتعل وتهدا لتتوقد ، فلم يفتح للولاة لذلك ، أن ينصرفوا إلى الفتوح وأن يسيروا البعوث وهم لا يملكون سلطانهم على الكوفة والبصرة ، ولهذا لم يكديتم الأمر للحجاج وتجمع له ولاية البصرة والكوفة وينكل بأعداء الدولة ، فيخمد حسهم ويتعقب ثوراتهم ، حتى بدأ يولى هذا الجناح الشرق اهتمامه .

والثاني : أن الروم أقرب إلى مركز الخلافة في دمشق ، وأدنى من الإمبراطورية الفارسية ، وقد قضى على الأسرة الساسانية وعلى سلالتها الحاكمة منذ قتل يزدجر في مرو سنة ٦٥١ أو ٦٥٢ في خلافة عثمان ، وبقي أمام العرب أن يصفوا موقفهم مع حكام المقاطعات الذين كانت تستبد بهم الخوصومات من نحو والمطامع من نحو آخر ، فلم يكن في الجناح الشرق ما يخيف دمشق أو يرعبها ، ولو قدر للمقاومة أن تنبعث فيه من جديد لكان هذا المدى المكنى المتسع كفيلاً أن يمتصها ، لأن إطاراً دفاعياً مصطنعاً كان يقوم في البصرة والكوفة ، ولأن إطاراً دفاعياً طبيعياً كان يقوم في بادية الشام والعراق . . وإنما كان الخطر كل الخطر في الإمبراطورية البيزنطية التي كانت لا تزال تنبض بكل مقومات الحياة ، والتي لا تزال أرضها الأُم سليمة لم يمسّ العرب منها إلا بعض الدروب والثغور . وكان في تعاقب بعض الأباطرة الأقوياء على الحكم (قسطنطين الرابع ٦٦٨ — ٦٨٥)

ليو الأيسورى ٧١٧ — ٧٤٠^(١) ، ومحاولاتهم أن يجبروا هذا الكسر الذى لقيته القسطنطينية فى الشام ومصر ، وسكوت المسلمين عنهم فى فترات الفتن — كان فى ذلك كله ما يجعل من خطر الروم خطراً مُحَقَّقاً جديراً أن يُدفع ، وأن يُقضى عليه قبل أن يستفحل ويستأسد .

ولقد حاول المسلمون ذلك عن طريق البرّ فوقفت جبال طوروس كالمارد الجبار فى طريقهم ، فكان لا بدّ أن يتعاون البر والبحر جميعاً على ذلك ، وكان لا بدّ أن يزدهر الأسطول ، وأن تسير صوائفه وشواتيه لا تملّ ، سواء لقيت الهزيمة أو لقيت النصر .

ولهذا كله كان أبرز ما أصاب الفتوح فى الشرق من انتفاضات وتمدّد مرسوم إنما تمّ حين استقر الأمر للمروانيين ، فاستُخلف عبد الملك بعد مروان هذه السنين الطوال بين « ٦٥ — ٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م » .

٢ — الحيز المكانى للفتوح

شملت الفتوح كل هذا الجانب الشرقى من المملكة الإسلامية كما شملت جانباً من الشمال الشرقى تمثل فى فتح أرمينية وأذربيجان .

١ — وقد تناوأت فى جهاتها هذه المنطقة التى توشك أن تكون جزيرة ، حدّها الشرقى حوض نهر السند ونهر جيحون ، وحدّها الشمالى بحر الخزر وبحيرة خوارزم ، ثم تنحدر نحو الجنوب حتى تصافح الخليج الفارسى وبحر عمان من المحيط الهندى^(٢) . وفى هذه الجزيرة كانت تتلاقى الجيوش الإسلامية وتنشعب فى مقاطعات خوزستان وفارس وكرمان ومكران ، وفى مقاطعات طبرستان وخراسان وطخارستان .

(١) فى عهد قسطنطين كان حصار القسطنطينية الذى اصطلح عليه جيش برىّ يقوده فضلة بن عبيد الأنصارى وأسطول بحرى كان يقوده يزيد بن معاوية ولّى العهد . أما ليو فهو الذى أنقذ القسطنطينية من حصارها عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ / ٧١٥ — ٧١٧) بقيادة أخيه مسلمة ، وقد كاد هذا الحصار أن يؤتى ثمرته .

(٢) أنظر الخرائط الملحقة بآخر الكتاب

ب — ثم جازت بعد ذلك نهر جيحون إلى ما يسمونه ما وراء النهر ، أعنى أنها جاوزت المناطق الإيرانية الصرفة إلى المناطق التي يختلط فيها الإيرانيون بالأتراك فحققت بذلك اتصالاً جديداً بدم جديد ولغات وقبائل جديدة . وقد كان نهر جيحون هو بعض الحدود بين الشعوب التي تتكلم الفارسية والشعوب التي تتكلم التركية^(١) ، واستطاع المسلمون أن يبلغوا نهر سيمحون ، وأن يجوزوه كذلك ، وأن يواجهوا إذ جاوزوه المناطق الأصلية للقبائل التركية ، لأن هذه المنطقة فيما بين النهرين كانت يتناوبها نفوذ الفرس كما يتناوبها نفوذ الأتراك ، تبعاً لما يكون من قوة الفريقين .

ح — وإلى جانب هذا الامتداد في المناطق الإيرانية والتركية كان جيش آخر يقوده محمد بن القاسم صهر الحجاج ينطلق من البصرة فيحقق للمسلمين الانسياح في الهند ، ويدخلها من جنوبي بلاد فارس ، مستفيداً من الفتوحات السابقة لكرمان في عهد عمر وعثمان وعلى ، ويحتل الديبل الميناء الكبير . وينشر السيطرة الإسلامية على إقليم السند كله ، ويضع لذلك الأسس الأولى لفتوحات السلطان محمود الغزنوي في القرن العاشر بعد ذلك .

الفتوحات في الجوانب الشرقي من المملكة الإسلامية شملت إذن في حينها المسكني ثلاث مناطق كبرى : المناطق الإيرانية الصرفة — والمناطق الفارسية التركية فيما وراء النهر — والمناطق الهندية في منطقة السند — وعن اختلاف هذه المناطق وتنوعها ستكون آثار كبرى في حياة الدولة وغنى الفكر الإسلامي .

٣ — منابع الفتوح ومصادرها

ولم تنطلق هذه الفتوحات من وجه واحد ، ولم يكن لها كما رأينا حيز صغير . صحيح أنها كانت تنطلق جميعاً من العراق ، لأن العراق كان مركز العمليات الحربية الكبرى وكان مقر الجند ، ما كان منهم من قبائل العراق وما كان يمدّم من عرب

() كان الشعبان الإيراني والتركي هنا على احتكاك متواصل منذ قرون . بروكلمان ١٦٤/١

الشام أو الحجاز، غير أنها كانت تصدر في العراق عن منبعين اثنين : البصرة والكوفة .
ولقد رأينا حين تحدثنا عن تمصير هاتين المدينتين كيف تغلبت النزعة المدنية فيهما
على النزعة القبلية وكيف أن البصرة والكوفة أفتتا القبائل التي سكنتها بهذا
الرباط المدني ، فأصبحنا نقول أهل البصرة وأهل الكوفة ، وأصبحنا نتحدث عن
مغازي الكوفة فنقول مثلاً إن منها « الرى واذر بيجان ^(١) » وعن مغازي البصرة
فنقول إن منها « الأهواز وتستر ورامهرمز والسوس وجنديسابور ^(٢) » وأصبح أهل
البصرة يفدون على عمر في وفد يشكون منازلهم التي تضيق بهم ^(٣) ويطلبون لذلك
أن يوسع عليهم . وأخذنا بعد ذلك نستمع مرة وراء مرة إلى حديث تعديل الفتوح
بين أهل الكوفة وأهل البصرة ، وخصوصتهم في ضم هذه المنطقة إلى أولئك أو هؤلاء ،
وتنازعهم هل تلاحقوا عليها وهل أعان بعضهم على بعض فيها ^(٤) إلى كثير من المظاهر
الأخرى ^(٥) التي تميز لنا أن نقول إن الفتوحات في الجانب الشرقي كانت تنطلق
من وجهين اثنين : الكوفة والبصرة ، ومن وجه ثالث لاقى الامبراطورية الساسانية
من طرفها الجنوبي على الشاطئ الشرقي للخليج الفارسي وهو البحرين .

فأما البصرة ^(٦) فقد تولت فتح ما يحيط بها من أرض الفرس وما يقاربها ، فكان
على يديها فتح الأهواز وتستر ورامهرمز والسوس وجنديسابور ، وتضرب بعيداً
حتى يكون لها في فتح خراسان نصيب أى نصيب ، فيكون في مروي سنة توفي سليمان

(١) الطبرى ٢٨٠٥/٥/١ (٢) الطبرى ٢٥٣٤/٥/١ وما بعد ذلك

(٣) الطبرى ٣٩٠٣٨/٥/١

(٤) كتب عمر بن سراقه وهو يومئذ على البصرة إلى عمر يذكر له كثرة أهل البصرة
وعجز خراجهم عنهم ويسأله أن يزيدهم أحد الماهين أو ماسبذان . وبلغ ذلك أهل الكوفة فقالوا
لنمار اكتب لنا إلى عمر أن رامهرمز وايدج لنا دونهم لم يعينونا عليهما بشيء ولم يلحقوا بنا
حتى افتتنناهما . الطبرى ٢٦٧٢/٥/١ — ٧٣

(٥) من هذه المظاهر تقسيم الثغور بين البصرة والكوفة . ويروى الطبرى : فكانت الثغور
ثغور الكوفة أربعة : حلوان . . وماسبذان . . وقرقيسيا . . والموصل ٢٤٩٧/٥/١

(٦) اقرأ في الطبرى ٢٨٨٤/٥/١ والبلاذرى ٤٠٤ — ٤٠٥ — ٤٠٧ — ٤٠٨ مغازي
عبد الله بن عامر وهو والى البصرة ابن شهر وطوس واييورد ونسا حتى بلغ سرخس ومرو الروذ
والطالقان والفارياب والجوزجان .

ابن عبد الملك أربعون ألف مقاتل على حين لا يكون فيها من الكوفة إلا سبعة آلاف .

وأما الكوفة فقد تولت المناطق الشمالية منها والمناطق الشمالية الشرقية ، فسكان من مغازيها أيام عثمان الرى وأذربيجان وأرمينية ، وكان بهذين الثغرين الأولين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة : ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف بالرى . وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف فى كل سنة فسكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة . . فغزا الوليد بن عقبة فى إمارته على الكوفة فى سلطان عثمان أذربيجان وأرمينية ^(١) « لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر ^(٢) » وكان من ثغورها حلوان وماسبذان وقرقيسيا والموصل ^(٣) وكان من مغازيها طبرستان وجرجان ^(٤) . وأما البحرين فقد انطلق منها المسلمون لغزو مقاطعة فارس ومقاطعة كرمان ، وقد كان من أول ذلك عمل العلاء الحضرمى ومغامرته الجريئة التى بسميها المؤرخون موقعة طاووس والى تنقذه فيها أمداد أهل البصرة ^(٥) . ولم تفت هذه الهزيمة فى عضد المسلمين ؛ وظلت البحرين منبع هجمات متتالية كان منها موقعة اصطخر التى تولاهما الحسك ابن أبى العاص ، أرسله أخوه عثمان وكان والى البحرين أواخر أيام عمر ^(٦) وكان منها كذلك فتوح كرمان وتدوينها ^(٧) ، ولعل الامتداد نحو سجستان إنما كان مصدره القوى التى كانت تتجمع فى البحرين .

ومن الطبيعى أن هذا التقسيم الذى نتحدث عنه ليس تقسيماً حاداً يستعصى على المشاركة . . فما أكثر ما كان أهل الكوفة يسعفون أهل البصرة ، وما أكثر ما كان أهل البصرة ينصرون الجيوش التى تنطلق من البحرين ^(٨) . ويقص علينا

(٢) الطبرى ١/٥/٢٨٠٤

(٤) الطبرى ١/٥/٢٨٣٦

(٦) الطبرى ١/٥/٢٦٩٨

(١) الطبرى ١/٥/٢٨٠٥

(٣) الطبرى ١/٥/٢٦٧٢

(٥) الطبرى ١/٥/٢٥٤٥

(٧) الطبرى ١/٥/٢٧٠٣

(٨) فى البلاذرى ٣٨٧ وكتب عمر إلى أبى موسى وهو بالبصرة يأمره أن يكاتف عثمان =

الطبرى فى صفحات كثيرة انطلاق الجيش الأول من البحرين فى مغامرة العلاء الحضرمى إذ اتجه إلى اصطخر^(١) وكيف أوشك أن يلقى على يدى الفرس هزيمة ماحقة لولا أن أمده عمر وكتب إلى عتبة بن غزوان أن العلاء حمل جنداً من المسلمين . . فاندب إليهم الناس واضمهم إليك من قبل أن يُجتأخوا . فندب عتبة الناس وخرجوا فى اثنى عشر ألفاً .

بل إن اشتراك أهل الكوفة والبصرة وتعاونهم على فتوح بعض ما كان يستعصى عليهم من المدن والمقاطعات كان السبب الأصيل فى خصوماتهم عند اقتسام الفىء أو عند تحديد مناطق النفوذ إن جاز لنا هذا التعبير . ومن يدرى فلعلة أن يكون مثاراً لخصوماتهم الأدبية والفقهية واللغوية بعد ذلك . وفى الطبرى حديث طريف تحت عنوان تعديل عمر فتوح أهل البصرة وأهل الكوفة يقص فيه ما كان من خصومة أهل الكوفة لأهل البصرة فى رامهرمز وإيذج ، وما كان من خصومة أهل البصرة لأهل الكوفة فى قرىبات من أصبهان . . ثم ما كان من تعديل عمر ذلك بينهم ، وما كان من تعديل معاوية بعد ذلك حين نقل جنداً من الكوفة والبصرة إلى قنسرين فصّرهما بهم وجندّها منهم وأخذ لهم بنصيبهم من فتوح العراق أذر بيجان والموصل والباب^(٢) . ولو توفرت دراسة جدية للنظم الإدارية والمالية فى صدر الدولة الأموية لأفادت من هذه الأخبار أعظم الفائدة .

وأياً ما كان الأمر فإن هذه المنابع التى كانت تتدفق منها الجيوش على الشرق كانت تشارك وكان ينتدب بعضها لبعض ، والحادثات فى ذلك أكثر من أن تحتاج إلى شواهد ، وتكاد تسكون فتوحات المشرق كلها هذه المشاركة التى سنرى أنها أشد ما تكون حين يجتمع العراق كله ، بصرته وكوفته ، لوال واحد ، وحين يجتمع

== بن أبى العاص ويعاونه فكان يغزو فارس من البصرة ثم يعود إليها . وفى البلاذرى ٣٨٨ اجتمع أبو موسى الأشعرى « وهو والى البصرة سنة مقتل عمر » وعثمان بن أبى العاص وكان على البحرين وما والاها فى آخر خلافة عمر ففتحاً أرتجان صاحبا على الجزية والحراج وهى من أرض أردشير خرو وفتحاً سينير .

(١) الطبرى ٢٥٤٦/٥/١ والصفحات التى تليها . (٢) الطبرى ٢٣٦٧٢/٥/١

له مع السكوفة والبصرة المشرق ، فتكون هذه المنطقة كلها : المصدر والمورد ، المنبع والهدف ، في يد واحدة تتصرف فيها كما تشاء .

آية هذا كله أن فتوحات الجناح الشرقى من المملكة الإسلامية كانت تصدر عن منابع ثلاثة : كان منها منبعان أصيلان هما السكوفة والبصرة ، ولعب المنبع الثالث وهو البحرين دوره في فتح جنوبى فارس ، وتطويق العناصر المقاومة في منطقة الجبال — وأن هذه المنابع تميزت بنوع من الاستقلال الذى كانت تشوبه المشاركة ويخالطه التساند أول الأمر — أما بعد ذلك حين جمع المصران لزياد أو للحجاج مثلاً أو حين فصلت خراسان عنهما وأضحت ولاية مستقلة ، فقد كانت هذه المشاركة أشد وضوحاً حتى لتوشك أن تطوى التميز الذى كان من قبل . . وسرى بعد كيف كان اندماج البصريين والسكوفيين في جيوش قتيبة أو في غيرها ، بل سرى أن الحجاج عقد لمحمد بن القاسم على فتح السند ، وضم إليه ستة آلاف من جند الشام ، وخلقاً من غيرهم ^(١) .

٤ — طبيعة الفتوح الشرقية

وفي طبيعة الفتوح نستطيع أن نقبين ظاهرتين اثنتين : الأولى التداخل والتعميد والثانية كثرة الارتداد والانتقاض .

١ — التداخل والتعميد :

إن تتبع أخبار الفتح يضعنا أمام كثير من التداخل ، ويكشف لنا في الوقت نفسه عن أسبابه . وفي وسعنا أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى :

السبب الأول : أن هذه الفتوحات مرت في أدوار مختلفة . . لم تكن هذا الفتح الذى بدأ الخطى إلى غايته ثم لم يرجع عنها كما كان الحال في فتح الشام أو فتح مصر مثلاً . وإنما هي فتوح أدركتها الفتن الداخلية فكان لابد لهذا المد المتقدم

من أن يناله الجزر فيترجع منحسراً ، فإذا رمى نشاطه على يد خليفة أو وال آخر ثم ولّى الخليفة أو والى أدركه الفتور من جديد ونقضت المقاطعات أو المدن عهداًها. السبب الثانى : أن هذه الفتوحات فى هذا الانسياع كانت كالموجة ، تكون تجّتها فى موضع حيث يكون عظم المضاء ، وتكون ذيلها وأطرافها فى موضع آخر بعيد ، فلم تتركز دائماً فى مكان واحد ، ولكنها كانت تنساب فى أكثر من مكان . . يستولى المسلمون على المدن أو المقاطعات ، ثم تتقدم كتائبهم فى المدن أو المقاطعات التى حولها ، ولكن لا يُمكن لها من الفتح أو الاستقرار فى هذه المرة الأولى ، وإنما يكون ذلك فى مرات مقبلة متعاقبة . ومن أجل هذا تبين فى تتبع أنباء الفتح هذه الروايات المختلفة عن أول من عبر النهر ، مثلاً ، فهناك هذه الرواية التى يحدثنا بها البلاذرى : أن ابن أبى عامر عبر النهر وأحرم الله شكرياً^(١) . . وهذه الرواية التى يحدثنا بها البلاذرى نفسه : أن الحكم بن عمرو الغفارى ، وكان والياً على خراسان ، وكانت له صحبة ، هو أول من صلى وراء النهر^(٢) . . وهذه الرواية الثالثة التى نجدّها عند البلاذرى ، إذ ينقل لنا أن سعيد بن عثمان — وقد ولّاه معاوية — أول من قطعه^(٣) . . وأخيراً فلن نعدم رواية رابعة تقول لنا : إن يزيد بن معاوية ولّى سلم بن زياد ، فصالحه أهل خوارزم على أربعائة ألف وحملوها إليه ، وقطع النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله ابن عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وكانت أول عربية عبّرها النهر^(٤) .

إن كثرة الروايات لترجع إلى اختلاف الرواة ، وإنها لترجع كذلك إلى اختلاف العهود واختلاف الولاة ، ثم هى ترجع فوق ذلك إلى أن المسلمين لم يعبروا النهر من جهة واحدة ، ولذلك كان كل من جازه من نحو هو أول من عبّره من هذا النحو . . وإنها ، هذه الروايات ، لتُمثّل لنا فى وضوح صريح كيف أن هذين السببين اللذين قدمنا الحديث عنهما أضفيا على الفتوح هنا هذا

(٢) المصدر نفسه ٤١٠

(٤) المصدر نفسه ٤١٣

(١) البلاذرى ٤٠٨

(٣) البلاذرى ٤١١

التداخل فقد تقدم المسلمون في فترات متعاقبة وتراجعوا بحكم ما كان من فتور حركة الفتح.. وتقدموا في وثبات جريئة، ولسكنهم كانوا مضطرين أن يعاودوا هذه الوثبات لتثبيت أقدامهم. وذلك كله يهب الفتح طبيعة خاصة وصفها « فلهاوزن » في كتابه عن الدولة الأموية : « لقد كانت منطقة لا يتم لها سلام ، وليس لها حد محدود ^(١) » .

السبب الثالث : والسبب الثالث الذي كان يمكن وراء تعقد هذه الفتوح وتداخلها ، يرجع إلى هذا البعد البعيد الذي انساق إليه المسلمون ؛ فما من شك أن خطوط ما بينهم وبين مرا كزهم التي انطلقوا منها استطالت وامتدت ، وأنهم كانوا يوغلون وينحرفون في اتجاهات مختلفة في هذا الإيغال . . والشئ الثابت أنهم كانوا قلة — كما سنرى بعد في دراسة الفتح من وجهته الاجتماعية ^(٢) — وكانت قلتهم تهب إيفالهم هذا لونا من المغامرة الأسطورية الجريئة ، ولهذا كانوا يصالحون على أنواع من الصلح طريفة حيناً ، وغريبة حيناً آخر مما سنتبينه بعد . . فإذا حانت للمعاقدن الفرصة وثبوا بهم . . وكان لا بد قبل أن تستقر الفتوح من سلسلة من الانتفاضات ، وكان لا بد من أن تقصر الخطوط بين ميادين القتال وبين مرا كز الانطلاق . . والأمـر هنا يشبه بعض الشبه ما كان في فتح إفريقية وبعـد ما بينها وبين مصر ، ولهذا لجأ المسلمون هنا ، كما رأينا أنهم لجأوا هناك ، إلى أن يجعلوا من خراسان ولاية مستقلة ، وأن يجعلوا لها كذلك والياً مستقلاً يعينه والى العراق أو يعينه الخليفة ، على أن يكون تابعاً والى العراق وفق ما كانت تقضى به ظروف الخلافة وضرورات السياسة .

ومنذ أن فعل المسلمون ذلك ، منذ أن أخذت هذه المدن نيسابور ومرو ومروالروذ وهراة في خراسان وسمرقند وخوارزم وبخارى وراء النهر تصبح أجناد المسامين ومجال قرارهم ، نصطيق بصيغتهم ، وتنفس في ظلالهم . . منذ ذلك بدأت الفتوح

(٢) انظر كتاب المجتمعات الإسلامية في القرن الأول .

(١) فلهاوزن ٣٩٩

تنضح وقد أينعت وحان قطافها ، وكان أصحابها هؤلاء الولاة الذين أفادوا من الحملات السابقة تدويح هذه المناطق ، فلما جاءوا هم مُسَكِّن لهم منها ، وتساقطت شهية في أيديهم . . ولعل زياداً ابن أبيه أن يكون أشدّ ولاية المشرق إحساساً بحاجة العرب إلى التمرّكز في غير الكوفة والبصرة إذا أرادوا أن يحققوا انطلاقهم فيما وراء النهر واستقرارهم في خراسان فيما دون النهر ، ولذلك فلعله « لم يتمّ تقدّم منظم في حركات الجيوش العربية إلا حين أصبحت خراسان تحت حكم زياد ، فجعل من مرو — بعد أن تحقق من خطر الروح القومية الفارسية — مركزَ الحكومة ، ونظّم حملاتٍ دفاعية تنبئ عن خطة مرسومة اتفق عليها فيما بينه وبين ولاته . . وقد كُفّلت سياسة زياد هذه ، وسياسة ابنه من بعده ، لخراسان الهدوء وجمعت التوسع في الفتح أمراً ممكناً عبر النهر ^(١) » .

٢ — كثرة الانتقاض والارتداد :

ومن أجل هذه الأسباب المتقدمة جميعاً كان من طبيعة الفتوح الإسلامية هنا أنها خضعت لكثير من حركات الارتداد والانتقاض والكفر . . ونحن نقرأ روايات الفتوح جميعاً فنوشك أن نذهب إلى القول بأنه ما من بلد في هذا النحو من الدولة الإسلامية لم ينتقض على الفاتحين مرة أو مرات ^(٢) . . ولعل البلاد التي انتقضت مرة واحدة كانت قلة في عددها . . وكان يوشك أن يكون عمل الولاة أو عمل بعض الخلفاء أن يستردّوا ما كان قبل . . ويحدثنا صاحب فتوح البلدان أن ابن أبي عامر وليّ البصرة فولّى عبد الرحمن بن سمرة سجستان فأتاها ، وعلى شرطته عبادُ بنُ الحُصَيْن الحُبَطي ومعه من الأشراف فلان وفلان ، وأشخاص سمّاهم ،

(١) جب ١٦-١٨ (1923) Gibb: The Arab Conquest in Asia

(٢) الأخبار في ذلك مستفيضة في حوادث الفتح واقرا نماذج منها في الطبري ٢٦٣٥/٥/١ « وقد كان أهل همدان كفروا بعد الصلح » و٢٦٨٢ « ثار أهل فارس والهرمزان وكفروا وثار أهل الجبال والفرزان فنكثوا » و٢٦٨٩ « كفر أهل خراسان زمان عثمان » ومن الواضح أن صاحب الرواية لا يعنى المعنى الاصطلاحي للكفر وإنما يعنى الانتقاض « و٢٨٠٤ « غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينية لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر » وفي مواضع كثيرة من أخبار الفتح .

فكان يغزو البلد قد كفر أهلها فيفتحه عنوة أو يصالح أهلها حتى بلغ كابل^(١) . ولم تكن هذه الانتفاضات شراً على المسلمين دائماً ، ولكنها كانت خيراً لهم في بعض الأحيان ، وكانوا يفيدون منها أن يجترئوا على فتح ما كانوا صالحوا عليه أو على فتح ما لم يتقدموا في فتحه ، ويحدثنا الطبري في صفحات متعاقبة^(٢) أنه كان بين المسلمين وبين الهرمزان في الأهواز صالح ، ثم انتقض الصالح فأتاح ذلك للمسلمين أن يتقدموا وأن يفتتحوا ما لم يفتحوا من قبل « فلما نزل الهرمزان رامهرمز وضاعت عليه الأهواز ، والمسلمون حلال فيها ، فيما بين يديه ، طلب الصلح وراسل حرقوصاً وجزءاً في ذلك ، فسكتب فيه حرقوص إلى عمر وكتب عمر إليه وإلى عتبة يأمره أن يقبل منه على ما لم يفتحوا منها على رامهرمز وتستر و . . . فأجابهم إلى ذلك فأقام أمراء الأهواز على ما أسند إليهم وأقام الهرمزان على صلحه^(٣) » . وفي ذلك يقول « فلهاوزن » إذ يتحدث كيف ترك العرب الإدارة للسلطات المحلية : « وإذا توقفت الجزية ، وكان هذا أمراً يحدث بسهولة ، تجددت العداوة . ولم يكن مما يؤسف العرب أن تسنح لهم فرصة غزو جديد^(٤) » .

٥ - سَيْر الفتح

أضحى من اليسير أن نتابع حركة الفتح بعد الذي تبيننا من مداها الزماني وحيزها المكاني ومنابعها التي صدرت عنها وما كان من طبيعتها وظواهرها . وسنحاول فيما يلي أن نجمل هذه الحركة وأن نصل بينها وبين ما انقطع من حديث العراق .

١ - فتح إيران

تقدم المسلمون بعد انتصار القادسية سنة ٦٣٥ نحو المدائن ، وقد احتلوا في حزيران « يونية » سنة ٦٣٧ بعد أن خاضوا في الطريق إليها عدداً من المعارك كانت تهدف

(٢) الطبري ١/٥٠ - ٢٠ - ٢٥٤٣

(٤) فلهاوزن ص ٤٣٤

(١) البلاذري ٣٩٦

(٣) الطبري ١/٥٠ - ٢٥٤٣

إلى استنقاذ العاصمة من أيدي الجيوش التي كانت تضرب نحوها . . وقد أعقب ذلك أن الجيوش الفارسية انسحبت إلى حلوان « وكانت حلوان مركزاً حصيناً على حافة المرتفعات الفارسية في سفح سلسلة جبال الصقر ^(١) » وأخذت تنظم حركة مقاومة مضادة ترمي إلى إجلاء العرب عن المنطقة التي احتلوها . ولذلك نرى أن يزدجرد يجمع قلوبه وينظم جيشه ويعزز قواه بما انضم إليه ويتقدم إلى الجنوب نحو المدائن ، ويسكن سعداً يدرك ما يكون من خطر هذا التقدم فيعاجله في معركة جلولاء « على الضفة اليمنى من نهر ديالى ^(٢) » أواخر عام ٦٣٧ ^(٣) وعلى الجيش ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ^(٤) ، فهزم الله الفرس وأصاب المسلمون بها من النىء أفضل مما أصابوا بالقادسية ^(٥) .

وكان سقوط جلولاء ^(٦) إيذاناً بانتهاء الخطوط الأولى للمقاومة الفارسية واستعادة هذه المنطقة للمسلمين .

وسنرى بعد أن هذه المقاومة نزلت تتركز في شخص يزدجرد وتتجمع من حوله ويدرك المسلمون ذلك فيتحدث الأحنف إلى عمر يقول له : « وإن ملك فارس حتى بين أظهرهم وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ، ولم يجتمع ملكان فانفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أننا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم ، وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسحق في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته ، فهناك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربوا جأشاً ^(٧) ، ولهذا مضت الجيوش تتعقب يزدجرد في تنقله تريد أن تنال منه .

(١) فيليب حتى ٢١٢ (٢) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١١٦/١

(٣) الطبرى ٢٥٧٨/٥/١ سنة ١٩ هـ .

(٤) الطبرى ٢٣٥٨/٥/١ (٥) الطبرى ٢٣٥٩/٥/١

(٦) التفاصيل عن جلولاء في الطبرى ٢٣٥٩/٥/١

(٧) الطبرى ٢٥٦١/٥/١ وقرأ نصاً مشابهاً آخر في ٢٦٣٤/٥/١

ويفادر يزدرجرد حلوان بعد هزيمة جلولا، وسقوط ما حولها من البلاد إلى إقليم فارس — وهو الإقليم الجنوبي من إيران — ويتابع المسلمون تقدمهم فيحتلون حلوان ثم يحتلون بعدها قرميسين في سنة ٦٤٢ في الشمال الشرقي منها ، ثم تكون الموقعة الكبرى التي يطلق عليها العرب فتح الفتوح في نهاوند جنوبى همدان^(١) وهُزِمَ الفرس بقيادة الفيرزان ويظهر عليهم المسلمون ، ويموت النعمان بن مقرن وكان على قيادة الجيش ، يأخذ الراية من يده خذيفة بن اليمان ، ويتم للمسلمين هذا النصر الهائل وتنفتح من أمامهم المسالك إلى مناطق إيران الداخلية التي لم يكن لها بالعرب شديد اتصال من قبل ولم يكن بينهم وبينها جوار مباشر .

ولقد بلغ من اهتمام المسلمين بهذه الموقعة أن كاد يخرج إليها عمر بنفسه . ويقص علينا الطبرى^(٢) تفاصيل عن مؤتمر عقده الخليفة ، ونودى في الناس الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فعرض لهم ما هم به وسألهم « أفن الرأى أن أسير فيمن قبلى ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين فاستنفرهم ثم أكون رداء حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب فإن فتح . . . » ولكن المسلمين : عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ، رأوا له غير ما رآه لنفسه ، وأجابوه هذه الإجابات الطريفة التي تدل على ما كان من إحساس المسلمين بما حولهم وتقديرهم لما هم مقبلون عليه .

وكذلك كان اهتمام الفرس بهذه الموقعة ، فقد كتب يزدرجرد إلى عماله ووجهاء مملكته فتوافوا إلى نهاوند ، توافى إليها من بين خراسان إلى حلوان ومن بين الباب إلى حلوان ومن بين سجستان إلى حلوان ، فاجتمعت حلبة الفرس والفهلوج أهل الجبال من بين الباب إلى حلوان ثلاثون ألف مقاتل ، ومن بين خراسان إلى حلوان ستون ألف مقاتل ، ومن بين سجستان إلى فارس وحلوان ستون ألف مقاتل واجتمعوا على الفيرزان وإليه كانوا توافوا^(٣) .

(١) التفاصيل عن نهاوند في الطبرى ٢٥٩٦/٥/١ والصفحات التي تليها .

(٢) الطبرى ٢٦٠٨/٥/١ (٣)

(٢) الطبرى ٢٦١٠/٥/١ — ١١

وأيّاماً ما كان الأمر فقد كانت معركة نهاوند من المعارك الفاصلة في حركة الفتح الإسلامية . وإذا كانت جلولا ، إيذاناً بانتهاء الخط الأول من المقاومة فإن سقوط نهاوند بعد كلّ الحفل الذي خفله الفرس والإمداد الذي أمّدوا به يزدجرد ، كان إيذاناً بسقوط المقاومة المنظمة كلها ونشأت القوى الفارسية في جهود فردية يقوم بها حكام المقاطعات على غير تساند وعون .

ولجأ يزدجرد إلى أصفهان^(١) وتابع المسلمون تقدمهم حتى غلبوا على أصفهان نفسها^(٢) . . . وتحدّروا إلى اصطخر^(٣) ، واسكن اصطخر لم تسكن الملجأ الأمين إذ كان المسلمون يتقدمون من البصرة إلى الأهواز ومنطقة خوزستان^(٤) يقفزون من البحرين إلى الشاطئ الشرقي المقابل للخليج الفارسي . . . ولذلك يغادر يزدجرد اصطخر إلى المقاطعات العليا إلى طبرستان^(٥) يلبي دعوة جاءت من مرزبانها^(٦) . . . ثم لا يطول به الأمر لأن المسلمين يحتلون اصطخر ، هذه المدينة التي كانت وليدة برسبولس عاصمة قدماء الفرس ، وينساحون عن إذن عمر في اتجاهات مختلفة ومواطن متفرقة^(٧) .

ويوهن ذلك روح المقاومة عند الفرس ، وتساقط مدن خراسان ، هذا الإقليم الواسع في يدي الأحنف^(٨) ، وتبدو هذه المنطقة « التي تصل ما بين إيران والبوادي التركية^(٩) » والتي كان الترك يباغون أطرافها الشرقية حين يغلبون الإيرانيين — تبدو لا تنزع إلى ولاء يزدجرد ولاء مكيناً متيناً . . . ولعلّ أبواب المقاطعات فيها كانوا يفكرون في مطامحهم ومصالحهم وفي حفظ نفوذهم وسلطانهم . . . ولذلك

(١) الطبري ٢٥٦٢-٢٥٦١، ٢٦٨٢/٥/١

(٢) الطبري ٢٦٣٥/٥/١ وما بعد ذلك (٣) الطبري ٢٥٦٢/٥/١

(٤) عيلام القديمة وهي شوش من بعد وعربستان اليوم . فيليب حتى تاريخ العرب ٢١٢

(٥) المنطقة الجبلية الواقعة عند الطرف الجنوبي من بحر قزوين . بروكلمان تاريخ الشعوب

الإسلامية ١٢٤/١

(٦) بروكلمان ١٢٦

(٧) اقرأ عن إذن عمر المسلمين بالانسحاب في الطبري المواطن المتفرقة التالية : ٢٥٦١

و ٢٦٣٤ في موضعين من الصفحة ٢٦٨٢

(٨) اقرأ عن سير الأحنف بالجيش والمدن التي احتلها : الطبري ٢٦٨٢/٥/١ وما وراء ذلك

نرى أن يزدجرد يُقتل ، بعد سلسلة من التنقلات والإثارات ، في مرو سنة ٦٥١ أو ٦٥٢ — ويقتل كما يقول بروكلمان^(١) لأن عامله في خراسان تنكّر له ، ولأنه لم يكتف بهذا التنكّر وإنما أغرى به الأمير التركي . ولا نعرف فيما بين أيدينا من المصادر العربية قصة هذا الإغراء ، وكل الذي نعرفه أن يزدجرد فيما يروى الطبري^(٢) كتب إلى ملك الصغد وإلى ملك الترك وإلى ملك الصين ، وأن جيشاً تركياً أقبل ينصره^(٣) .

ومهما يكن من شيء فقد كان مقتل يزدجرد إعلاناً واضحاً لانتهاء المقاومة الفارسية واختفاء الأسرة الساسانية من عرش إيران اختفاء لا رجعة فيه .

وكذلك بلغ المسلمون في تتبع يزدجرد وفي انسياب الفتوح ، حدود النهر ، وكتب عمر فيما يروى الطبري إلى الأحنف الذي كان بطل هذه الوثبة الهائلة ، و« سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه » : أما بعد فلا تجوزن النهر ، واقتصر على مادونه^(٤) . ولكن طبيعة الفتح في هذه المنطقة كما رأينا إنما تمتاز بالانقضاض ، وسيكفر أهل خراسان زمان عثمان^(٥) ، وسيكفرون فيما يلي زمان عثمان من أزمان.. ولكن الأمر سيؤول إلى استقرار الإسلام والمسلمين .

وبينا كان المسلمون يستشرفون نهر جيحون ، كانت جيوش أخرى تجوز الخليج الفارسي ، فتدسح في منطقة فارس وفي سواحل كرمان ، ثم تتقدم بعد ذلك إلى مكران حتى تبلغ قريباً من بلاد السند . فلنلخص حركة الفتح فيما وراء النهر وفي السند .

ب - فتح ما وراء النهر

١ - كيف كانت ما وراء النهر حين دخلها المسلمون :

انتهى الصراع بين المسلمين وبين الفرس بالاستيلاء على خراسان ، وبدأ مع

(٢) الطبري ١/٥/٢٦٨٣

(٥) الطبري ١/٥/٢٦٨٩

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ١/١٢٤

(٣) و (٤) الطبري ١/٥/٢٦٨٥

عبور النهر مرحلة جديدة من مراحل الفتح ، لم يكن خصومها الفرس وحدهم ، وإنما كان إشارتهم هذه لخصومة الترك .. وليس سكان حوض النهر وسكان الصغد تركاً في الأصل فهم « إيرانيون في طابعهم يتكلمون لغة إيرانية ويمارسون أنظمة إيرانية^(١) » . ولكن هذه المنطقة كانت موضع نزاع متصل بين الشعبين الإيراني والتركي . وفي فترة الفتوح هذه « كان الأتراك وسعوا مملكتهم في اتجاه الغرب على عهد قابغان قاغان « الذي يدعو الصينيون متشوى » بعد أن حرروها من السيطرة الصينية ، واستقر واحد منهم من أتباعهم بوصفه « طرخانا » في سمرقند عاصمة بلاد الصغد فيما وراء النهر ، على الضفة الجنوبية من نهر الزرفشان «نهر الصغد ونهر الصفانيان » ، وعلى الضفاف السفلى من هذا النهر تقع بخارى حيث كانت إحدى الأسر التركية الحاكمة تبسط سلطانها على رعية مختلطة ، فارسية وتركية^(٢) » .

ولعل هذا أن يفسر لنا ما ذكره جب من « أن الأحوال السياسية عند الفتح العربي كانت معقدة جداً وأن هجرات القبائل المتبدية إلى تلك المنطقة كانت مستمرة من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الخامس بعده ، وفي القرن الخامس هاجرت إليها القبائل التي كانت تسمى في العربية الهيطل^(٣) » .
ومن الممكن أن نلخص الأحوال السياسية والاجتماعية السائدة مستعيرين رأي الأستاذ جب فيما يلي :

« كانت الولايات في هذه المنطقة تعترف بـ « الخان » سيداً لها وتدفع له الجزية وكانت أمانة صغديان مقسمة إلى ولايات صغيرة مسقطة تقوم بينها معاهدات مرنة ، وكان أقوى ما يصل بينها من رباط إنما هو تجارة الحرير مع الصين ، وأهم مراكزها سمرقند وبمكند وكش ، وكانت سمرقند أوفرها حظاً من النجاح في عالم التجارة ، ومنها

(٢) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١٦٤/١-١٦٦

(١) جب ص ١

(٣) جب ص ١

كانت ترسل البعثات التجارية الكثيرة إلى بلاط ملك الصين . أما المشتغلون بالزراعة فكانوا كلهم من الجنس الإيراني .

وقد ارتبطت الولايات فيما عدا ذلك برباط ثان هو سيادة أسرة معينة فيها على جميع الأسر الأخرى ولكنه لم يكن رباطاً وثيقاً .

وكان إلى جانب هؤلاء الأمراء سادة محليون لا تتجاوز ساطة الواحد منهم حدود قراه .

أما الأراضي الخاضعة للترك والتي كانت تحتاجها القبائل البدوية فلم تنشأ فيها حكومة مركزية ، ومن ثم كانت الحروب والمنازعات ظاهرة ملازمة لها ، والمصادر العربية تحدثنا أن بخارى ووردانه كانتا على عدا ، ولما جاء العرب بالفتح هددوا العلاقات التجارية مع الصين .

ولابد لنا من أن نذكر أن حوض الزرفشان « نهر الصغد » ومنطقة جيحون لم تكونا مختلفتين في الحكم فحسب بل في اللغة وإلى حد ما في الدم . وكل شيء في هذه الأوضاع الاجتماعية ، والتفكك السياسي في حياة هذه الولايات كان في صالح الفتح العربي ^(١) .

٢ - حركة الفتح :

قبل أن نتقدم في الحديث عن حركة الفتح نجد أننا مضطرون إلى هذه الملاحظات التمهيدية الثلاث :

الملاحظة الأولى : أن فتح ما وراء النهر كان يعتمد على فتح طخارستان ، وقد أشق أمر طخارستان المسلمين حيناً من الدهر ، وكانت بلخ عاصمتها وكبر مراكرها وفيما يقص البلاذري من أنباء الفتح تتضح لنا هذه الصلة فيما بين طخارستان وما وراء النهر ، وقد تنبه إلى هذه الحقيقة الأستاذ جب فذكر في كتابه « أن فتح هذه المنطقة مقترن بمقدرات طخارستان الدنيا ، ولم يصبح الفتح ممكناً إلا بعد إخضاع

(١) جب ص ٤-٩ باختصار .

تلك المنطقة إخضاعاً تاماً » ولهذا نجد أن إخضاعها استبد بكثير من قوى المسلمين واستنفذ كثيراً من جهودهم وحملاتهم .

الملاحظة الثانية : أن فتح ما وراء النهر كان يرتبط بما كان عليه المسلمون في خراسان من تقدم وتأخر وبما كان يحيط بحياتهم السياسية والحربية فيها من ذبول وفتوح . ويوشك أن يكون ما بين هاتين المنطقتين تجاوباً كاملاً . فالفتور الذي يصيب الفاتحين، في خراسان، والخلافات القبلية التي كانت تلهو بهم أحياناً، وعصيانهم على الأمراء وقسوة الأمراء عليهم ، وتأثرهم بما كان في العراق من أحداث أو أشخاص أو ولاية ، كل ذلك كان يترك أثره واضحاً شديداً للوضوح في حركة الفتح فيما وراء النهر . فولاية رجل مثل زياد أو عبيد الله ، وحزمه واثبات الأمور له ، كانت كفيلة أن تتيح للحملات مجالات من السعة والتقدم . وولاية رجل حصيف مثل قتيبة ودغم الحجاج له وأستشعار العرب أنه من ورائه يدعمه ويؤيده ، كان جديراً أن يمكن لفتوحات ما وراء النهر أن تعطى أطايب ثمرها . . على حين أن غياب مثل هؤلاء عن هذه الساحة أدى بعد قتيبة ، إلى أن تخرج هذه المنطقة كلها من أيدي المسلمين وأن يُقَصَّوْا عنها .

الملاحظة الثالثة : والملاحظة الثالثة التي لا بد منها قبل المضي في دراسة تطور الفتح أن هناك كثيراً من التعقيد والتداخل في الروايات التي نقلها إلينا المؤرخون المسلمون على ما رأينا من هذا الحديث من قبل . غير أن التعقيد لم يكن كل شيء ، وإنما كانت هناك ألوان من الروايات تخضع لألوان من أهواء الرواة وتأثر ميولهم وتتلون فيها الحقائق بشيء أقرب أن يكون هو لون هذه الميول . وقد رأى الأستاذ جب في هذه الروايات أنها تنشعب في الأقسام التالية^(١) :

١ — روايات قيسية تدور حول ابن خازم .

ب — روايات أرزية رُبَعِيَّة تدور حول المهلب وعداء الحجاج له ، وهي أشد الروايات شيوعاً بين العرب ، وبها يأخذ البلاذري ، ويحمل عليها اليعقوبي .

ج - روايات باهلية محور هاقتيبة بن مسلم بطل باهلة . . ولم تجد هذه الروايات قبولاً كثيراً من المؤرخين ، ولكن الطبرى يوردها عرضاً في شيء من التهمك المريب .
د - روايات بخارية محلية يأخذ بها اليعقوبى والبلاذرى والنرخشى^(١) وهى تصور الفتوحات الأولى تصويرها قصة تاريخية تدور حول الماسكة خاتون على أنها بطلة قومية ، وبعض الروايات المحلية التى استفاد منها الطبرى تبدو بريئة بعض الشيء من المبالغة .

هـ - ملاحظات قليلة عند الدينورى فيها خايط من مصادر لا تعرف ، ومن الممكن إغفالها .

و - مقتبسات يوردها البلاذرى عن أبى عبيدة تدل على إعادة النظر فى الروايات بروح معادية للعرب موجّهة وجهة شعوبية ، كان أبو عبيدة من أنصارها .

ز - روايات ونقف فى الفترة الأخيرة بطلها نصر بن سيار .

ومن الممكن أن نقسم حركة الفتوح فى المراحل الكبرى الثلاث :

١ - مرحلة ما قبل قتيبة .

٢ - مرحلة قتيبة .

٣ - مرحلة ما بعد قتيبة .

المرحلة الأولى : لم يكن اجتياز ما وراء النهر أول الأمر إلا هذه الغزوات التى تمثّل الاندفاع واستثمار النصر والضرب وراء أبعد الآماد ، أكثر مما تمثل الفتوح المنظم الذى يقصد إليه أصحابه قصداً ويعنون ما يكون له وما يكون منه . . كانت تقدماً ذاتياً حيناً ، وكانت تعبيراً عن مدى الانطلاق حيناً آخر ، وكانت فى كل حين أطرافاً من الموجات الأخرى التى كانت تقصد إلى استصفاء خراسان والقضاء على المقاومات والانتفاضات فيها . ولقد رأينا طائفة من الروايات حول الذين وصلوا

(١) النرخشى Mohammed Nerchakhy صاحب كتاب Description topogra-
phique et Historique de Boukkara ed. C. schefer paris 1892 وهو أحد
مصادر الأستاذ جب فى كتابه الذى تقتبس منه هذه الفقرة .

النهر وحول الذين عبروه : عبد الله بن عامر الذي عبر النهر وأحرم الله شكره ، والحكم ابن عمرو الغفاري الذي كان أول من صلى وراء النهر ، وسعيد بن عثمان بن عفان وكان أول من قطعه ، وسلم بن زياد وكانت امرأته أول عربية عبر بها النهر ^(١) . .

ومهما يكن من تفسير هذه الروايات ومحاولة التوفيق بينها فإن الحقيقة التي تستقر وراءها واحدة لا تتغير . . تلك هي أن خطوات العرب الأولى إلى ما وراء النهر كانت خطوات مندفة أو أنها كانت خطوات تمهيدية لم تتميز بالاستقرار ولم تنسجم بكل ما يجب لها من وضوح وتآلق .

ولقد عقب على هذه الخطوات زياد وابنه عبد الله حين جُمع لهما الكوفة والبصرة ، وآل إليهما مع البصرة والكوفة خراسان ، فقد وجد كلاهما أن الأمر لا يستقر فيما وراء النهر إن لم يستقر في خراسان من قبل . ولذلك كان من أمر زياد خطوتان بارزتان :

الأولى : أن جعل من مرو مركز ولاية خراسان .

والثانية : هذه الخطوة الواسعة البعيدة المرمى حين حمل خمسين ألف أسرة على أن تهاجر من البصرة والكوفة وأن تستقر في خراسان ، وفي ذلك يروى البلاذري « أن زياداً ولي الربيع بن زياد الحارثي خراسان وحوّل معه من أهل المصّرين ، زهاء خمسين ألفاً بعيالهم وأسكنهم دون النهر ^(٢) » .

وكذلك نرى أن فتح ما وراء النهر فتحاً منظماً واضح الهدف نير الخطى إنما وُضعت أسسه هنا في مثل هذه السياسة التي انتهجها زياد ، وسينتهجها من بعده عبيد الله ابنه ، والتي أدركت أن فتوح ما وراء النهر إنما يكون فيما دون النهر قبل أن تكون هذه الوثبات من البصرة أو الكوفة ، وهذه الانسياحات التي تنساح فيها بعض الفرق أو بعض الجنود من بلخ أو من مرو أو من نحوها ، على غير سند لها ممكن وتبصر حذر .

(١) البلاذري ٤٠٨ و ٤١٣ وارجع إلى ص ١٥٢ من هذا الكتاب (٢) البلاذري ٤١٠

وقد وُفق عبيد الله بن زياد أن يدخل بخارى ، ولكنه وُفق فوق ذلك إلى أن يستعين برُماة من أهل بخارى أنفسهم في تقدّمه العسكري . وما من شك في أن الاستعانة بألفي رام من مهرة رُماة بخارى واتخاذهم حرساً على ما يروى الطبري معناه أن أمر المسلمين في هذا الجزء من الأرض قد آل إلى شيء من الاستقرار والتمركز ، فلم يعد هذا المدد الذي يحتذبه الجزرُ دائماً ، وإنما هو مددٌ تدفعه من ورائه قوى وأمداد ، وتمكّن له من الأرض التي يبلغها ومن المدى الذي يحقّقه .

وصحيح أن العرب لم يستطيعوا أن يحتفظوا بشمات هذا الفتح وبما كان من فتوحات سعيد بن عثمان بن عفان وهزيمته لاصغد ، وصحيح أن العرب « لو واصلوا ضغطهم على البلاد لما احتاجوا إلا لعشر التكاليف والخسائر التي بذلوها في استعادتها حين انتقضت عليهم ، ولكنهم أفلتوا الفرصة من أيديهم باختلافاتهم القبلية ، ولقنوا الأمراء المحليين دروساً لم ينسوها في مقاومتهم لجهود العرب حين أعادوا حملاتهم^(١) » . غير أنه ما من شك في أن المرحلة الأولى أصابت مع عبيد الله ابن زياد ومع سعيد بن عثمان بن عفان حظاً من التنظيم والرعاية ، وحسن الإشراف وإدراك الأهداف .

المرحلة الثانية : أما المرحلة الثانية فهي في هذا العمل العظيم الذي أتمه قتيبة في حوض النهر . وفي الحق أن فتوحات ما وراء النهر مدينة لقتيبة بكثير من ألقها وازدهارها وكثير من سعتها وامتدادها ، ولقد أفاد قتيبة من هذه الغزوات المتصلة التي قام بها المهلب بن أبي صفرة « وقد مات سنة ٨٣ ليلية قتيبة » كما أفاد من غزوات من قبله . . غير أنه كان نسيجاً خاصاً من الرجال وكان عمله في الفتوح ونجاحه فيها عملاً فريداً حاول المؤرخون أن يتعرفوا أسبابه وأن يحصروا هذه الأسباب ، وقد عدّ منها الأستاذ جب ما يلي^(٢) :

(١) جب ٢٣
(٢) جب ٢٩

١ — كان قتيبة ، وكان الحجاج يسانده ، وكان عرب خراسان يحسّون ذلك فلا يجدون السبيل إلى مخاصمته أو الانشقاق عنه .

٢ — ان قتيبة أدرك مآل الخلافات العربية من الأثر في توهين الفتوح ، ولذلك وجّه همه إلى أن يوحد ما بين العرب ، وأن يستثير همهم ، وأن يرسم لحياتهم في الدنيا والآخرة صورةً زاهية الألوان فتحت من نفوسهم ما أغلقت الخلافات^(١) .

٣ — وقع قتيبة على ما ينبغي للجماعات العربية أن تعتمد من معاونة الشعب الفارسي ليسود الهدوء والأمن في البلاد ، ولذلك تقرب إلى الفرس « واكتسب ثقتهم وقابلهم بمثل هذه الثقة وعهد بالوظائف إلى حكام إيرانيين ، كأنما كان يرى فيهم عشيرته إذ كانت تنقصه العشيرة القوية بين العرب . . ومع أن هذا غيّر عليه النفسات العربية ولعب دوراً هاماً في إسقاطه فإنه في الواقع كان مبعث الخفقة الأولى في حياة الروح القومية الإيرانية بين سكان خراسان^(٢) » .

ولكن الأستاذ جب لم يذكر كل ما كان من أسباب أخرى في نجاح قتيبة ، ويبدو أنه أغفل الحديث عن براعة قتيبة الحربية ، وعن أثر القواد من قبله في التمهيد له وتدوين الأرض بين يديه ، وعن براعته السياسية التي تجلّت في استثماره للخلاف بين السكان في الصغد وتأميره رجلاً في مستقبل العمر منصب الإمارة هناك واعتناق هذا الشاب الإسلام بعد^(٣) . . وكأنه لا يريد الاستقصاء وإنما يقصد إلى التمثيل .

« ومن الممكن تلخيص أعمال قتيبة الحربية في هذه المراحل التالية :

من ٨٣ — ٨٤ / ٧٠٥ استعادة طخارستان الدنيا .

من ٨٧ — ٩٠ / ٧٠٦ — ٧٠٩ فتح بخارى .

(١) اقرأ في الطبري ١١٧٩/٢/٢ خطبة له يذكر فيها بالآخرة ويتحدث عن الجنة ونعيمها ، بسبيل من نذب الناس وحشهم على الجهاد .

(٢) جب ٣٠ (٣) بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ١٦٦/١ .

من ٩٠ - ٩٣ / ٧١٠ - ٧١٢ تثبيت السيادة العربية في حوض جيحون ومدّها إلى الصفد .

من ٩٤ - ٩٦ / ٧١٢ - ٧١٥ حملات في ولايات سيجون^(١) .

وقد دخل قتيبة بخارى وببكند وسمرقند عاصمة الصفد وكش وفرغان والشاش ، وصادف ثورات عنيفة كانتقاض سمرقند وثورة نيزك وقضى عليها بعد أن آمنه . . وسيكون لهذا الحادث أثره الكبير في حياة الجماعة الإسلامية نفسها ، لأنه سيثير معارضةً عنيفة وسيُسيء ، مع طائفة من الحوادث الأخرى ، إلى سمعة قتيبة رغم ما حاوله الشعراء من مديحه وقرن فعلته هذه بما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم مع يهود يثرب .

واستمر قتيبة في فتوحاته هذه حتى استُخلف سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ وكان بين سليمان وعتيبة وخشة مصدرها ولاية العهد ، فلم يسع قتيبة إلا أن يثور بالخليفة الجديد ، ولم يصادف في ثورته توفيقاً فقتل واجتمع على قتله كل الذين أحسن إليهم من العرب والعجم . . ويغيب هذا البطل الذي فُتح له مالم يُفُتَح لأحد من قبله ، في هذه النهاية الأليمة .

على أن الأستاذ جب يلاحظ في حياة قتيبة شيئاً آخر أوْهَنَ من عزمه وشلّ من قوته ذلك هو موت الحجاج ، فيذكر لنا أنه « حوالى نهاية الصيف من عام ٩٥ هـ توقفت الحملات إلى سيجون حين وصلت الأنباء بموت الحجاج ، فقد تأثر قتيبة لموت هذا الرجل الذي كان يحميه ويؤيده فسرح جيشه وبعث بحاميات منه إلى بخارى وكش ونسف ، ثم عاد إلى مرو وكتب إليه الوليد يهتدي مخاوفه وجعل ولايته مستقلةً عن العراق ولكن ذلك كله لم يغن شيئاً^(٢) » .

لقد كان أبرز ما في فتوح قتيبة فتح بخارى وسمرقند وتثبيت الإسلام فيهما

واتجاهه في بعض الروايات^(١) إلى أن يقارب حدود الصين . ولقد دانت بخارى بأكثر مما دانت سمرقند وما حولها ، ذلك أن بخارى كما يقول الأستاذ جب « استسلمت بعد سلسلة من المعارك والحملات استنفدت موارد المنطقة فاضطرت أن تلقى بزمائها إلى العرب . أما فتح سمرقند فقد تم بضربة واحدة وظلت منطقة الصغد بعدها غير مفتوحة إلا أنها تعترف بالسيادة العربية . . بل إن السنوات التي تلت لتدل على أن علائق حسنة قامت بين قادة الحامية وبين القواد المحليين والسكان^(٢) » .

ولا شك أن الأستاذ جب يخالف هنا ما يذهب إليه المؤرخون العرب من أن فتح سمرقند كان فتحاً لـكل بلاد الصغد « فلم يتم فتح الصغد باحتلال سمرقند ، وكل الذي حدث أن فتح سمرقند استدعى وجود حامية في المدينة وكان من واجب قواد هذه الحامية أن يوسعوا فتوحهم في منطقة الصغد التي تضرر لهم العداء بتوجيه الحملات إليها^(٣) » .

تلك هي الخطوط الكبرى في المرحلة الثانية من مراحل فتوح ما وراء النهر وهي مرحلة رأينا أن قتيبة كان فيها القائد والبطل السياسي ، وكان الرجل الذي استطاع أن « يوجه بخارى وسمرقند وخوارزم لتكون مراكز للثقافة العربية ومنابت لغرس الإسلام في آسيا الوسطى ، كما كانت مرو ونيسابور في خراسان^(٤) » .

المرحلة الثالثة : أما المرحلة الثالثة فتقع فيما وراء القرن الأول ، وليس من إطار الموضوع أن يمتد إليها ، ولو أنه كان له ذلك لرأينا كيف أن كل المجد الذي حققه قتيبة لم يابث أن تضامل بعد وفاته ، فلم يرزق الأمويون بخليفة كالوليد ولا بحاكم للعراق كالحجاج ولا بقائد كالمهلب وقتيبة ، وشغل سليمان عن ذلك كله بحصار

(١) انظر الطبري ٢/٢ - ١٢٧٧ - ١٢٨٠ حين يتحدث عن غزواته في حدود الصين .

(٢) جب ٤٧

(٣) جب ٤٧ - ٤٨

(٤) فيليب حتى تاريخ العرب ٢٧٥

القسطنطينية الذي أرقه واستنفد قواه ، كما شُغل عنه بالانتقام من قواد أخيه الوليد الثلاثة الذين ارتضوا بيعة عبد العزيز بن الوليد من دون سليمان . . . والتوتر الذي كان يدفع القبائل العربية في انطلاق طلق استرخى وضعف ، وشأت العزيمات بعد أن كانت قد انقذت ، ودفعت سياسة اللين التي لجأ إليها عمر الثاني سكان هذه المناطق بعضهم إلى الإسلام وبعضهم إلى الثورة والاعتصام ، وكان موت قتيبة كما يقول جب « لا توقفاً للفتوحات العربية في آسيا الوسطى مدى ربع قرن ولكن كان بدء انحسار وتراجع ، وكانت أوامر عمر بن عبد العزيز لا لتجديد الفتح بل للتخلي عما وراء النهر جملةً ، وإن كان العرب في بخارى وسمرقند قد رفضوا الامتثال لأوامره^(١) » ، حتى جاء بعد ذلك دور نصر بن سيار .

ومن الممكن أن نقبس تاخييص الأستاذ جب للحالة في هذه المنطقة بعد موت قتيبة مباشرة :

- ١ - كانت طخارستان الدنيا قسماً من الإمبراطورية الإسلامية .
- ب - اعتبرت بخارى مفتوحة أبداً واستعمرت تدريجياً ، أما الصغد فظلمت تعتبر معادية تقوم فيها حاميات قوية في سمرقند وكش
- ج - أهملت خوارزم كقوة عسكرية واتخذت معسكراً .
- د - بقيت الممالك وراء سيحون مستقلة ، وقوية نسبياً ، تؤيدها القوى التركية في الشمال الشرقي منها كما يؤيدها بعض التدخل من الصين .
- هـ - لم تخضع أشروسنة ، ولكنها لم تسكن فيما يظهر عقبة في وجه الجيوش الإسلامية .
- و - احتفظت البلاد بالأسر الحاكمة في كل مكان ممثلة للشعب المحكوم وأداة للإدارة المدنية . وأما الإدارة الفعلية فقد تسربت من أيديهم إلى يدي الوالي أو وكيل الحاكم العربي في خراسان^(٢) .

ح - فتوح السند

الرواية التاريخية الجملة على أن محمد بن القاسم صهر الحجاج تولى أمر الفتوح في السند . غير أن البلاذري^(١) ، من بين أكثر المؤلفين ، يخصصنا بمحدث الحملات الأولى التي سبقت غزو محمد بن القاسم ، منذ أيام عمر ، وفيما بعد ذلك في خلافة عثمان وفي الفترة القصيرة التي استُخِلَفَ فيها على ، وفي غزوة المهلب لثغر أيام معاوية ؛ ويقص علينا تحت عنوان فتوح السند كيف كان تقدم المسلمين في هذه الوجهة منذ كانت ولاية عثمان بن أبي العاص الثقفي على البحرين وعمان . ونحن في غنى عن تفصيل القول في هذه الخطى الممهدة ، وحسبنا أن هذا الفتح لم يستقم للمسلمين قبل أن يستقام لهم الطريق إليه من جنوبى بلاد فارس وسواحل مكران « أى مناطق الساحل من بلوخرستان اليوم »^(٢) فلما مُكِّنَ لهم من تدويع هذه المناطق على حد تعبير البلاذري^(٣) ، وكانت خلافة الوليد بكل ما امتازت به من استقرار ، وسياسة الحجاج بما طبعها من حزم وجدّ وسعى إلى الفتوح — كانت حملة محمد ابن القاسم في ستة آلاف جندي من أهل الشام سنة ٨٩ هـ / ٧١٠ م ، وقد « أخضع هذا القائد الشاب مكران في طريقه إلى الهند ، وقطع ما يعرف اليوم باسم بلوخرستان وظفر على السند وفتح الديبل » كراشى اليوم « وهو المرفأ الذى تنتهى عنده دلتا نهر السند ، ثم فتح النيرون ، وامتدت فتوحاته بعدُ إلى الملتان في الشمال جنوبى البنجاب ، ونجم عن ذلك احتلال السند وجنوبى البنجاب احتلالاً دائماً »^(٣) .

تلك هى الفتوحات في الجناح الشرقى من المملكة الإسلامية في إيران وما وراء النهر وثمر السند ، فلنحاول بعد أن تبيننا حيزها الزمانى والمكانى وطبيعتها ومنابعها ووجهتها ، وبعد أن عرفنا تطورها وحركتها أن ندرس هذه الفتوح من الوجهة الاجتماعية واستقرار الإسلام فيها ، وانتشار العربية في بعض أجزائها .

(١) البلاذري ٤٣١

(٢) البلاذري ٣٩٢ وجه أبو موسى الربيع بن زياد فزار في كرمان فدوخها

(٣) فيليب حتى تاريخ العرب ٢٧٧

٦ - موقف السكان من هذه الفتوح

١ - لم يلق المسلمون من العنف والمقاومة مثل الذى لَقُوا فى هذا الجناح من الدولة الإسلامية . . كان كل شيء غريباً عنهم منذ أن جاوزوا القادسية والحيرة وقاربوا المدائن . كان الدم غير الدم ، وكانت اللغة غير اللغة ، وكانت العادات والأعراف غير العادات والأعراف . . كانت اللغة الإيرانية لغة هذه المناطق فيما دون النهر ، وكانت الإيرانية والتركية فيما وراء النهر ، وكانت لغات آرية أخرى فى منطقة السند ، فليس ثمة من هذا النحو ما يعطفهم على الحركة الإسلامية ويقرّبهم منها . . فى العراق وسورية وفى مصر أحياناً كان ثمة هذا التشابك والتواصل بين الدماء ، أما هنا فقد كان الدم غريباً حقاً . . وإذا نحن استثنينا بعض ألوان التقارب بين العراق العربى والعراق العجمى حيث كانت مملكة الحيرة وبعض التقارب فيما بين شاطئي الخليج الفارسى ، لم نجد إلا هذه الآثار التى خلفها حكم الفرس لليمن فى بعض الفترة السابقة على الهجرة . أما فى المناطق الإيرانية الأصلية ، فيما دون النهر وفيما وراء النهر ، فليس ثمة شيء يصل بين العرب الوافدين وبين الإيرانيين المستوطنين ، وبخاصة فى المناطق الداخلية والجبلية مثل طبرستان وجرجان وإقليم فارس . . فكان على العرب أن يفتسجوا هذه الصلات خيطاً بعد خيط وعروة بعد عروة .

٢ - هذا إلى شيء آخر أصيل فى حياة هذه المناطق . فالمسلمون هنا يواجهون إمبراطورية ضخمة عاصرت التاريخ أحقاباً طويلة ومارست سلطانها على رقعة كبيرة من العالم وكان لها فى الحكم والسياسة وفى الإدارة والثقافة جذورٌ بعيدة ، وكانت هذه الجذور تُمسكّن للشعور الإيراني القومى ، مع الزمن المتصل ، أن يزكو وأن يستعلى . ولذلك لم يكن يسيراً على هذه الجيوش الإسلامية المتقدمة عبر دجلة أو عبر الخليج الفارسى أن تطوى ذلك كله فى حركة سريعة . كان لابد من هذا النضال الطويل الذى لم يخمد ساعة من زمن . كان مقاومةً سافرة فى أول الأمر ، وكان انتفاضاً

بعد ذلك ، وكان سلسلةً من هذه الارتدادات المتلاحقة ، وأخيراً كان ، بعد أن دخل
السكريون في الإسلام ، نزاعاً على السيطرة بين الفرس والعرب لم تُطوَّ صفحاته .

٣ — والشئ الثالث الذي يجب أن نشير إليه أن المسلمين هنا لا يحاربون كما
حاربوا في الشام ومصر والعراق وإفريقية . كانوا في العراق يحاربون مناطق ليست
من صميم الوطن الإيراني في شئ ، وكذلك كانوا في سورية ومصر وإفريقية يحاربون
ولايات بيزنطية ، فلا يفعلون أكثر من أن يخلعوا عنها هذا الرداء الذي يكسوها
من حكم الفرس أو حكم الروم . وأما هنا في هذا الجناح الشرقي فهم يحاربون في صميم
الوطن الفارسي وخارجة ، هذا الوطن الذي يرجع إلى آلاف السنين والذي شهد
حضارات وخاض حروباً واقسم العالم القديم أو أكثره فيما بينه وبين اليونان
أو بينه وبين بيزنطة . ولذلك فإن المسلمين هنا يقاتلون هؤلاء الناس على أنفسهم ،
وهم ينافزونهم سلطانهم ، فما من عجب أن يكون كل ما يلقون مقاومةً وثورات
وخروجاً ، وأن يمتد الفتح وأن ينكش حتى يأذن الله للإسلام بالانتشار فيكون لثورات
الفرس غير هذه الصفات والشيآت .

٤ — ولقد كان لبعد ما بين الدين الإسلامي وبين الأديان والمذاهب التي كانت
تسود إيران أثرٌ كبيرٌ في المبادئ بين حركة الفتح وبين غايتها ، وفي عمق الهوة
التي كانت بين المسلمين وبين الاستقرار في هذه المناطق والدور الذي يلعبه الدين
في حياة الجماعات أظهر من أن نعاود الحديث فيه الآن . وطبقات رجال الدين ، هذه
التي كانت تقاسم الإمبراطور حكمه ، كانت آخر الطبقات التي استسلمت المسلمين
بعد هذا الصراع الطويل ، فقد ظلت تدير حركة المقاومة في براءة ودقة ، وكان
سلطانها على النفوس ومشاركتها العميقة من قبل في الحكم وسيطرتها على المجتمع
الفارسي كقيلةٍ أن تمسكن لها من غايتها ، واستخدمت في ذلك العنف والدماء معاً ،
وكانت هي التي تعاقدت في كثير من الأحيان والمدن عن أهل البلاد ، وكانت تتولى
مفاوضة العرب وتتولى للعرب كذلك أمر الجزية وما يتصل بها . فاذا أقبل السكان

على الإسلام كتبوا إلى الولاة « إن الناس استعربوا ، يريدون أسلموا ، فليس يسعنا أن نفى لسكرم بما عاقدناكم عليه^(١) » ويضطر الولاة لذلك ، أو بعضهم ، أن لا يرفع الجزية عن الذين أسلموا وفاء لما يقتضى الملك العضوض من أموال .

هـ - فاذا أضفنا إلى ذلك طبيعة الأرض واختلاف الإقليم لم نبعد عن التعرف إلى سبب من أسباب المقاومة العنيفة التى لقيها الفتح الإسلامى . فالعرب المسلمون هنا لا يماربون فى مثل طبيعة الأرض التى حاربوا فيها من قبل ، ولا يألفون هذه الأجواء الباردة التى أخذوا ينساحون فيها . إنهم يواجهون هنا مناطق جبلية وعرة منذ خرجوا من المدائن ، وتستقبلهم أجواء قاسية فيها الثلج والمطر والصقيع والشتاء المستطيل . وما أشد ما لقي المسلمون مثلاً فى طبرستان وسجستان ، وستظل ذكرى جيش مصقلة بن هبيرة الذى بعثه معاوية على رأس جيش من عشرة آلاف إلى طبرستان وتوغله حتى أخذ عليه العدو المضائق ورموا جنده بالصخور من أعالي الجبل ومات مصقلة وجنده جميعاً لم ينبج منهم أحد^(٢) - مثلاً حياً على مدى ما أسففت الطبيعة الإيرانية فى مقاومتهم وأسهمت فى إمدادهم وكيدهم المسلمين .

ومن أجل ذلك كله ، من أجل هذا الصراع الجنىسى والصراع اللغوى والصراع الدينى . . ومن أجل هذا التقاتل على السيادة والغلبة على الوطن الأم والتنازع بين قوم لهم حضارة وماض وقوم ينشئون هذه الحضارة أو يجدّدونها ، من أجل هذا كله كان موقف السكان فى هذه المناطق ، توجه عام ، موقفاً مقاوماً عنيفاً فى المقاومة ويزيد من عنفه أن الذين ينازعونه كانوا من قبل يخالفونه أو يقابلهونه .

ومن هنا كان التفانى فى حروب الإيرانيين . . ومن هنا كان هذا التاريخ الطويل للفتح^(٣) . . وإذا كان فى وسعنا أن نقول إن هذه الفتوحات بدأت بعد المدائن أو بعد نهاوند سنة ٣٧ أو ٤١ فإنه ليس فى وسعنا أن نقول متى انتهت ،

(٢) البلاذرى ٣٤٢ - ٣٤٤

(١) الطبرى

(٣) اقرأ من الأمثلة على ذلك فتح كابل عند البلاذرى ٤٠٠

لأنها استغرقت في الواقع كل صفحات التاريخ الإسلامي .. في هذه الصورة أو تلك من صور الخلاف السياسي أو الخلاف الديني . ولكن من المؤكد أن الأحنف في خلافة عمر شارف جيحون ، وأن المسلمين تقدموا بعد ذلك في خلافة عثمان ثم كان تاريخهم وتاريخ الفرس معهم حلقة متصلة من المدّ والجزر والانسياب والانحسار على ما رأينا من العرض لحركة الفتح حتى مُكِّن لفتيبة أواخر القرن الأول ما مُكِّن له ، وحتى مُكِّن لنصر بن سيار بعده أن يمضي في خطاه .. واستمر أمر بعض المفاطيق مثل كابل حتى أيام المأمون حيث « أظهر ما سكها الإسلام وأدخلها عاملاً وانصل إليها البريد ^(١) » .

٧ — على أن ذلك لا يعني أن موقف المقاومة كان موقف كل الطبقات التي تؤلف المجتمع الإيراني .. ومن المؤكد أنه كان هنالك هذه الطبقة المستضعفة التي وجدت في الإسلام مُتَنَفِّساً لها ، غير أنها لم تستطع أن تقوم بنصرته إلا في قليل من الحالات .. ومن المؤكد أيضاً أنه كان هنالك هذه الطبقة الحاكمة التي كانت تصانع المسلمين حيث تستشعر منهم القوة ونجد عندهم العزم ، واسكنها كانت تقصد بذلك لمنفعتهم الخاصة وتاريخ الفتوح يظهرنا دائماً على نماذج متصلة من حياة هذه الطبقة التي كان أول ما تهدف إليه أن تحفظ عليها كيانها وسلطانها .

وآية هذا كله أن المسلمين هنا منذ جاوزوا المدائن بدأوا يقاسون أهوالاً شديدة في حركة الفتح ، ويلقون مقاومة متجددة في كل شبر من الأرض .. وقد اصطلح على إذكاء هذه المقاومة طائفة من الأسباب في حياة إيران نفسها وفي تاريخها وفي بيئتها الطبيعية — وطائفة من الأسباب في حياة الجماعة الإسلامية نفسها وخصوصياتها في العراق والشام — وكان ذلك كفيلاً أن ينتهي بأمر الفتوح إلى هذا الطول والعنف والتفاني .

ثبت المصادر

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الكرم) ٥٥٥ - ٦٣٠ هـ
 - الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً نشرة تورنبرغ * ليدن - بريل « ١٨٦٧
 أوليري O,Leary (De Lacy)
 - بلاد العرب قبل الإسلام "London 1927" Arabia before Mohamad
 بتلر (الدكتور الفريد ج) Butler (Alfred J)
 - The Arab conquest of Egypt "Oxford 1902"
 - فتح العرب لمصر : الترجمة العربية (الأستاذ محمد فريد أبو حديد)
 « نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة - مطبعة دار الكتب » ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م
 بلاو (دكتور) O. Blau (Dr.)
 - خريطة لجزيرة العرب ملحقة بكتاب الأصنام لابن السكلي « ليزيك » ١٩٤١
 بروكلان (كارل)
 - تاريخ الشعوب الإسلامية : ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير البعلبكي
 « بيروت - دار العلم للعلايين » ١٩٤٨ - ١٩٤٩
 البلاذري (أبو بكر) « أو جعفر ، أو الحسن ، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي الشهير بالبلاذري
 « أواخر القرن الثاني - ٢٧٩ »
 - فتوح البلدان نشرة دي غويو « بريل - ليدن » ١٨٦٦
 النغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن بردى الأتابكي) ٨١٣ - ٨٧٤
 - النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة
 الأجزاء السبعة « القاهرة - دار الكتب المصرية » ١٣٤٨ - ١٩٣٩ هـ ١٣٥٧ - ١٩٣٨ م
 جب Gibb (H. A. R.)
 - الفتوح العربية في آسيا الوسطى The Arab Conquest in Central Asia
 (London 1923 The Royal asiatic Society)
 جرومان (أدولف - الدكتور)
 - أربع محاضرات عن الأوراق البريدية العربية . تعريب توفيق اسكاروس
 « القاهرة - دار الكتب المصرية » ١٩٣٠ م
 الجزائى (أبو الحسن علي)
 - زهرة الآس في بناء مدينة فاس نشرة الفريد بل « الجزائر » ١٩٢٣
 حتى (فيليب - الدكتور)
 - تاريخ العرب « مطول » الدكتور فيليب حتى والدكتور ادورد جرجى والدكتور جبرائيل جبور
 ٣ أجزاء « بيروت - دار الكشاف » ١٩٤٨ - ١٩٥١
 ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن علي ... الحافظ العسقلاني) ٧٧٣ - ٨٥٢ هـ
 - تهذيب التهذيب « حيدر آباد الدكن » ١٣٢٥ - ١٣٢٧ هـ
 حمزة (فؤاد)
 - قلب جزيرة العرب « القاهرة - المطبعة السلفية » ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي) ... - أواخر القرن الرابع الهجري
- المسالك والممالك « ليدن - بريل » ١٨٧٣ هـ

ابن خلدون « الفقيه » (أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون)
- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد « الجزائر » ١٣٢١ هـ - ١٩٠٣ م

ابن دقاق (إبراهيم بن محمد بن أيمن العلاني المصري)
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار الجزء الرابع والخامس « القاهرة - بولاق » ١٣٠٩ - ١٣١٤ هـ

ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيبي القيرواني المعروف بابن أبي دينار)
- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس « تونس - مطبعة الدولة التونسية » ١٢٨٦ هـ

ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر بن رسته) ... - أوائل القرن الرابع
- الأعلاق النفيسة (ومعه كتاب البلدان لليعقوبي) المجلد السابع من المكتبة الجغرافية
« ليدن - بريل » ١٨٩١ - ١٨٩٢ هـ

ساويرس (ابن المقفع - أسقف الأشمونين) ... - أواخر القرن الرابع
- سير الآباء البطاركة الاسكندرانيين المعروف بسير البيعة المقدسة « مبورغ » ١٩١٢ هـ
سعيد بن بطريق (افثسيوس الاسكندري البطريق الرومي المملوكي المسكني سعيد بن بطريق)
٢٦٣ - ٣٢٨ هـ

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق في معرفة التواريخ « بيروت - اليسوعية » ١٩٠٥ - ١٩٠٩ هـ
ابن سلام (أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي) ١٩٧ - ٢٢٣ هـ
- الأموال بتحقيق الشيخ حامد القتي « القاهرة »

السلوى « الناصري » (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد بن حماد الناصري السلوى أو السلوى
١٢٥٠ - ١٣١٥ هـ

الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : أجزاء « القاهرة - البنية » ١٣١٢ هـ
سيدة إسماعيل كاشف (دكتوراه)
- مصر في فجر الإسلام

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) ٢٢٤ - ٣١٠ هـ
- تاريخ الأمم والملوك « ليدن - بريل » الأول ١٨٧٩ - ١٨٨١ والأجزاء الأخرى بعد ذلك

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري)
... - ٢٥٧ هـ

فتوح مصر والمغرب وأخبارها نشرة شارل توري Torrey « ليدن - بريل » ١٩٢٠ هـ
- القسم الخاص بمصر نشرة ماسيه (مجلس المعارف الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية) ١٩١٤ هـ

ابن عذاري المراكشي (أبو محمد عبد الله) أو (أبو عبد الله محمد) ... - أواخر القرن السابع
- البيان المغرب في أخبار المغرب جزءان « بيروت - مكتبة صادر » ١٩٥٠ هـ

Wellhausen فلهاوزن

- The Arab Kingdom and its Fall "Caluctta" 1927

Cristensen : L'Iran sous les sassanides كريستنسن

- إيران تحت حكم الساسانيين: الترجمة العربية « الدكتور يحيى الحشاش القاهرة - دار الفكر العربي »

- الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف) ٢٨٣ - ٣٥٠ هـ
- كتاب الولاء وكتاب القضاة - نشره جست Rhuvon Guest
- التاسع عشر من مجموعة ذكرى جب « بيروت - المطبعة الكاثوليكية » ١٩٠٨ هـ
- كيتانى (ليون الأمير) Caetani (Leone)
- حوليات الإسلام (ينتهى بمحوادث سنة ٣٥٠ هـ) « ميلانو ١٩٠٥ - ١٩١٨ » Annali dell, Islam
- لوستراخ Le Strange (G. B.)
- أراضى الخلافة الشرقية - The Land of the eastern Caliphate
- Cambridge University Press 1930
- المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي)
- رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية .
- نشرة الدكتور حسين مؤنس « القاهرة - مكتبة النهضة » ١٩٥١ هـ
- مؤنس (حسين - دكتور)
- فتح العرب للعرب « القاهرة - لجنة الجامعيين لنشر العلم مطبعة مصر » ١٩٤٧ هـ
- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن علي) ٣٤٥ - ٤٦٥ هـ
- التنبيه والإشراف (الثالث من المكتبة الجغرافية)
- نشرة دى غويه « لندن - بريل » ١٨٩٣ - ٩٤ هـ
- المقرئى (تقى الدين أحمد بن علي بن عبد القادر) ٧٦٦ - ٨٤٥ هـ
- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار « جزآن » « القاهرة - بولاق » ١٢٧٠ هـ
- البيان والإعراب عما بارض مصر من الأعراب « إبراهيم رمزى » « القاهرة - مطبعة مصر » ١٣٣٤ هـ
- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ٦٧٧ - ٧٣٢ أو ٣٣ هـ
- نهاية الأرب فى فنون الأدب المطبوع منه ١٥ جزءاً « القاهرة - دار الكتب المصرية »
- « الجزء الثانى والعشرون (الباب السادس من الفن الخامس فى أخبار إفريقية وبلاد المغرب) »
- الهمدانى (الحسين بن أحمد بن يعقوب المعروف بابن الحائك) ٣٣٤ - ... هـ
- صفة جزيرة العرب - نشره مولر « لندن - بريل » ١٨٨٤ م
- وهبه (حافظ)
- جزيرة العرب فى القرن العشرين
- « القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الثانية » ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م
- ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى) ٥٧٥ - ٦٢٦ هـ
- معجم البلدان ٤ أجزاء - نشره وستنفلد « ليبزبك » ١٨٦٦ - ١٨٧٠ هـ

(١)

آبار حديد : ١٢٠
آبل وهى آبل الزيت : ١٤ ، ١٥
آرى : ١٧١ « لغة آريّة »
الآزاذبه : ٤٣
آسيا : ٣٠ « الغربية » ، ٣١ « فلوات » ،
٨٠ ، ٨٢ « الصغرى » ، ٩٧ ،
١٠٢ « الصغرى » ، ١٦٨ ، ١٦٩
« الوسطى » .
الآسيويون : ٧٨ « الهكسوس » ،
٧٩ « الغزوات الآسيوية »
الآفار : ١١٣ ، ١٣٨
الآباطرة الأقوياء الذين تعاقبوا على
بيزنطة أيام الفتوح الإسلامية : ١٤٥
أبجر بن جابر بن بجير : ٦٢
إبراهيم عليه السلام : ٨٦
أرشهر : ١٤٨
الآبلّة : ١٧ ، ٥٥ ، ٥٧
أبيورد : ١٤٨
ابن الأثير : ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٢٩
اجنادين : ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣
وانظر جنابتين
الاحنف بن قيس : ١٥٦ ، ١٥٨ ،
١٥٩ ، ١٧٤
أم دين : ٨٨
أذربيجان : ١٤٦ ، ١٤٨ - ١٥٠ ،
١٥٤
أذْرُح : ١٢ ، ١٣ ، ٢٧
أرجان : ١٥٠
اردشير : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٠

أردشير خرّه : ١٥٠
الأردن : ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣
أرطوبون : ٢١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧
أرك : ٢٣
أرمات (يوم) : ٥٧
أرمينية : ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ١٠٢ ،
١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٤
اريطيون : انظر أرطوبون
الأزد : ١٦٢ « روايات أزدية عن فتح
ما وراء النهر »
أساليب العرب الحربية : ٣٠ ، ٤٢ -
٤٥ ، ٥٤ - ٥٧ ، ١٢١ ، ١٢٢
أسامة بن زيد : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٥
ابن اسحق : ٢٨ ، ٣٩
الأسقف جد القديس يوحنا (فى فتح
دمشق) : ٢٣
الإسكندر الأكبر : ٨٤
الإسكندرية : ٨١ - ٨٣ ، ٨٧ - ٩٥
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،
١٠٦ ، ١١٢ ، ١٣٧
أسوان : ٩٤
أشروسنة : ١٦٩
اصطخر : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٨
بنو الأصفر : ١٣
أصفهان : ١٥٠ ، ١٥٨
أعبد بن فدكى السعدى (من أعوان
خالد) : ٤٦
الأعشار (يوم هو يوم الجسر) : ٥٣
أغواث (يوم) : ٥٧

أدروبا : ٩٧ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٣٨
« الأوريون »

أوليري : ٨١

إياد : ٤٤ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧

إياس بن قبيصة الطائي : ٤٣ ، ٦٢

إينج : ١٤٨ ، ١٥٠

إيران : ١٥٥ ، ١٥٧ - ١٥٩ ،

١٧٠ ، ١٧٢

إيراني : ١٤٧ و ١٦٠ « الشعب » ،

١٦١ « الجنس » ، ١٧١ « الشعور » ،

١٧٢ « الوطن » ، ١٧٤ « المجتمع »

إيرانية : ١٦٠ « لغة » ، ١٦٠ « أنظمة »

١٦٦ « قومية » ، ١٧١ « لغة »

١٧١ « مناطق »

إيرانيون : ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٦

« حكام » ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤

إيطاليا : ٩١ ، ١١٣ ، ١٣٣

أيلة : ١٢ ، ١٣ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٥٧

إيلياء : ٣٣

ابن الأيهم : ٦٥ وانظر جبلة

(ب)

بئر الكاهنة : ١٣٢

الباب : ١٥٠ ، ١٥٧

بابل : ٥٩

بالميون (حصن ، معاهدة أو صالح) :

٨٧ ، ٨٨ - ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦

الباجي : ١٢٠

ابن باذان : ٣٩ وانظر بهرام

بار وسا : ٤٩

باقسيانا : ٤٩

إفريقية (وإفريقيون) : ٢٥ ، ٣٠ ،

٣١ « محاري » ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٧ ،

٩٩ ، ١١٠ - ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ،

١١٩ - ١٣١ ، ١٣٢ « عجم إفريقية » ،

١٣٢ - ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ،

١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٧٢

الأقرع بن حابس التميمي : ١٢٦

ابن أكتال : ٤٤ ، ٦٢

أكيدر بن عبد الملك (صاحب دومة

الجنديل) : ١٢ ، ١٣ ، ٢٧

أليس : ٤٢ ، ٤٣ ، ٦١ ، ٦٦ - ٦٨

اليوثروبوليس : ٢١ وانظر اجنادين

أمغيشيا : ٤٣ ، ٦٢

بنو أمية والدولة الأموية : ٢٤ ، ١٢٩ ،

١٣٣ ، ١٥٠ ، ١٥٣

الأنبار : ٥ ، ٤٣ - ٤٦ ، ٤٨ ،

٥٤ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٦ - ٦٧ ، ٦٨

« أنباريون » ٧١ - ٧١ « أنباري »

الأندر زغر : ٤٢ ، ٦١

الأندلس : ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٨

الأنصار : ١٢٤

الأنصار والمهاجرون : ٥١ ، ١٢٠

وانظر المهاجرون

الأفارقة : ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ - ١٣٩

انطابلس (برقة) : ٩٦ ، ١٣٠ وانظر برقة

انطاكية : ٢٥ ، ٢٩

أنطيوخس ايفاناس : ٨٤

أنوشروان : ٧١

الأهواز : ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٥٨

الأوراس (هضبة) : ١١٥

أورشليم : ٢١ ، ٣٣ ، وانظر بيت

المقدس وإيلياء .

١٢٨ - ١٣٢ وانظر انطابلس

برمون : ٨٦ وانظر الفرما

بروكان : ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٩١

١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٨ - ١٦٠ ، ١٦٦

بُسْر بن أبي أرطاة : ٢٣ ، ١١٦ ،

١٢١ - ١٢٣

بسكرة : ١٢٦

البِشْر : ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٥

بُصْرى : ٥ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ،

٢٦ ، ٢٧

البصرة : ١٤٥ ، ١٤٧ - ١٤٩ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ وانظر

المصران والثغران

بغداد : ٤٥ ، ٥٥ ، ٧١

أبو بكر الصديق (الخليفة الأول ،

خليفة الرسول) : ١٠ ، ١٤ ، ٢٠ ،

٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ ،

٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ،

٦١ ، ٦٣ ، ٦٨

بكر بن وائل : ٤٢ ، ٦١

البكرى : ١١١ ، ١٢١

البلاء (نهر) : ١٣٠

البلاذرى : ٢٥ ، ٩٤ - ٩٦ ، ١١٦ ،

١٢١ ، ١٢٧ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤

بلميس : ٨٧

بلخ ، ١٦١ ، ١٦٤

البلقاء : ١٠ ، ١٨

البلقان : ١١٣ ، ١٣٨ « البلقانيون »

بالحيا : ٤٨

باهلة : ١٦٣ « روايات باهلية عن

فتح ماوراء النهر »

البتَر (قبيل من البربر) : ١٣٧

البتراء : ١٠

بتلر : ٨٤ ، ٨٦ - ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢

٩٤ - ٩٦ ، ١٠٤ - ١٠٨

بحاية : ١١٢

مُبحَسِّر بن فلان : ٤٥ ، ٦٥

بحيلة : ٥١ - ٥٣ ، ٦٩

البحر الأبيض المتوسط : ٧٨ ، ٨٦ ، ٨٩

البحر الأحمر : ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٣

بحر الخزر : ١٤٦

بحر عُمان : ١٤٦

البحر الميت : ١٠ ، ٢٠ ، ٣٠

البحرين : ١٤٨ - ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٧٠

بحيرة خوارزم : ١٤٦

بحيرة مريوط : ٩٠

بخارى : ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣

« روايات بخارية عن فتح ما وراء

النهر » ، ١٦٤ ، ١٦٦ - ١٦٩

البخور : ٨١

البرانس (قبيل من البربر) : ١٣٧

البربر (والقبائل البربرية) : ١١٠ ، ١١١ ،

١١٤ ، ١٣٤ - ١٣٦ ، ١٣٨ - ١٣٨

١٤٠ ، ١٤١

البرج (علم على مكان في العراق) : ٤٩

برسبواس : ١٥٨

البرشاء : ٦٨

برقة : ٧٧ ، ٩٦ - ٩٨ ، ١١٠ - ١١٥

١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ،

- بلقين : ٢٩
بلوخرستان : ١٧٠
بلوزيم : ٨٦ وانظر الفرما
بلي : ٢٩
البنجاب : ١٧٠
بنزرت : ١٢٠
براء : ٢٨ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧
برام جور : ٣٨
برسير : ٥٩
الهبقاذ : ٤٨ « الأسفل » ، ٧٥
« والأوسط »
برمن جاذوئيه (وهو ذو الحاجب):
٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٦٢
بواتيه : ١٢٣
البوازيح : ٦٤
بوران : ٤٩ ، ٧٠
بور سعيد : ٨٦
البويب : ٤٧ ، ٥١ - ٥٤
بيت جبرين : ٢١
بيت المقدس : ٢١ ، ٢٥ ، ٨٣ ، ٨٤
وانظر أورشليم وإيلياء والقدس
البرنيه : ١٢٣
بيزنطة : ١٣ ، ١٤ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٨٣ ،
٨٧ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
١١٠ ، ١١١ ، ١٢٥ ، ١٣٨ ،
١٣٩ ، ١٤١ ، ١٧٢
بيزنطى : ٩٤ « أسطول » ، ١١٠
و ١١٣ « جيش » ، ١١٤ « عهد »
بيزنطية : ٩٣ ، ٩٥ ، ١١١ ، ١٤٥
و « امبراطورية » ، ٨٢ « دولة » ،
- ١١٠ ، ١٠٢ ، ٩٩ ، ٩٧ « ولايات » ،
١٣٧ « معالم » ، ١٧٢ « ولايات »
بيزنطيون : ١١ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٩ -
٣١ ، ٣٤ ، ٨١ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،
١٤٠ ، وانظر الروم
يسع الأبناء فى الجزية : ٩٦
يكنند : ١٦٠ ، ١٦٧
بين النهرين : ١٤٧
(ت)
تبوك (وتبوكية) : ١٢ ، ٥ - ١٤ ،
١٨ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٧٨
تدمر : ٢٣
التذارق (قائد بيزنطى أخو هرقل) : ٨٤
الترك (أترك ، قبائل ، جيش ، شعب
رعية ، أسر ، ملك ..) : ١٤٤ ،
١٤٧ ، ١٥٨ - ١٦١ ، ١٦٩ ،
١٧١
ترعة الشعبان : ٩٠
ترنوط : ٩٠
يزيد بن حبيد (ابن هزارف) : ٢٨
تُسُتر : ٥٩ ، ١٤٨ ، ١٥٥
تغلب : ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٦٤ ،
٦٦ ، ٦٧
تكريت : ٥٥ ، ٥٩
تلمسان : ١٢٤
تنوخ : ٢٨ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧
تهوذة : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩
تورى (الأستاذ ، محقق فتوح مصر
وأخبارها) : ٨٩

جَرْبَا: ١٢، ١٣، ٢٧
 حرجان: ١٤٩، ١٧١
 جرجة: ٢٩
 جرجير: ١١٢، ١١٧، ١١٨
 ابنة جرجير: ١١٨
 الجراح بن عبد الله الحكيم: ١٤٤
 الجرف: ١٤، ١٥
 جرير بن عبد الله البجلي: ٣٨، ٣٩، ٥١
 كَرْزُ بن معاوية السعدي: ١٥٥
 جزيرة ابن شريك: ١٢٥، ١٢٧
 الجزيرة العربية (وعرب الجزيرة):
 ١، ٣، ٥، ٧، ١٠، ١٦،
 ٢٠، ٢٥، ٢٦، ٣١، ٣٣،
 ٣٤، ٣٨، ٤٥، ٤٦، ٦٠،
 ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٧٨، ٨٤،
 ٩٣، ٩٤، ١٠٢، ١٠٤، ١١٥
 الجسر: ٤١، ٤٧، ٤٩، ٥٣—١٠٨
 جعفر بن أبي طالب: ١١، ١٤،
 ٢٤، ٢٧
 جَلُولَا: ٥٩، ١٢٠، ١٤٥،
 ١٥٦—١٥٨
 جندل العجلي (رسول بالفتح من خالد
 إلى أبي بكر): ٤٣
 جُنْدِيَسَابُور: ٥٩، ١٤٨
 جنّابتين: ٢١ وانظر اجنادين
 جَوْبَر (نهر): ٤٩
 جوتبيه (أحد المؤلفين الفرنسيين
 في تاريخ المغرب): ١٣٧
 جَوْزْجان: ١٤٨

تونس: ١١٢، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٢،
 ١٣٣، ١٣٧، ١٣٩
 التيجاني: ١١٦، ١١٧
 تيم اللات: ٦٢، ٦٧
 تيودوسيوس الأول: ١٠٠
 تيماء: ١٧، ٢٨
 تيوفانس: ٣٣، ١٣١
 (ث)
 الثعبان (ترعة): ٩٠ وانظر ترعة
 الثغر (البصرة والكوفة): ١٤٩
 وانظر الكوفة والبصرة في مكانهما
 من الكشف.
 ثقيف: ٥٠
 الثَّيْنِي (علم على مكان يقترن بالمدار):
 ٤١، ٤٢، ٦١
 الثَّيْنِي (علم على مكان يقترن بالشمر):
 ٤٥، ٤٦، ٦٥
 ثيودوروس (البطريق القائد): ١١
 ٢٤، ٨٧، ٨٨
 (ج)
 جابان: ٤٨، ٦٢، ٧٥
 جابر بن بجير (وابنه): ٤٢، ٦١،
 ٦٢
 جالوس (قائد فارسي): ٤٩
 جب: ١٥٤، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٥—١٦٩
 الجبال (في المنطقة الشرقية): ١٥٤،
 ١٥٧
 جبلة بن الأيهم الغساني: ٢٩، ٦٥
 جذام: ٢٨، ٢٩

حرملة : ٣٩
 حسان بن النعمان : ١٢٨ ، ١٣٠ —
 ١٣٣ ، ١٣٨
 حسين مؤنس (الدكتور) : ١١٨ ،
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٣١
 الحصن : انظر بابلين
 الحصين : ٥٩
 الحصيد : ٢٢ ، ٤٥ ، ٦٥
 الحضارة البيزنطية والبربر : ١٣٦
 الحضارة الرومانية في إفريقية : ١١٣ ، ١١٤
 الحضارة الفنية في إفريقية : ١١٣ ، ١١٤
 الحضارة المصرية والبخور : ٨١
 حضر موت : ٦
 الحفير : ٤٠ — ٤٢ ، ٦١ ، ٦٣
 الحكم بن أبي العاص : ١٤٩
 الحكم بن عمرو الغفاري : ١٥٢ ، ١٦٤
 حلب : ٢٥
 حلوان (في العراق) : ١٤٨ ، ١٤٩ ،
 ١٥٦ ، ١٥٧
 حلوة (قرب الإسكندرية) : ٩١
 حمص : ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٤
 حنش الصنعاني : ١٢٧
 حنا النقيوسي : ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٥ — ١٠٧
 حنين : ١٢
 حوارن : ٢٣
 ابن حوقل : ٩٠
 حوارين : ٢٣
 الحيرة : ٥ ، ٢٢ ، ٣٩ — ٤٤ ، ٤٦ —
 ٤٨ ، ٥٥ ، ٦١ — ٦٤ ، ٦٦ — ٦٨ ،

جوستنيان : ٩٦ ، ١١٠ ، ١١٣
 الجوف (مكان في العراق) : ٥١
 جيحون (نهر ومنطقة) : ١٤٦ ،
 ١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٧ ،
 ١٧٤
 (ح)
 الحارث بن الحكم : ١١٧
 ذو الحاجب (بهمن جاذويه) : ٤٩ ، ٥٠
 وانظر بهمين
 الحبشة : ٩٥
 حبيب بن مسلمة الفهري (أحد قواد خالد
 في غارته على الفوطية) : ٢٣
 الحجاز : ١ ، ٣٩ ، ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
 ٨٣ ، ٨٧ ، ١٨٤
 الحجاج : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥١ ،
 ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠
 الحَجَر : ١٢
 ابن الحدرجان : ٦٥
 الحدق (موقعة) : ٩٥
 الحديدية : ١٠ ، ٩٢
 حذيفة بن محسن الغلفاني (من قواد
 المثنى) : ٥٤
 حذيفة بن اليمان : ١٥٧
 ابن حرام الأنصاري (سعد بن عمرو بن
 حرام) «خلفه خالد على صندودا» : ٢٢
 حرّان : ٣٤
 حرقوص بن النعمان البهراني : ٢٣
 حرقوص بن زهير السعدي : ١٥٥

الحورنق : ٤٣
خوزستان : ١٤٦ ، ١٥٨
(د)
دائن : ٢١
الداروم : ١٤
دجلة : ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٧١
درفش كايان (الراية) : ٤٩
دمشق : ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٩ ،
١٣٣ ، ١٣٨
الدهاقين : ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٤ ،
٦١ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
١٠٨
دومة الجندل : ٢٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧
درون النهر : ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧١
ديالى (نهر) : ١٥٦
الديبل (ميناء) : ١٤٧ ، ١٧٠
وانظر كراتشى
ديبل (الاستاذ ، صاحب كتاب إفريقيا
البيزنطية) : ١٣١
دينار (أبو المهاجر) : ١٢٤ - ١٣٨ ، ١٢٧
ابن أبي دينار (صاحب المؤنس) :
١١٢ وانظر المؤنس
الدينورى : ١٦٣
(ذ)
ذبيان : ١٥
ذوقار : ٥٦
(ر)
الرافدان : ٨١ « بلاد » وانظر دجلة
والقرات

٦٧ « حيريون » ، ٧١ ، ٧١ ، ٧٠ ،
« حيرى » ، ٧٣ ، ٧٥ ، ١٧١
حيفا : ٢١
(خ)
خانون : ١٦٣
خارجة بن حذافة : ٨٧
ابن خازم : ١٦٢
خالد بن سعيد بن العاص : ١٧ - ١٩ ، ٢٨
ابن خالد بن سعيد بن العاص : ١٨
خالد بن الوليد : ١١ ، ١٢ ، ١٦ ،
١٨ - ٢٤ ، ٣٩ - ٤٧ ، ٥٩ - ٧٠ ،
٧٤ وانظر أبو سليمان
خالد بن يزيد (من بنى عيس ، أسرته
الكاهنة) : ١٣١ ، ١٣٢
الخان (لقب سيادة فى المناطق التركية) : ١٦٠
خراسان : ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ،
١٥١ - ١٥٤ ، ١٥٧ - ١٥٩ ،
١٦٢ - ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩
الخصومات الدينية بين بيزنطة وولايتها :
٣٤ ، ١٠١ ، ١١٠
خطبة حجة الوداع : ١
خفان : ٤٨
ابن خلدون : ١٢٦
خلقدونية (مجمع) : ٣٤ ، ٩٩
الخليج الفارسى : ٧٥ ، ٨٥ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٧١ ، ١٧٢
الحنافس : ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٧١
الحنديق (قرب المدينة) : ١٤
خوارزم : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩

السكان الأصليون في المغرب: ١٣٦، ١٣٤
 السَّكُون : ٥٣ ، ٥٢
 ذات السلاسل : ٦١ ، ٤١
 سلامون انطالاس : ١١٥
 سلم بن زياد : ١٥٢ ، ١٦٤
 سُلمى بن القين (أحد أمراء الجند في
 فتح العراق) : ٣٩
 سَلِيح : ٢٨
 سليط بن قيس : ٥٠ ، ٤٩
 بنو سُليم : ٥٣
 أبو سليمان : ٢٢ وانظر خالد بن الوليد
 سليمان بن عبد الملك : ١٤٦ ، ١٤٨ ،
 ١٦٧ — ١٦٩
 سمرقند : ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٧ — ١٦٩
 السند (النهر والمقاطعة) : ١٤٤ ،
 ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٩ ،
 ١٧٠ ، ١٧١
 سنطيس (أو سلطيس) : ٩٠
 السواد : ٤٢ — ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٣
 — ٥٨ ، ٥٥ « أهل » ، ٦٢ ، ٦٨
 « أهل » ، ٧١ و ٧٣ « علوج » ،
 ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ « أهل » ، ٧٥ ،
 ٧٦ « أهل »
 السودان : ٩٤ ، ٩٥ ، ١١١
 سورية : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٣
 ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
 ١١٠ ، ١٣٧ ، ١٧١ ، ١٧٢
 السوس (إحدى مدن المشرق) : ٥٩ ،
 ١٤٨

٥٨ و ٥٩ و ٧٠ و ٧١ و ١٤٥ و
 ١٤٨ « الامبراطورية » ، ٦٩ ،
 ١٥٩ « الأسرة »
 سالم بن نصر (أحد الأدلاء) : ٤٠
 الساميون : ٨٠
 سباع بن عرفطة : ١٢
 سبرت (صبرة) : ١١٦ . وانظر صبرة
 صبيح بيار : ٢٢
 سبيطة : ١١٨
 سترابون : ٨١
 سجستان : ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧٣
 سُرت : ١٢١ ، ١٢٢
 سرجيوس (قائد الروم في وادي
 عربية) : ٢١
 سرجيوس (بطريك القسطنطينية) :
 ١٠٠
 سرخس : ١٤٨
 سردينية : ١٣٣
 سعد بن أبي وقاص : ٣٤ ، ٤٧ ، ٥٦
 ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١٥٦
 سعيد بن عثمان بن عفان : ١٥٢ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥
 سعيد بن مُرَّة (أحد مسلمي بني عجل) : ٦١
 سعيد بن النعمان (أحد أعوان خالد
 في حروبه) : ٤٢
 السقاطية : ٤٩
 السكان الأصليون في العراق : ٦٠ ،
 ٧٣ ، ٧٦

الشامسة والرهبان في فتح الشام : ٣٢

الشوش : ١٥٨

شوميا (موضع دار الرزق) : ٥٢

(ص)

أبو صالح : (مولى حسان بن النعمان) : ١٣٠

صلوبا بن نسطونا : ٤٤ ، ٧٥

صبره (سبرت) : ١١٦ وانظر سبرت

الصحابية : ٩٢

الصغانيان (نهر) : ١٦٠

الصغد (أو السغد) : ١٥٩ ، ١٦٠ ،

١٦٥ - ١٦٩

صفرونيوس (بطريك بيت المقدس) : ٣٣

صفين : ٥٤

الصقر (جبال) : ١٥٦

صقلية : ١٣٣

صلة مصر الجغرافية بالجزيرة العربية :

٧٩ ، ٨٠

صندوداء : ٢٢

الصين : ٦ ، ١٤٤ ، ١٥٩ « ملك » ،

١٦٠ « وصينيون » ، وسيطرة

صينية « ، ١٦١ « وملك » ،

١٦٨ ، ١٦٩

(ض)

ضبة : ٤٥ ، ٥٢

ضبيعة : ٦٢ ، ٦٧

الضجاعم : ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧

ضرار بن الازور : ٤٣ ، ٦٢

ضرار بن الخطاط : ٤٣ ، ٦٢

ضرار بن مقرن المزني : ٤٤ ، ٦٢

السوس الأدنى (من مناطق المغرب) :

١٢٦

سوسة : ١٢٠ ، ١٢٥

سوى : ٢٢

سويد بن مقرن المزني : ٤٢

السيب (علم على مكان) : ٥٣

سيحون : ١٤٧ ، ١٦٧ ، ١٦٩

سيدي عقبة : ١٢٦

سيف بن عمرو (الراوية) : ٣٩ ، ٢٨

٤١ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٧٠

سينا : ٧٨ - ٨٠

سينير : ١٥٠

السيوطي : ٩٦

(ش)

الشام : ٣ ، ٥ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ،

١٦ - ٢٣ ، ٢٥ - ٣٠ ، ٣٢ ،

٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٦٧ ،

٦٩ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ - ٨٥ ،

٨٧ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ،

١٠٣ ، ١٠٤ « عرب » ، ١١٥ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ،

١٤٠ ، ١٤٤ - ١٤٦ ، ١٤٨ ،

١٥١ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤

الشاش : ١٦٧

شرح بيل بن حسنة : ١٧ - ٢٠ ، ٢٣

شريك بن سمى الرادي : ٩٠ ، ١٢١

شريك العبسي : ١٢٥

الشعبي : ٤٨

شعيب (الراوية) : ٥٢ ، ٦٨ ، ٧٠

(ط)

الطائف : ١٢

الطالقان : ١٤٨

طامبوس (موقعة) : ١٤٩

طبرستان : ١٢٧ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ،

١٧١ ، ١٧٣

الطبرى : ١٠ ، ١١ ، ١٤ - ٢٥ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ٣٢ - ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤١ - ٤٦ ، ٤٨ - ٥٥ ، ٥٧ ،

٥٩ ، ٦١ - ٧٣ ، ٧٥ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ١٠٨ ، ١٤٨ - ١٥٠ ،

١٥٤ - ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ،

١٦٨ ، ١٧٣

طبقة الدهاقين في العراق : ٧٣ ، ٧٥

» الفلاحين في العراق : ٧٣ ، ٧٤ وأنظر

السكان الاصليون

طبقة أهل السواد في العراق : ٧٦

وأنظر السواد .

طربلس ٧٧ ، ٩٦ - ٩٨ ، ١١٠ -

١١٣ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٣٠

طرخان : ١٦

طخارستان : ١٤٦ ، ١٦١ ، ١٦٦ ،

١٦٩

الطف : ٥٦ ، ٥٥

طلحة (الراوية) : ٧٠

طنجة : ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ،

١٢٩

طه الهاشمي : ٢٢

طوروس (جبال) : ٨٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦

طوس : ١٤٨

(ظ)

ظفر (دليل المثنى) : ٤٠

(ع)

عاصم (أحد القواد في فتوح العراق) :

٤٩ ، ٥٠

عاصم بن عمرو : ٤٠

العاقول : ٤٩

عام الوفود : ٤

عام الجماعة : ١١٩

ابن عامر : ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦٤ ،

(وانظر عبد الله بن عامر)

عاملة : ٢٩

عبادة بن الصامت : ٨٧

عباد بن الحُصَيْن بن الحُبَاطي : ١٥٤

عبد الأسود العجلى : ٦١ ، ٦٢

ابن عبد الأسود العجلى : ٤٢ ، ٦١

بنو عبد بن الحارث بن طريف من ضبّة :

٤٥ ، ٢٥

ابن عبد الحكم : ٨١ ، ٨٢ ،

٨٤ - ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٨ ،

١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٢ ،

١١٦ - ١٢٧ ، ١٣٠ - ١٣٤

عبد الرحمن بن سمرة : ١٥٤

عبد الرحمن بن عوف : ١٥٧

عبد العزيز بن مروان : ١٢٨ ،

١٣٣ ، ١٣٤

عبد العزيز بن الوليد : ١٦٩

عبد الله بن رواحة : ١١ ، ٢٤ ، ٢٧

عبد الله بن الزبير : ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠

عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٩٤ ،
 ٩٥ ، ٩٧ ، ١١٧ - ١١٩ ،
 ١٢٣ ، ١٢٢
 عبد الله بن عامر بن كريز : ١٤٨
 عبد الله بن عثمان بن أبي العاص
 الثقفي : ١٥٢
 عبد الله بن عمرو بن العاص : ٩٠ ، ١١٩
 عبد الله بن مرثد الثقفي : ٥٠
 عبد الله بن معمر اليشكري : ١٤٤
 عبد الله بن وثيمة : ٦٣
 عبد الملك بن مروان : ١٢٠ ، ١٢٧ ،
 ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ١٤٤ ، ١٤٦
 بنو عباس : ١٥ ، ١٣١
 بنو عبيد بن سعد بن زهير : ٤٥ ، ٦٥
 أبو عبيد بن مسعود الثقفي : ٤١ ، ٤٧ ،
 - ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٠
 أبو عبيدة بن الجراح : ١١ ، ١٧ ،
 ١٨ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٨٥
 أبو عبيدة (معمر بن لثقي) : ١٦٣
 عبيد الله بن زياد : ١٥٤ ، ١٦٢ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥
 عُتَيْبَةُ بن غزوان بن جابر المازني :
 ١٥٠ ، ١٥٥
 عُتَيْبَةُ بن النحاس : ٦١
 عثمان بن أبي العاص الثقفي (أخو الحكم) :
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٧٠
 عثمان بن عفان : ١٢ ، ٨١ ، ٩٤ ،
 ٩٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٤٤ ،
 ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ،
 ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤
 بنو عجل : ٤٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧
 عجم وأعاجم : ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ،
 ٥٢ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ - ٦٦
 عدن : ٥٧
 عدى بن حاتم : ٤٠
 عدى بن عدى المقتول : ٤٤ ، ٦٣ ، ٦٢
 بنو عدى بن كعب : ٤٢
 ابن عذارى المراكشي : ١٢٦ ،
 ١٢٨ - ١٣١ ، ١٣٣
 عذرا. (مكان قريب من دمشق) :
 ٢٣
 العُدَيْب : ٥٧
 العراق : ٣ ، ٥ ، ١٦ - ١٨ ، ٢١٠ ،
 ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٨ - ٤٠ ،
 ٤٤ ، ٤٦ - ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ - ٦١ ، ٦٤ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٦ ،
 ٧٨ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ،
 ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ،
 ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
 ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
 ١٧٤
 العراق العجمي : ٤٧ ، ٧٠ ، ١٧١
 عرب البادية : ٥٩ ، ٦٦ ، ٦٧
 عرب الحجاز : ٧٩
 عرب الجزيرة : ٦٣ ، ٦٥ ، ١٠٤
 عرب ساميون : ٨٠

عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٩٤ ،
 ٩٥ ، ٩٧ ، ١١٧ - ١١٩ ،
 ١٢٣ ، ١٢٢
 عبد الله بن عامر بن كريز : ١٤٨
 عبد الله بن عثمان بن أبي العاص
 الثقفي : ١٥٢
 عبد الله بن عمرو بن العاص : ٩٠ ، ١١٩
 عبد الله بن مرثد الثقفي : ٥٠
 عبد الله بن معمر اليشكري : ١٤٤
 عبد الله بن وثيمة : ٦٣
 عبد الملك بن مروان : ١٢٠ ، ١٢٧ ،
 ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ١٤٤ ، ١٤٦
 بنو عباس : ١٥ ، ١٣١
 بنو عبيد بن سعد بن زهير : ٤٥ ، ٦٥
 أبو عبيد بن مسعود الثقفي : ٤١ ، ٤٧ ،
 - ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٠
 أبو عبيدة بن الجراح : ١١ ، ١٧ ،
 ١٨ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٨٥
 أبو عبيدة (معمر بن لثقي) : ١٦٣
 عبيد الله بن زياد : ١٥٤ ، ١٦٢ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥
 عُتَيْبَةُ بن غزوان بن جابر المازني :
 ١٥٠ ، ١٥٥
 عُتَيْبَةُ بن النحاس : ٦١
 عثمان بن أبي العاص الثقفي (أخو الحكم) :
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٧٠
 عثمان بن عفان : ١٢ ، ٨١ ، ٩٤ ،
 ٩٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٤٤ ،
 ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ،
 ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤

عمر بن عبد العزيز : ١٦٩، ١٤٤، ٩٥
 عمر بن علي القرشي (خليفة عقبة على
 بعض جيشه) : ١٢٢
 عمرو بن محمد (الراوية) : ٦٨
 عمرو بن العاص : ١٧ - ٧٩، ٢٠
 ٨٦-٨٨، ٩٠-٩٢، ٩٤
 ٩٦، ١٠٦، ١١٦، ١١٧، ١١٩
 ١٢١، ١٢٧
 عمرو بن عبد المسيح : ٤٤ ، ٦٢
 عمار بن ياسر : ١٤٨
 عويم بن الكاهل الأسلمي : ٤٥ ، ٦٥
 عياض بن غنم : ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤
 ٦١ ، ٦٣ - ٦٨
 عيلا م : ١٥٨
 عين التمر : ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٤ - ٦٦
 عين شمس : ٨٧ وانظر هليوبوليس
 عينية بن حصن : ١٢٦
 (غ)
 غدامس : ١٢٢
 غرناطة : ١٣٢
 غزوة : ٢١ ، ٣٠
 غسان (وغسانة) : ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩
 ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧
 بنو غفار : ١٢
 القوطة : ٣٣
 (ف)
 فارس : ٣ ، ١٠ ، ١٧ ، ٣٩ ، ٤٢ -
 ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ - ٥٦ ، ٥٨
 ٦٠ - ٦٢ ، ٦٦ - ٧٣
 ٧٥ ، ١١٣ ، ١٤٥ - ١٤٧

عرب الشام : ١٠٤
 عرب الضاحية : ٤٢ ، ٥٩ ، ٦١ - ٦٣
 ٦٦ ، ٦٧ ، ١٠٤ ، ١١٥ « الضواحي »
 عرب غاربة : ٦٣
 عرب العراق : ٦٤ ، ٦٧ ، ١٠٤
 عرب متعربة : ٦٣
 عرب المدن : ٦٧
 عرب اليمن : ٧٩
 عربستان : ١٥٨
 عرفات : ١
 عروة (من أعوان خالد في المصبيح) : ٤٦
 العريش : ٨٤ - ٨٦
 عصمة بن عبد الله بن عبيدة بن سيف
 ابن عبد الحارث بن طريف من
 بني ضبة : ٤٥ ، ٥٢
 عقبة بن عامر الجهني : ١١٩
 عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري :
 ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٦ - ١١٨ ، ١٢١ -
 ١٢٩ ، ١٣٨
 عقبة بن أبي عقة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٤ ، ٦٥
 العلا الحضرمي : ١٤٩ ، ١٥٠
 علقمة بن مجز : ١٩
 علي بن أبي طالب : ١٢ ، ١١٩ ، ١٤٧
 ١٥٧ ، ١٧٠
 عثمان : ١٧٠
 عمر بن الخطاب : ١٨ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ٥١
 ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٩
 ٨٣ - ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٦
 ١١٧ ، ١٤٤ ، ١٤٧ - ١٥٠
 ١٥٤ - ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢
 عمر بن سراقة المخزومي : ١٤٨

- برّي إلى القسطنطينية : ١٤٦
 الفلاليج : ٤٤
 فلسطين : ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٧٩ ، ٢١
 فلهاوزن : ١٥٣ ، ١٥٤
 قم العتيق : ٤٣
 الفهلوج : ١٥٧
 فوكاس : ٩٦ ، ١١٣
 الفيرزان : ١٥٤ ، ١٥٧
 الفيقر بن نسطوس : ٣٣
 الفيل والفيلة : ٤١ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٧٢
 فيليب حتى : ٢١ - ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠
 ٣٣ ، ٨٥ ، ١١٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨
 ١٦٨ ، ١٧٠
 الفنيقيون : ١١٠ ، ١٣٦
 الفيوم : ٨٨ ، ١٠٥
 (ق)
 قابس : ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٣٢
 قابغان قاغان : ١٦٠
 القادسية : ٥ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥
 ٥٧ - ٥٩ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١٥٥
 ١٥٦ ، ١٧١
 قارن بن قريانس : ٤١ ، ٤٢
 القاهرة : ٨٧ ، ٨٨
 القبائل الشامية ودورها في الفتح : ٢٩
 القبط والأقباط : ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٨
 القبقلاق : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣
 قتيبة بن مسلم الباهلي : ١٤٤ ، ١٥١
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ - ١٦٩ ، ١٧٤
 القدس : ٣٣ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٧ وانظر
 بيت المقدس
- ١٤٩ - ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٧
 ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧١
 فارسيّ ، فارسية (بيوتات ، مقاومة
 جيش ، إمبراطورية ، حكومات
 شعب ، مناطق ، مجتمع الخ ..)
 ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٦٩
 ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ١٠٤
 ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٨
 ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣
 الفرس : ٣ ، ٦ ، ٧ ، ١١ ، ٣١
 ٣٨ - ٤٢ ، ٤٤ - ٤٦ ، ٤٩
 ٥٢ ، ٥٤ - ٥٦ ، ٥٨ - ٦٠
 ٦٤ - ٦٦ ، ٦٨ - ٧٣ ، ٧٥
 ٧٦ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ٩٨
 ١٠٠ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨
 ١٥٠ ، ١٥٦ - ١٦٠ ، ١٦٤
 الفاروس : ٩٣
 الفارياب : ١٤٨
 فحل : ٢٣
 الفرات : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ -
 ٥٤ ، ٦٦ ، ٧٩ ، ٨٠
 «فم» فرات بادقلى : ٤٣ ، ٦٢ ، ٧٥
 الفراض : ٤٦ ، ٦٦ ، ٦٧
 فرغانة : ١٦٧
 الفرما : ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٦ ، ١٠٧ وانظر
 بلوزيم وپرمون
 فزان : ١١٦ ، ١٢٢
 الفسطاط : ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١١٨
 ١٢٠ ، ١٢٤
 فضالة بن عبيد الأنصاري (قائد جيش

ابن القطان (نقل عنه ابن عذاري): ١٣٣

الققعاق بن عمرو: ٣٤، ٤٥، ٤٦

قفصة: ١٢٢

قفط: ٨٠، ٨١

قلبان قراقر: ٢٢

قنبز: ٨٤، ٨٦

قناة تراجان: ٩٣

قنسرين: ١٥٠

قونية (مكان في المغرب): ١٢٨

القيروان: ١١٢، ١١٨، ١٢٠ -

١٣١، ١٣٣

قيس: ١٦٢ « روايات قيسية عن

فتح ما وراء النهر »

قيسارية: ٢١، ٢٥

قيصر: ٦

قيرس (المقوقس): ١٠٠، ١٠٤ وأنظر

المقوقس .

(ك)

كابل: ١٥٥، ١٧٤

كاشف (دكتورة سيدة إسماعيل):

٨٦، ٩٢

الكاظمة (أو الكواظم): ٤١

الكاظمة: ١٣٠ - ١٣٢

الكباش: ٥٣، ٥٤

كراتشي: ١٧٠ وأنظر الديبل

كرمان: ١٤٦، ١٧٠، ١٩٠، ١٥٩، ١٧٠

الكرنك: ٧٩

كربون: ٩٠، ١٠٦

كسرى: ٦، ٣٩، ٤٩

القرآن الكريم: ٣، ٧، ٦٠

قراقر: ٢٢ وأنظر قلبان

قرطاجنة: ٩٧، ١١١، ١١٢، ١١٨

١٢٤، ١٢٥، ١٣٠ - ١٣٣،

١٣٦، ١٣٩

القرقس (واقعة) « أو القس قس

الناطف » ٤٩

قرقيسياء: ٥٩، ١٤٨، ١٤٩

قرميسين: ١٥٧

القرن: ١٢٠

القرينتين: ٢٣

قريش: ٥، ٢٩

قزوين (بحر): ١٥٨

قسطناز: ٩٤، ٩٨

قسطنطين الأول: ١٠٠

قسطنطين الثاني: ٩١، ٩٣

قسطنطين الرابع: ١٢٥، ١٤٥، ١٤٦

قسطنطينية: ٨٣، ٨٤، ٩١، ١٠٠

١٠٢، ١٠٣، ١١٠، ١١٤، ١٢٢

١٢٩، ١٣٨، ١٤٦، ١٦٩

القصر الأبيض (في الحيرة): ٤٣، ٦٢

قصر ابن بقليلة (في الحيرة): ٤٤، ٦٢

قصر العدسين (في الحيرة): ٤٤، ٦٢

قصر فارس (بالقرب من الاسكندرية): ٩١

قصر بني مازن (في الحيرة): ٤٤، ٦٢

ذو القصة: ١٦

قصطلية: ١٢٢

قسم (موضع في طريق نفوذ خالد): ٢٣

القصور (ميناء على البحر الأحمر): ٨٠

١٥، ٢٣، ٢٨، ٢٩

(م)

- المأمون : ١٧٤
 ماسبندان : ١٢٨ ، ٥٩ ، ١٤٩
 ماسيه (الأستاذ محقق فتوح مصر) :
 ٩٣ ، ٩١
 ماسونا ماستيجاس : ١١٥
 مالك بن عباد (أحد الأدلاء) : ٤٠
 المالكي (صاحب رياض النفوس) : ١١٧ ،
 ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٩
 الماهين : ١٤٨
 متشوى : ١٦٠
 المثني بن حارثة الشيباني : ٢٢ ، ٣٩ ،
 ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ - ٥٤ ،
 ٥٦ ، ٥٨ - ٦٠ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٥
 المجتمع الشامي قبل الإسلام : ٢٦
 أبو الحاسن التغربردي : ١٠٦
 محمد صلى الله عليه وسلم : ١ - ٣ ،
 ٥ - ٧ ، ١٠ ، ١٢ - ١٦ ، ٢٤ ، ٢٧ ،
 ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٥٨ ،
 ٧١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٢٦ ، ١٦٧
 محمد بن عبد الله بن سواد بن نورة
 (الراوية) : ٤١ ، ٧٠
 محمد بن أبي بكر : ١٣٠
 أم محمد بنت عبد الله بن أبي العاص
 النخعي (زوجة سلم بن زياد) : ١٥٢
 محمد علي الكبير : ٧٩
 محمد بن القاسم (صهر الحجاج) :
 ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٧٠
 محمود الغزنوي : ١٤٧
 المحيط الأطلسي : ٩٨ ، ١١٢ ، ١٢٧
 المحيط الهندي : ١٢٦
 أبو مخنف : ٤٨

- كسكر : ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦١
 كسيلة (صاحب البربر) : ١٢٤ - ١٢٩
 ١٣٢ ، ١٣٨
 كش (أو كس) : ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٦٩
 كلب : ٢٨ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٧
 ابن الكلبي : ٣٩
 الكلج الضبي (أحد حماة الناس يوم
 الجسر) : ٥٠
 كلواذي : ٦٤
 كندة (قبيلة) : ١٢
 الكندي (مؤلف الولاية والقضاء) : ٨١
 كنيسة الذهب : ٩٣
 الكنيسة السورية والكنيسة البيزنطية :
 ٣٤
 الكنيسة المصرية والكنيسة البيزنطية :
 ١٠١
 الكنيسة يعقوبية في المغرب والكنيسة
 البيزنطية : ١١٠
 الكوفة : ٣٤ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ١٤٥
 ١٤٨ - ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٤ وانظر
 المصراعان والتغران
 كوم شريك : ٩٠
 (ل)
 لحم : ٢٨ ، ٢٩
 اللغة : ١١٤ « اللاتينية » ، ١٤٧
 « الفارسية » ، ١٢٧ « التركية »
 اللهارديون : ٩١ ، ١١٣ ، ١٣٨
 لوانة : ٩٦
 ليبيا : ٩٦
 أبو ليلى بن فديكي : ٤٥ ، ٤٦
 ليو الايسوري : ١٢٦

١٠٠٣ ، ١٦٤ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٣٧٧
 ٨٧٠ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٨ ، ١١٠
 ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٥
 ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٥١
 ١٥٣ ، ١٧١ ، ١٧٢
 المصران (البصرة والكوفة) : ١٥١
 ١٥٧ ، ١٦٤ وانظر الكوفة
 والبصرة والفران
 مصقلة بن هبيرة : ١٢٧ ، ١٧٣
 المصيصيخ : ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥
 ٤٦ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨
 مضر : ٥٤ ، ٥٦
 مطر الشيباني : ٥٤
 معاهدة الاسكندرية : ٩٢
 معاوية بن حُديج السكوني : ١١٩ - ١٢٤
 معاوية بن أبي سفيان : ١٧ ، ١٩
 ٢٥ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٥
 ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٢
 ١٧٠ ، ١٧٣
 المعركة (طريق عمرو بن العاص إلى
 فلسطين) : ١٨
 المعلقة (قرطاجنة) : ١٣٠
 المغرب : ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٥
 ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤
 ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١
 مغمداش : ١٢١ ، ١٢٢
 المغيرة بن شعبة : ٥٨ ، ٨١
 المغيرة بن عتبة (قاضي الكوفة) : ٤٠
 المقداد بن عمرو : ٨٧

المداخن : ٣٩ ، ٣١ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٤
 ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ١٣١ ، ١٤٤
 ١٤٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٧١
 ١٧٣ ، ١٧٤
 المدينة المنورة : ٣ ، ٥ ، ١١ ، ١٧
 ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٠
 ٥٠ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٩٣ ، ١١٩
 ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٤٤ وانظر يثرب
 المذار : ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦١
 ٦٣ ، وانظر الثني
 مذعور (أحدهما الناس يوم الجسر) : ٥٠
 المذهب الدوناني في إفريقية : ١٤٠
 المرازبة (ومرزبان) : ٤٨ ، ٧٠ ، ١٥٨
 مرداشاه : ٤٨
 مرج راهط : ٢٣
 مرج الروم : ٣٢
 مرج الصفيقر : ١٨ ، ٢٣
 مرطانية : ١١٥
 مرو : ٥٩ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٣
 ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨
 مروان بن الحكم : ١١٩ ، ١٢٠
 مرو الروذ : ١٤٨ ، ١٥٣
 ذو المروة : ١٥
 المروحة (موقعة ومكان) : ٤٩ ، ٥٠
 مريوط (إقليم) : ٩٦ وانظر بحيرة
 مزانة : ١٢٢
 مسلمة بن مخلد : ٨٧ ، ١٢٥
 مسلمة بن عبد الملك : ١٤٦
 المسيح عليه السلام : ٣٤ ، ٨٦ « أسيرة
 المسيح » ، ١٠٠ « المسيحية »
 بنو مشجعة (من قضاة) : ٢٣
 مصر (ومصريون والنسبة إليها) :

- المقر (موضع موقعة) : ٦٢ ، ٤٣
 المقریزی : ١٠٦ ، ٩٠
 المقوقس (قبرس) : ٩١ ، ٨٨ ، ٨٧
 ٩٢ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٧ وانظر
 قبرس
 مكران : ١٧٠ ، ١٥٩ ، ١٤٦
 مكة المكرمة : ٩٢ ، ٤٦ ، ٢٧ ، ١٧ ، ٥٠ ، ٣
 اللتان : ١٧٠
 مليانه : ١١٢
 ممش : ١٢٩
 ممفيس : ٨٩
 المناذرة : ٣٨
 منويل (القائد البيزنطي) : ١٠٢ ، ٩٤
 أبوالمهاجر دينار : ١٣٨ ، ١٢٧ - ١٢٤
 المهاجرون والأنصار : ١٢٠ ، ٥١
 وانظر الأنصار
 المهبوزان : ٤٥
 مهران بن باذان : ٣٩ ، ٣٨ ، ٥٢
 مهران بن بهرام جوين : ٦٥ ، ٦٤ ، ٤٥
 المهلب بن أبي صفرة : ١٦٥ ، ١٦٢ ،
 ١٧٠ ، ١٦٨
 مؤاب : ٢١ ، ١٩
 مؤتة : ٢٤ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٠ ، ٥
 ٧٨ ، ٦٨ ، ٢٧ ، ٢٥
 أبو موسى الأشعري : ١٧٠ ، ١٥٠ ، ١٤٩
 موسى بن نصير : ١٣٩ ، ١٣٤ ، ١٣٣
 الموصل : ١٥٠ - ١٤٨
 المؤنس (كتاب) : ١٢٥ ، ١١٢ ، ١١١
 المونويلية : ١٠٠
 المونوفيسية : ٩٩
 (ن)
 ابن الناجي : ١٢٠
- النباج : ٦١
 النحاس في سينا : ٨٠
 نرسی (اسم قائد) : ٤٨
 الترشيخي : ١٦٣
 نسا : ١٤٨
 النصراني (والنصرانية) : ١٣٢ -
 ١٤٠ ، ١٣٤
 نصاري العرب : ٦٢ - ٧٥ ، ٦٤
 نصر بن سيار : ١٧٤ ، ١٦٩ ، ١٦٣
 نصيبين : ٣٤ ، ٢٥
 النعمان بن عوف بن النعمان الشيباني : ٥٤
 النعمان بن مُقَرَّر : ١٥٧ ، ٥٨ ، ٥٧
 النفوذ الاقطاعي في العراق : ٧٦ ، ٧٥
 النفوذ العسكري في العراق : ٧٥
 نفقور : ١٣١
 النقل النبلي : ٨٠
 نقبوس : ٩٤ ، ٩٠
 التمارق : ٤٩ ، ٤٨
 النمر : ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٤ ، ٥٤ ، ٤٤
 نهاوند : ١٧٣ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ٥٩
 النهر (حوض) : ١٦٤ ، ١٦٠ وانظر
 وراء النهر ودون النهر
 النهدي (الراوي) أبو عثمان : ٥٠
 النوبة : ٩٧ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٧٧
 النويري : ١٣٨ ، ١٣٢
 النيرون : ٧٠
 نيزك : ١٦٧
 نيسابور : ١٦٨ ، ١٥٣
 نيقثاس : ٩٦
 النيل : ٨٦ ، ٨٠ ، ٧٩ ، «النيل البلوزي» ،
 ١١٣ ، ٩٩ ، ٩٣ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨
 نيفي (نهر) : ١٣٠

(هـ)

هاشم بن عتبة بن أبي وقاص : ١٥٦

الهذيل بن عمران : ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٥

هراة : ١٥٣

هرقل : ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣

١١٣ ، ١١٢ ، ١٠٠ ، ٩٦ ، ٩١ ، ٨٣

هرقل وبدعة المشيئة الواحدة : ١٠٠

هرمز : ٤١

هرمزان : ١٥٤ ، ١٥٥

هرمزجرد : ٤٤

الهرير (ليلة) : ٥٧

ابن هزارف : انظر يزيد بن حيدان

هشام بن محمد بن السائب أبو النذر

الكلبي (الراوية) : ٤٨ ، ٦٣

الهكسوس : ٧٨ - ٨٠

هلال بن ثروان اللواتي : ١٣٠

الهلال الحصيب : ٧٨

هلال بن عقة : ٤٦ ، ٦٥٠

هليوبوليس : ٨٨ ، ٨٧ وانظر عين شمس

عمدان : ١٥٤ ، ١٥٧

الهند (والنسبة إليها) : ٦ ، ١٧ ، ٨١

١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٧٠

المهيطل : ١٦٠

(و)

الوادى (فى طريق بعث أسامة) : ١٥

وادى عربة : ٢ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٨٣

وادى ملوية (فى المغرب) : ١٢٩

الواقدي : ٣٩

الواقصة : ١٨

والق (اسم قائد) : ٤٩

ابن وبرة بن رومانس : ٦٥

ودان : ١١٦ ، ١٢٢

وديعة الكلبي : ٦٥

وراء النهر : ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٢ -

١٥٤ ، ١٥٩ - ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧١

وردان (مولى عمرو) : ٩٠

وردانه : ١٦١

الولجة : ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٦

الوليد بن عبد الملك : ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠

الوليد بن عقبة : ١٧ - ١٩ ، ١٤٩ ، ١٥٤

الوندال : ١١٠ ، ١١٣ ، ٢٣٤

ويل (الأستاذ) : ١٠٦ ، ١٠٧

(ى)

يابداس : ١١٥

ياقوت : ١١١ ، ١١٢

يثرب : ١٦٧ ، وانظر المدينة المنورة

اليرموك : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣

يزدجرد : ٥٥ - ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ١٤٥

١٥٦ - ١٥٩

يزيد بن أبي سفيان : ١٧ - ١٩ ، ٢١ ، ٢٣

يزيد بن معاوية : ١٢٥ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٢

يعقوب عليه السلام : ٨٦

اليعقوبي : ١٦٣

الجمامة : ١٦ ، ٣٩ ، ٤٠

اليمين : ٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٧٩ - ٨١ ، ٩٥ ، ١٧١

اليهود : ١٥٠

يوحنا (القديس) : ٢٣

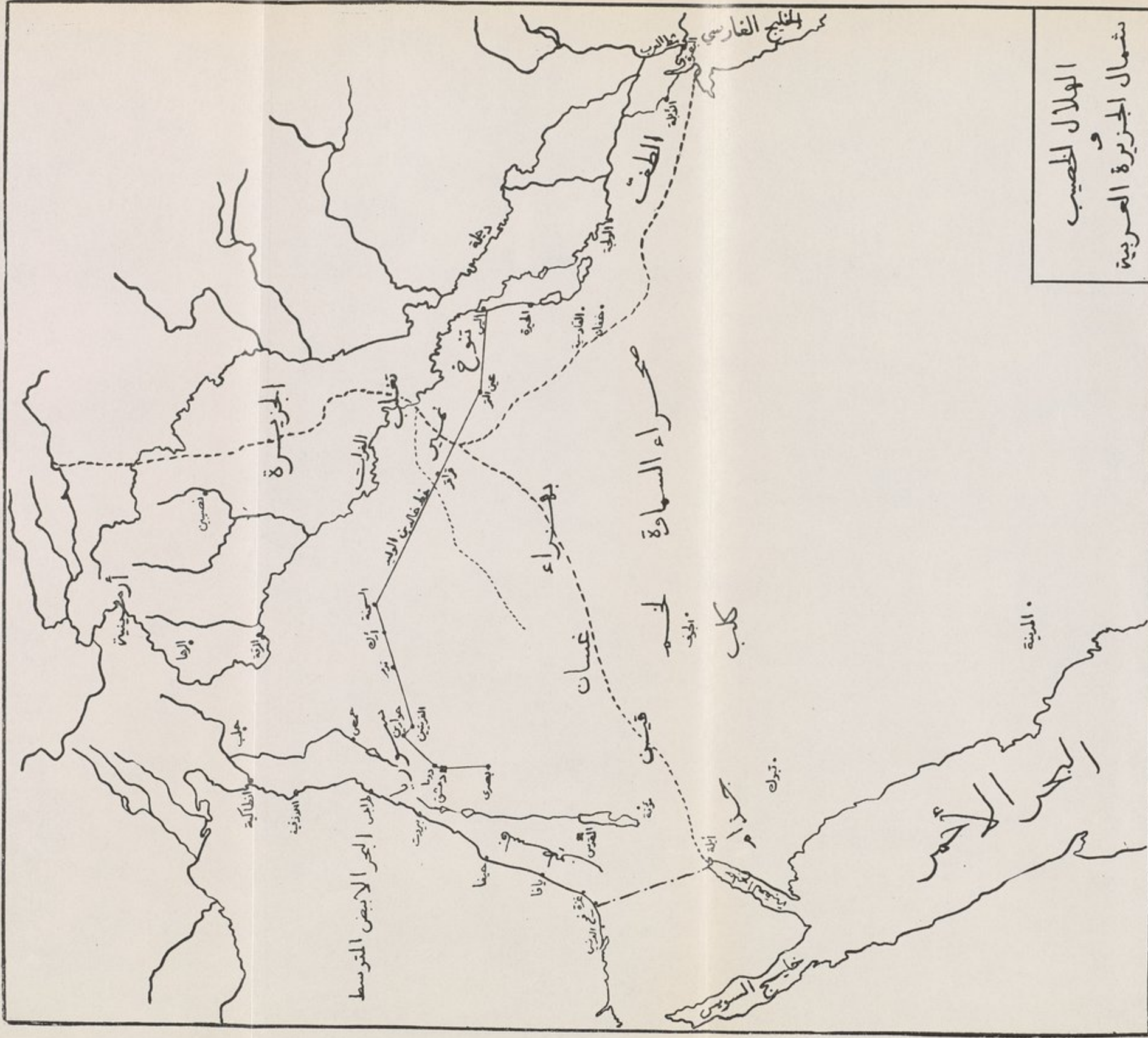
يوحنا (البطريق قائد الأسطول) : ١٣١

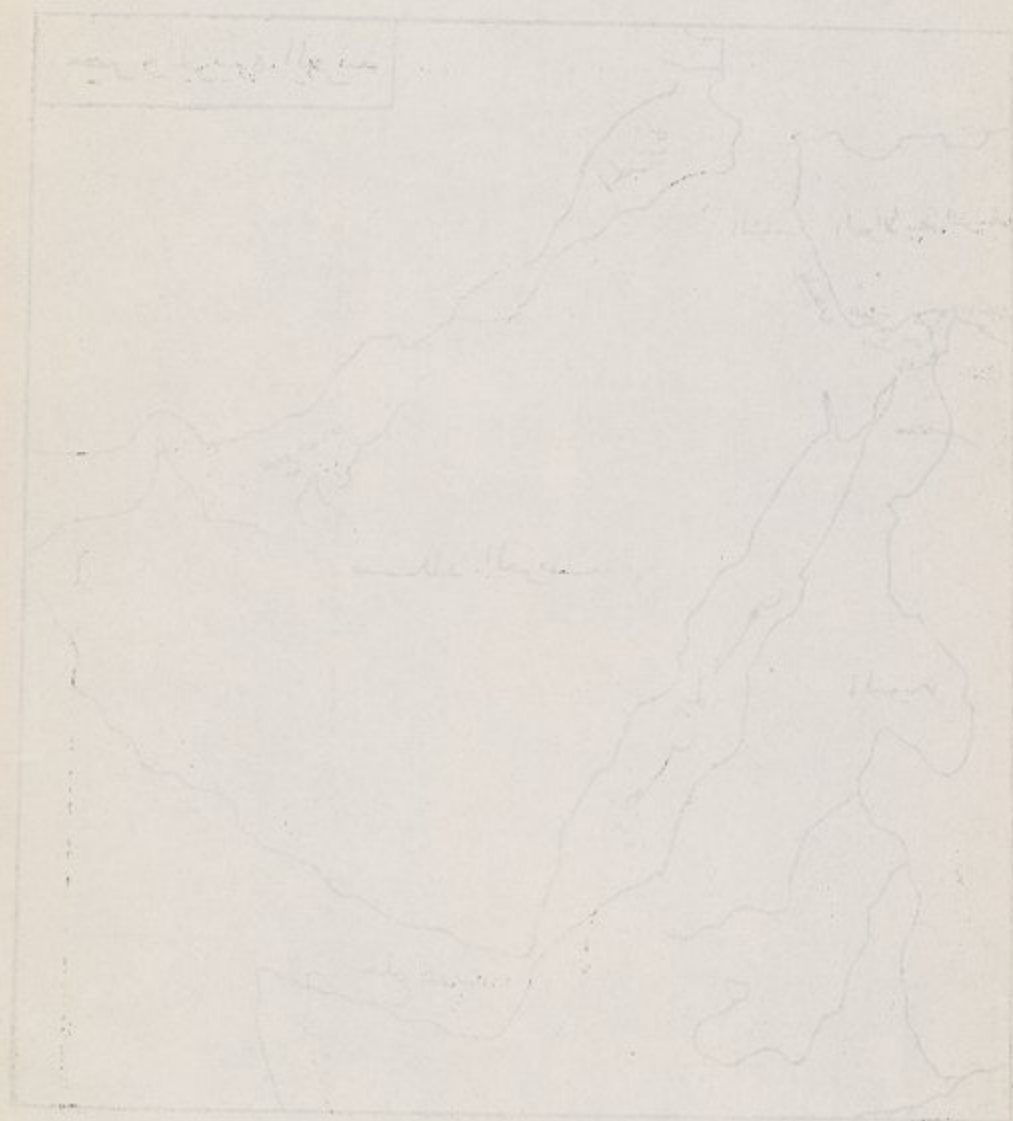
يوحنة بن رؤبة (صاحب أيلة) :

١٣ ، ٢٧

اليونان : ١٧٢

الهلال الخصيب
وشمال الجزيرة العربية





الجناح المشرقي
من
الامبراطورية الاسلامية





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



يطلب من مكتبات :

الخارجي بمصر والمثني ببغداد
والمكتبة العربية ودار القمطة العربية بدمشق
والمعارف في بيروت والنهضة السودانية بالخرطوم
ودار الكتاب بالدار البيضاء

التمن ٢٥ قرشاً